ج ١٩

المنجد في الأدب والنصوص

الدكتور
محمد على سعد

العلم والإيمان للنشر والتوزيع

العلـم والإيمـان للنشـر والتوزيـع
دسوق / ميدان المحطة / شارع الشركات
ت : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١
ف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١
رقـم الإيــداع :
٢٠٠٦/١٧٥٠٨
الترقيم الدولي
I.S.B.N. 977- 308- 070- 6
جمع وإخراج:
عبير السيد أبو شبل

٢٠٠٧م

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ....

وبعد ،

فهذه مختارات شعرية وَنثرية من العصور الأدبية منذ العصر الجاهلي وحتى العصر الحديث ، راعينا في اختيارها الدقة وفي عرضها وشرحها السهولة واليسر ، لتتناسب مع كل الأذواق والثقافات سائلين الله أن ينفع بها طلاب العلم والمعرفة .

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل .

د / محمد علي سعد

الأدب في العصر الجاهلي

يُعد الأدب في العصر الجاهلي - وبخاصة الشعر - ديوان العرب ، وصورة مشرقة حية لهذه الفترة إذ يعتبر سجلا أمينا لكل مظاهر الحياة بكل صورها ، وتاريخياً دقيقاً لأحداث هذا المجتمع وتطوره ، وذلك من خلال أسلوب أدبي ولغة أدبية جذابة شائقة مؤثرة ممتعة .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الأدب الجاهلي مثّل الحياة الجاهلية بكل ألوانها - السياسية والاجتماعية والعقلية ، تمثيلا صادقاً ، في صورة ناطقة بأحاسيس ومشاعر الأدباء والشعراء .

ميزات الأدب الجاهلي:-

بالرجوع إلى الأدب الجاهلي والنظر فيه من ناحية الشكل والمضمون، هما ركنا الأدب وأهم خصائصه - يمكن أن نحصر مميزاته فيما يلي :

١. المفروض أن الشعر هو الفن الأدبي الأول الذي سيطر على هذه الحياة البدوية ما دام الشعر لغة الطفولة الإنسانية ، وأسبق الفنون الأدبية إلى الوجود .
٢. تمتاز العاطفة في الأدب الجاهلي بالصدق ، وذلك لما امتاز به الجاهليون من الحرية والاعتزاز بالنفس ، فلم يكن هناك ما يدعوا إلى النفاق والمداراة ، وقد كان منهم من هجا الملوك والرؤساء وعرض نفسه للهرب أو الهلاك بسبب صراحته وصدق شعوره كطرفه والمتلمس ، وإن لم تصل العاطفة إلى ما نطلق عليه الآن " سمو العاطفة " والنزعة الإنسانية العامة، ولعل ذلك نابع من تأثر الأدب في تلك الفترة بالحياة المادية .

٣. ومن ناحية الفكر فإننا نلحظ أنها ثمرة تجارب شتى، وأفكار متناثرة تمثل الذكاء وحدة الذهن، ولا تمثل النظرة الشاملة أو المنطقة المسلسل المستقيم، وذلك راجع إلى انعدام الحياة العقلية الراقية، فكان الأدب الجاهلي يقوم على الشعور على هذه التجارب العادية والضروريات الطارئة.

٤. أما الخيال، فهو الخيال البياني أو التفسيري القائم على الاستعارة والتشبيه والمجاز وما إليها وهذا النوع طبعي ما دام الأديب يتخذ عناصر هذا الخيال من البادية، فالرجل العظيم فحل، أو قرم أو جبل، والناقة في سرعتها كالحمار الوحشي، والرجل السريع كالظليم أو الحصان، والكريم كالبحر، والشجاع كالأسد، والمرآة كالغزال والبقرة الوحشية، وهكذا يتخذ موضوعاته الوصفية وعناصره الخيالية من الصحراء والسماء والكواكب والحيوان، فهو أدب حقيقي قلما تجد فيه مبالغة تخالف ظروف العصر وأحواله.

٥. أما من ناحية الأسلوب، فهو الأسلوب الطبيعي العربي الخالص القائم على قلة الترادف والتكرار، وعدم الثرثرة، وعدم الاهتمام بالفنون البديعية، وذلك لقرب اللغة من عهدها الطبيعي اليسير، وكذلك الميل إلى الإيجاز ولاسيما في النثر، كما كان الأسلوب خاليا من اللحن.

ولسنا ممن يقول بغرابة اللغة الجاهلية أو صعوبة عبارتها، فذلك يجب أن يقاس بمستوى ومصارف الجاهليين أنفسهم، وما دام هذا الأدب مفهوما لديهم يتلقونه ويعارضونه ويتأثرون به، فهو أدبهم السهل الطبيعي المعروف.

والأدب الجاهلي بهذه الصورة سيظل معيناً لا ينضب للأدباء والدارسين على مر العصور واختلاف الأماكن.

نونية المثقب العبدي

هذه القصيدة من بحر " الوافر "

نص القصيدة : -

١. أفـــاطم قَبْـــلَ بينـــك متعينــــي
ومنعك مـــا ســـألت كـــأن تبينـــى

٢. ولا تعـــدى مواعـــد كاذبـــات
تمر بهـــا ريـــاح الصـــيف دونـــي

٣. فـــإني لـــو تخـــالفني شـــمالي
خلافك مـــا وصـــلت بهـــا يمينـــي

٤. إذا لقطعتهـــا ولقلـــت بينـــي
كـــذلك أجتـــوى مـــن يجتـــويني

٥. لمن ظعن تطالع مـــن ضـــبيب
فما خرجت من الـــوادي لحـــين ؟

٦. تبصر هلى ترى ظعناً عجـــالاً
بجنب الصحصحان إلى الـــوجين ؟

٧. مررن على شراف فذات رَجْلٍ
ونكـــبن الـــذرانح بـــاليمين

٨. وهن كذاك حين فقطعن فلجـــا
كـــأن حـــدوجهن علـــى ســـفين

٩. يشبهن الســـفين وهـــن بخـــت
عراضـــات الأبـــاهر والشـــؤون

١٠. وهن على الرجائز واكنـــات
قواتـــل كـــل أشـــجع مســـتكين
١١. كغزلان خذلن بـــذات ضـــال
تنوش الـــدانيات مـــن الغصـــون
١٢. ظهرن بكلة وســـدلن رقمـــا
وثقـــبن الوصـــاوص للعيـــون
١٣. أرين محاسناً وكـــنن أخـــرى
مـــن الـــدياج والبشـــر المصـــون
١٤. ومن ذهب يلوح على تريـــب
كلون العاج ليس بـــذى غضـــون
١٥. وهن على الظـــلام مطلبـــات
طـــويلات الـــذوائب والقـــرون
١٦. بتلهية أريـــش بهـــا ســـهامي
تبـــذ المرشـــقات مـــن القطـــين
١٧. علون رباوة ، وهبطن غيبـــاً
فلـــم يـــرجعن قائلـــة لحـــين
١٨. فقلت لبعضهن وشد رحلـــي
لهـــاجرة نصـــبت لهـــا جبينـــي
١٩. لعلك إن صرمت الحبل مني
كذاك اكـــون مصـــحبتي قرونـــي

٢٠. فسل الهم هنك بـذات لـوث
عـذافرة كمطرقـة القيـون

٢١. بصادقة الوجيف كـأن هـراً
يباريهـا ويأخـذ بالوضـين

٢٢. كساها تامكـا قـرداً عليهـا
سـوداى الرضـيخ مـع اللجـين

٢٣. إذا قلقت شددت لهـا سـنافا
أمام الزور مـن قلـق الوضـين

٢٤. كأن مواقـع الثفنـات منهـا
معـرس بـاكرات الـورد جـون

٢٥. يجذ تنفس الصـعداء منهـا
قوى النسع المحـرم ذي المتـون

٢٦. تصـك الجـانبين بمشـفتر
لـه صـوت أبـح مـن الـرنين

٢٧. كأن نفى مـا تنفـى يـداها
قـذاف غريبـة بيـدي معـين

٢٨. تسد بـدائم الخطـران جثـل
خوايـة فـرج مقـلات دهـين

٢٩. وتسـمع للـذباب إذا تغنـى
كتغريـد الحمـام علـى الوكـون

٣٠. وألقيت الزمام لهـــا فنامـــت
لعادتهـــا مـــن الســـدف المبـــين

٣١. كأن مناخهـــا ملقـــى لجـــام
علـــى معزائهـــا وعلـــى الـــوجين

٣٢. كأن الكور والأنســـاع منهـــا
علـــى قـــرواء مـــاهرة دهـــين

٣٣. يشق الماء جؤجؤهـــا وتعلـــو
غوارب كـــل ذي حـــدب بطـــين

٣٤. غدت قوداء منشـــقا نســـاها
تجاســـر بالنخـــاع وبـــالوتين

٣٥. إذا ما قمـــت أرحلهـــا بليـــل
تـــأوه آهـــة الرجـــل الحـــزين

٣٦. تقول إذا دارأت لها وضـــيني
أهـــذا دينـــه أبـــداً وديـنـــي ؟

٣٧. أكل الـــدهر حـــل وارتحـــال
أما يبقـــي علـــى ومـــا يقينـــي ؟

٣٨. فأبقى بـــاطلي والجـــد منهـــا
كـــدكان الداربنـــة المطـــين

٣٩. ثنيت زمامها ووضعت رجلي
ونمرقـــة رفـــدت بهـــا يمينـــي

٤٠. فرحت بها تعارض مسـبطرا
على صحصاحة وعلـى المتـون

٤١. إلى عمرو ومن عمرو أتتني
أخي النجـدات والحلـم الرصـين

٤٢. فإما أن تكـون أخـي بحـق
فاعرف منك غثـي مـن سـميني

٤٣. وإلا فـاطرحني واتخـذني
عـدواً أتقيـك وتتقينـي

٤٤. وما أدري إذا يممت وجهـا
اريـد الخيـر أيهمـا يلينـي

٤٥. ألخيـر الـذين أنـا أبتغيـه
أم الشـر الـذي هـو يبتغينـي ؟

التعريف بالشاعر [1]

✍ هو عائد بن محصن بن ثعلبة بن وائلة بن نكرة بن عبد القيس بن أسد بن ربيعة . ولقب بالمثقب لبيت قاله هو :

ظهرن بكلة وسدلن رقما وثقبن الوصاوص للعيون .

✍ لم تجد المصادر الأدبية بشيء يكشف النقاب عن حياة المثقب الأسرية . وكل ما لدنيا أن أباه – محصن بن ثعلبة – كان رجلاً مرموقاً في قبيلته . لقب بالمصلح لأنه قام بالصلح بين قبيلتي بكر وتغلب . وكذا قبيلتي عوف وعامر . وفي هذا يقول المثقب :

١- انظر ترجمته في : شرح المفضليات للتبريزي ٢ / ٥٥٥ ، طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ١ / ٢٧١ ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٣٩٥ .

أبي أصلح الحيين بكراً وتغلباً

وقد أرعشت بكر وخف حلومها

وقام بصلح بين عوف وعامر

وخطة فصل ما يعاب زعيمها

ومما لدينا أيضاً أن أخته هي ام شاس بن نهار العبدي الشاعر المعروف باسم الممزق ، أما تاريخ مولده فمجهول وتوفي سنة (٥٨٨ م) .

✍ والمثقب العبدي من شعراء عبد القيس ، وهي إحدى قبائل البحرين التي دانت بالنصرانية في الجاهلية ، ولذا عده الأب لويس شيخو ضمن الشعراء النصرانيين في كتابة الشعراء النصرانية في الجاهلية ، ومما يشير إلى نصرانيته ذكره للفظ الجلالة مرجئاً إليه الثواب والجزاء في قوله :

فجزاه الله من ذي نعمة

وجزاه الله إن عبد كفر

كما جاء مقرا بمشيئة الله بعد تيقنه ، في قوله :

وأيقنت إن شاء الإله بأنه

سيبلغني أجلاها وقصيدتها

ومن أقواله التي نستشف منها لوناً من ديانته ، والتي تومى إلى وجود إله مدبر ، فتعكس لوناً من نصرانيته :

وما أدري إذا يممت وجها

اريد الخير أيهما يليني

ألخير الذي أنا ابتغيه

أم الشر هو يبتليني؟

- وقد تعددت ألوان الثقافات في شعر المثقب العبدي ، وإن في معظمها مستمدة من البيئة المحيطة به ، والأفكار السائدة فيها .

ومن أهم مظاهرها تلك الثقافة اللغوية التي تجلت في اتساع لغته الشعرية وتعدد مرادفاتها بصورة بينه تمكنه من اختيار اللفظ المناسب للمعنى المراد ، فجاءت ألفاظه دقيقة في مدلولاتها .

- كما اتسمت ثقافة المثقب ببعض السمات الحضرية ، ولعله اكتسبها من بيئته – البحرين لوقعها في كنف مملكة الحيرة ، والاحتكاك بها ، هذا بالإضافة إلى ما للبحرين من سمات حضرية نتيجة لوقوعها على شاطئ الخليج العربي ، مما سهل لها حياة الاستقرار ، وفتح أمامها أبواب الرزق كالزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، والصيد ، فبدا طبيعياً أن تتسم الحياة في البحرين بالسمة الحضري ، والتي أثرت بدورها في ثقافة المثقب .
- وكما تأثرت ثقافة المثقب العبدي بالبيئة المحيطة به بدت كذلك متأثرة بالمعتقدات السائدة فيها آنئاك ، فبدا أثرها واضحا جليا في شعره.
- هذا وقد جاءت أشعار المثقب خير شاهد على طيب عنصره وسمو خلقه، ومن أشعاره التي تؤكد ذلك قوله :

أجعل المال لعرضي جنة
إن خير المال ما أدى الذمم

ومن أشعاره التي تشير إلى عزة نفسه وأنفته ، قوله :

أنا بيتي من معد في الذرى
ولي الهامة والفرع الشم

وكذلك يتعفف عن الغبية والفحش . إذ يقول :

لا تراني راتعا في مجلس
في لحوم الناس كالسبع الضرم
وكلام سيء قد وقرت
عنه اذناى وما بي من صمم

ومن أقواله التي تدل على تسامحه وصفحه عند الإساءة إليه :

ولبعض اصفح والإغراض عن
ذي الخنا أبقى وإن كان ظلم

وقد تأثر بشعر المثقب عديد من الشعراء المعاصرين له واللاحقين به ومن هؤلاء : الطرماح ، والشماخ بن ضرار ، والنابغة الذبياني .

اللغة والمعاني :

أفاطم قبل بينك متعيني
ومنعك ما سألت كأن تبيني
ولا تعدي مواعد كاذبات
تمر بها رياح الصيف دوني
فإني لو تخالفني شمالي
خلافك ما وصلت بها يميني
إذا لقطعتها ولقلت بيني
كذلك أجتوى من يجتويني

اللغة :

افاطم : أراد أفاطمة ، فقطع آخر الآسم وهو الترخيم .

البين : البعد والفراق. **متعينى :** يريد متعينى بوصلك .

ومنعك ما سألت : أي منعك لوصلي . **كأن تبينــى :** أي كمفارقتك عندي .

تمر بها : تذهب بها وتفرقها في كل وجه . وخص رياح الصيف دون سائر الأزمنة ، لأن الخير يقل فيها ويكثر غبارها ولا يجلب مطرا .

وقال الأستاذ " محمود شاكر " إنما عنى برياح الصيف مما يثور بينه وبينها من الخلاف والعناد واليأس ، وكل ما يذهب بالمودة ويعصف بالمواعيد .

بينى : ابتعدي . **الاجتواء :** الكراهة والاستثقال .

المعنى :

افتتح الشاعر قصيدته بخطاب مباشر إلى صاحبته - فاطمة - يستنكر فيه عزمها على الفرقة والارتحال ، ويأمرها بأن تتمهل في فراقها حتى تصله كسابق عهدها ، وأن تلتزم في وعودها دون خداع أو مواربة ، وإلا فلن يشفع لخداعها مكانها في قلبه مهما تعاظم قدرة ، فلو أبي عزيز، تأبى عليه نفسه أن يرتضي الخنوع والاستسلام لنداء قلبه ، فلو قدر لشماله أن تخالف يمينه على شاكلة صاحبته لقطعها دون تردد أو تريث ملوحا بها بعيداً عنه ، فلا حاجة به لمن رغب عنه وأحب مفارقته .

لمن ظعن تطالع من ضبيب

فما خرجت من الوادي لحين

مررن على شراف فـذات رجـل
ونكـــبن الـــذرانح بـــاليمين
وهن كـذاك حـين قطعـن فلجـا
كـأن حـدوجهن علـى سـفين
يشـبهن السـفين وهـن بخـت
عراضـات الأبـاهر والشـؤون

اللغــة :

ضبيــب : أسم مكان . **لـين** : أي بعد إبطاء ومضي وقت.

ذات رجل : موضع .

الذرانــح : جمـع ذرنخـة . وهـي الأكمـة دون الهضـبة ، وهـو هنـا موضـع معـروف بين كاظمة والبحرين .

نـكبـن : عدلن عنه .

ومعنى كذاك : أي حالتها الأولى يوم قطعن فلجاً ، وكأن حمولهن على سفين .

السفين : جمع سفينة . **العراض** : العريض المفرط .

الاباهـر : الظهور ، وأصل الأبهر عرق في الظهر .

الشؤون : جمع شأن . وهي شعب قبائل الرأس التي تجري منها الدموع إلى العينين .

المعني :

ويحـاول الشـاعر أن يضـفي صـبغة واقعيـة علـى تجربتـه بتحديـده للأمـاكن الـتي مـر بهـا موكـب صـاحبته عنـد الارتحـال ، مـن ضـبيب ، والصحصـان ، والـوجين ، وشـراف ، وذات رجـل ، والـذرانح ، وقـد عمـد الشـاعر إلى ذكـر هـذه الأمـاكن لتحـري

الدقة في وصفه للطريق ، كما أنها تحقق له المتعة واللذة بذكرها وتساعده على استحضار عناصر تجربته في جميع صورها ، هذا بالإضافة إلى كونها علامات على الطريق ترشد من ضل طريقة في البيداء.

ثم انتقل بعد ذلك إلى لقطة أخرى يشبه فيها إبل الموكب في ضخامتها وسرعة سيرها بانسياب السفن في الماء ، فهي طويلة ، عريضة الظهر ، تتمايل في سيرها كتمايل السفن في الماء .

وهن على الرجائز واكنات
قواتل كل أشجع مستكين
كغزلان خذلن بذات ضال
تنوش الدانيات من الغصون
ظهرن بكلة وسدلن رقما
وثقبن الوصاوص للعيون
أرين محاسناً وكنن أخرى
من البياج والبشر المصون
ومن ذهب يلوح على تريب
كلون العاج ليس بذي غضون
وهن على الظلام مطلبات
طويلات الذوائب والقرون
بتلهية أريش بها سهامي
تبذ المرشقات من القطين

اللغـــة :

الرجائز : مراكـب النسـاء ، جمـع رجـازة ، وهـي أصـغر مـن الهـوادج . واكنـات جلسات مطمئنات .

وقوله " قواتل كل أشجع ، أي كل رجل أشجع في نفسه مستكين لهن .

والاستكانة : الخضوع . **خذلن :** جنحن .

ذات ضـال : أسم موضع . **تنوش :** تقطف .

الكلة : غطاء يفرش على الهودج .

الرقم : البرود ، أو ضرب مخطط من الوشي .

الوصاوص : البراقع .

البشر المصون : بعـض بشـرتها كاليـد وبعـض الوجـه، ومـا لا ريبـة في إظهـاره، وسترن ما عدا ذلك .

الترائب : جمع تريبة، وتجمع على ترائب ، وهي عظام الصدر موضع القلادة .

الغضون : تثنى الجلد .

على الظلام : أي على ظلمهن . **مطلبات :** مطلوبات لفرط جملهن .

الذوائـــب : ضفائر الشعر المسترسلة على الظهر .

القـرون : خصلة من الشعر بجوار الأذن .

تلهيـــة : تفعلـة مـن اللـهو ، أي ننصـب الحبالـة لهـن ، ونعـد سـهام اللـهو فنرصد لصيدهن . **تبـذ :** تسبق .

المرشقات : الحديدات النظر، وقيل لا يكون الارشاق إلا بمد العنق .

القطيـــن : الخدم ، والجيران ، والتباع .

المعنى :

ثم انتقل شاعرنا إلى وصف جمال محبوبته ، وهي في معية صويحباتها - حتى لا يظهر صورتها كاملة أمام السامعين ، متبعاً في ذلك تقاليد البادية العربية في ضرورة الحفاظ على المرأة وصونها فأشاد بفرط جمالهن حتى استطعن أن يقتلن بسهام نظراتهن كل شجاع في استكانة ويسر، حتى لا يملك من أمر نفسه إلى أن يستكين ويخضع لسلطان جمالهن ، والذي رحن يكشفن عن بعضه من البشرة الملتفة في أبهى ثياب من الديباج والحرير، والصدور البيضاء التي تشبه العاج في بياضه وإشراقه، مما مكنهن من استلاب قلوب الرجال في خفة ورشاقة كغزلان تتهاوى في رياض يانعة يقطفن من ثمار غصونها الدانية، وهن على ظلمهن للرجال مطلوبات لفرط جمالهن ، فهن طويلات الذوائب والقرون ، ولذلك يحتال لهن الرجال ويعدون لهن سهام الصيد ليفوزوا بودهن ويلهوا بوصلهن .

علون رباوة ، وهبطن غيبا
فلم يرجعن قائلة لحين
فقلت لبعضهن وشد رحلي
لهاجرة نصبت لها جبيني
لعلك إن صرمت الحبل مني
كذاك أكون مصحبتي قروني

اللغة :

الرباوة : ما ارتفع من الأرض .

الغيب : ما أطمأن من الأرض . فغاب عنك ما فيه. فلم يرجعن قائلة .

لحين : أي مستمرات في السير ، ولم يملن إلى قيلولة .

الهاجرة : نصف النهار عند اشتداد الشمس ، وقوله لهاجرة أي من أجلها، وسميت هاجرة لأن السير يهجر فيها .

نصبت لها جبيني : أي وطنت نفسي على ركوبها.

وقوله صرمت الحبل مني : يكني به عن هجرها له وقطعها لوصله.

مصحبتي : تابعتي : يقال : ضربت البعير حتى أصحب أي تبع وانقاد .

قرونه : نفسه وموضع ، مصحبتي مبتدأ وقورني خبرة ، والجملة تفسير لقوله.

كذاك : وكذاك خير أكون ، والجملة تترجم عن جواب الشرط .

المعنى :

ويعاود الشاعر تتبعه لموكب صاحبته في عزيمة وإصرار يتزود من حميتهما ما يمكنه من تحمل ويلات الطريق ووعثاونة ، وحرارة الهاجرة ولهيبها ، فيعقبه عن حرص وكثب في صعوده وهبوطه . ثم يقدم - هذه المرة - في جرأة على مخاطبة صاحبته مباشرة محذراً لها ألا تتصرف عنه في وصلها وودها ، وإلا نالت منه مثيل فعلتها فينصرف إلى نفسه ويصحبها بدلاً منها .

وهذا النهج وإن كان في ظاهرة يبدو مخالفاً لما يجب أن يكون عليه المحب مع محبوبته من التهالك والصبابة إلا أنه يتواءم مع حمية الجاهلي وصبوته واعتزازه بنفسه عند احتكاكه بما يؤلمه ويثير صبوته وبخاصة إذا كان في مقام الفخر كشان شاعرنا ، وإلى هذا المعنى أشار الدكتور / محمد أبو موسى في قوله : " وهذا الضرب من الغزل الذي ترى حوله أنغام الاعتزاز والتغني بالفعال الكريمة وطبائع النفس الممتازة هو الشبه بالشخصية العربية، والإنسان العربي في هذه

الحقبة من تاريخه وأن الصبوة وإنما تثير عند هذا العربي الشعور بالتماسك والجلادة والقوة والشباب " [١]

ولعل الشاعر يرمز بصعود الموكب وارتحاله إلى مواقع تجربته مع صاحبته وما يتخللها من شبوب في العاطفة وهدوء يعقبه .

فسل الهم عنك بذات لوث
عذافرة كمطرقة القيون
بصادقة الوجيف كأن هرأ
يباريها ويأخذ بالوضين
كساها تامكا قردا عليها
سوادى الرضيخ مع الوجين
إذا قلقت شددت لها سنافا
أمام الزور من قلق الوضين
كأن مواقع الثفنات منها
معرس باكرات الورد جون

اللغة :

الهم : الحزن ، وهو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل.

ناقة ذات لوث : أي ذات قوة ، وقيل كثيرة اللحم ، واللوث من الأضداد بمعنى القوة والضعف .

العذافرة : الشديدة القوية . **القيون** : جمع قين وهو الحداد .

الوجيف : السير السري .

١- قراءة في الأدب القديم د. محمد أبو موسى ص ٧٣ الطبعة الأولى دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٧٨م.

وقولـه : بصادقة الوجيف بدل من قوله : بذات لوث .

يباريها : يريد به ينافسها ويخدشها .　　　**الوضين :** حزام الرحل .

التامك : السنام المشرف.　　　**القـرد :** المجتمع الصلب .

السوادى : يريد علف السواد وهو القت والنوي ، ونسبة إلى السواد لأنه علف الأمصار لا البدو .

الرضيخ : المدقوق من النوى .

اللجين : ما تلجن ولزق بعضه ببعض ، يريد أنها علفت حتى سمنت ، وركبها سنام مشرف .

السناف : خيط أو حبل رقيق يشد من اللبب إلى الوضين لضمر البعير.

الـزور : الصدر ، أو العظم الذي في وسط الصدر .

الثفنات : ما مس الأرض من يديها ورجليها ومقدمة صدرها عند البروك ، وهن خمس .

المعرس : موضع التعريس ، والتعريس هو النزول آخر الليل . أو أوله.

باكرات الورد : أي مبكرات إلى الماء ، ويعني هنا القطا ، وهي طائر في حجم الحمام.

جـون : سود ، وخص القطا الجوني للطافته .

المعنى :

ثم يتخلص الشاعر من حديثه عن صاحبته إلى وصف ناقته التي امتطاها صحرائه - حتى ينفس عما احتشد في صدره من لهيب الوجد والصبابة - فراح يمعن في وصف شدتها وقوتها، فهي ناقة قوية شديدة تشبه في صلابتها مطرقة الحدادين ، كما أنها تسرع في عدوها وكأن هرا بجانبها ينهشها بأنيابه ومخالبه ،

فتجـد في عـدوها وانطلاقهـا حتـى تتقـى مخالبـه وأنيابـه، ولم لا وهـي ناقـة قويـة البنيـان علفـت حتـى سمنـت واعتلاهـا سـنام مشـرف . قـد يسـبب قلقـا لاسـتواء الرحـل علـى ظهرهـا فيشـد لـه حبـل لتثبيتـه ، وقـد بلغـت مـن قوتهـا وضـخامتها أنهـا تـترك آثـاراً لبروكهـا علـى الأرض تشـبه اثـار أفـراخ القطـا عنـد هبوطها عند موردها بكورا .

يجـذ تـنفس الصـعداء منهـا
قوى النسع المحـرم ذي المتـون
تصـك الجـانبين بمشـفتر
لـه صـوت ابـح مـن الـرنين
كـأن نفـى مـا تنفـى يـداها
قـذاف غريبـة بيـدي معـين
تسـد بـدائم الخطـران جثـل
خوايـة فـرج مقـلات دهـين
وتسـمع للـذباب إذا تغنـى
كتغريـد الحمـام علـى الوكـون

اللغـة :

يجذ : يقطع . **تنفس الصعداء** : يعني به هواء زفيرها عند التنفس.

النسع : حبل يشد به الرحل يمتد على وسط الناقة .

المحرم : الذي لم يدبغ ولم يلين . **القوى** : الطاقات .

ذو المتون : ذو القـوى ، والمعنـى أنهـا إذا زفـرت قطعـت النسـع بتنفسـها لأنهـا شديدة عظيمة الوسط .

تصك : تزج أو ترمي .

المشفتر : المتفرق ، ويعني به هنا المتفرق من الحصى .

البحـة : صوت فيه غلظة . **المعين :** الأجير .

الغريبة : الرحى . **ونفيها :** ما تطحنه وتقذف به .

دائم الخطران : ذنبها . **خطراته :** حركته .

الخواية : الفرجة . **الجثـل :** الكثير الشعر .

المقلات : التي لا يبقى لها ولد . **الدهين :** القليلة اللبن

الذباب : أراد به هنا حد نابها إذا صرفت بأنيابها .

التغريد : التطريب . **الكون :** جمع وكن. وهو عش الطائر.

المعنى :

ويستمر الشاعر في وصف قوة ناقته وضخامتها ، فهي ناقة قوية تقطع سير الرحل المتين إذا ما تنفست حتى أنها لترمي بالحصى - من فرط سرعتها - في سيرها فتقذف به جانبيها بشدة ، فتسمع له صوتاً أشد من الرنين يشبه صوت النوى المقذوف من بين شقي رحى سريعة الدوران ، كما أنها تمتلك ذنباً سميكاً دائم الخطران تسد به ما بين قوائمها ، وتسمع لأنيابها إذا ما صرفت بها صوتا يشبه تغريد الحمام على الكون .

فألقيـت الزمـام لهـا فنامـت
لعادتهـا مـن السـدف المبـين
كـأن مناخهـا ملقـى لجـام
علـى معزائهـا وعلـى الـوجين

كـــأن الكـــور والأنســـاع منهـــا
علـــى قـــرواء مـــاهرة دهـــين
يشـــق المـــاء جؤجؤهـــا وتعلـــو
غوارب كـــل ذي حـــدب بطـــين
غـــدت قـــوداء منشـــقاً نســـاها
تجاســـر بالنخـــاع وبـــالوتين

اللغـــة :

السدف : الليل ، والسدف النهار ، ويريد به هنا الضوء.

المبين : البين **العادة** : النزول من وقت السحر في مثل ذلك الوقت

المعزاء : الموضع الكثير الحصى .

الوجين : مـــا غـــظ مـــن الأرض وارتفـــع، فشـــبه مواقـــع ثفناتهـــا بمواقـــع أشـــلاء اللجّام إذا ألقي

الكور : الرحل .

النساع : جمع نسع ، وهو سير تشد به الرحال .

قرواء : سفينة طويلة . **ماهرة** : سابحة .

دهين : مدهونة . **الجؤجؤ**: الصدر .

الغوارب : الأمواج . **الحدب** : الموج المرتفع .

البطين : الواسع البعيد . **القوداء** : الطويلة العنق .

وأراد بالنسا : موضـــع النســـا، وإذا سمنـــت الناقـــة انشـــقت اللحمتـــان في الفخذين فجرى النسا بينهما واستبان .

النخاع : خيط ممتد أبيض في الصلب .

المعنى :

ويواصل الشاعر وصف ناقته وضخامة بنيانها ، فهي ناقة صلبة شديدة المراس يواصل ترحاله عليها ليل نهار ، حتى أنها لا تهجع لنومها إلا في نهاية الليل بعد طول عناء ومشقة ، فتترك أثرا لمواقع بروكها يشبه مواقع أشلاء لجام ألقي على الأرض ، وهي في ضخامتها وعنفوانها تشبه سفينة تتهادى فوق المياه بعد أن تشق بصدرها الأمواج المتلاطمة ، ولا غرو في هذا فهي ناقة قوية علفت حتى اكتملت لها روافد القوة والنشاط من السمنة وسرعة العدو .

إذا ما قمت أرحلها بليل
تأوه آهة الرجل الحزين
تقول إذا درأت لها وضيني
أهذا دينه وديني
أكل الدهر حل وارتحال
أما يبقى علي وما يقيني ؟!

اللغة :

ارحله : أجعل عليه الرحل واشد عليه أداته .

التأوه : الوجع .

دراته : مددته وشددت به رحلها .

الوضين : حزام الرحل .

دينه : عادته ودأبه .

يقيني : يحفظني ويصونني .

المعنى :

ويتمادى المثقب في وصف ناقته حتى يتغلغل إلى أعماقها ، فيترجم لنا عما يجول بخاطرها - إن قدر لها أن تتكلم - فهي تتأوه منه حزنا عندما يعدها للرحيل ليلاً . تفضي عما في قلبها من شكوى قائلة : إلى متى يستمر في حلة وترحاله . أما يحرص على ويقيني من هذا الهلاك ؟!

ولعل المثقب هنا أراد التنفيس عما احتدم في صدره من مشاعر الضيق والملل ، فعبر عنها بلغة شعرية وأعارها لسان ناقته ، فجاءت مصبوغة بصبغة النفسية .

فأبقى باطلى والجد منها
كدكان الداربنة المطين
ثنيت زمامها ووضعت رحلي
ونمرقه رفدت بها يميني
فرحت بها تعارض مسبطراً
على صحصاحة وعلى المتون

اللغة :

باطلي : أي ركوبي لها في طلب اللهو والغزل .

الجد : انكماشها في السير . ودكان الدرابنة دكان البوابين، الواحد دريان، وهو فارسي معرب .

المطين : من طنته أطينه . وموضع الكاف من قوله : كدكان مفعول به أي مثل دكان .

نمرقة : وسادة اعتمدت عليها . **تعرض** : تبارى وتحاكى .

مسبطرا : أي طريقا ممتداً . **الصحصاح :** المستوى من الأرض.

المتون : جمع متن ، وهو الصلب من الأرض

المعنى :

ويوصل شاعرنا وصفة لقوة ناقته – من زاوية جديدة – فيصرح بصلابة ناقته وشدتها بعد مرورها بكل هذا المصاعب والمهالك التي لم تستطيع النيل من قدرتها بل بقيت على قوتها وضخامتها كأنها بناء ضخم مطين يشبه مقعد البوابين. ولفرط قوتها ونشاطها راح يستأنف عليها ترحالة يعارض بها أعتى السبل وأصعبها في محتلف ألوانها .

إلى عمرو ومن عمرو أتتني
أخي النجدات والحلم الرصين
فإما أن تكون أخي بحق
فاعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطرحني واتخذني
عدوا أتقيك وتتقيني

اللغة :

عمرو : هو عمر بن هند ، وأمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندي ، وأبوه المنذر بن امرئ القيس اللخمي .

ومعناه : قصدت بناقتي عمر، ومن عنده أتتني النجدات .

فاعرف منك غثي من سميني : أي فاعرف نصحك من غشك .

اطرحني : اتركني .

المعنى :

وبعد أن انتهى الشاعر من نسيبه بمحبوبته ، ووصفه لناقته ورحلته عليها ، مظهراً لصاحبته - فاطمة - قوة مراسه ، ونبل خصاله ، وسمومكانته ، التفت - بعد اربعين بيتاً - مادحاً لعمرو بن هند من قبيل الفخر بصلته به ، باعتباره ركن تكتمل به عناصر فحولته وعزته وروافد إبانه وشممه ، حتى يكشف لصاحبته أنه يتمتع بمكانة تجعله خليقاً بحبها فتعاوده بوصلها من جديد ، فها هو ذا يقول مخاطباً عمرو بن هند : إن لم تكن الأخوة بيننا على ما بينته وحددته ، فانفض يدك مما بيني وبينك ، واتخذني عدوا لك احترز منك وتحترز أنت مني ، وينطوي كل منا على ضغن صاحبه والحذر من شره .

وما أدري إذا يممت وجها

اريد الخير أيهما يليني

ألخير الذين أنا أبتغيه

أم الشر الذي هو يبتغيني

اللغة :

اكتفى الشاعر بذكر أحد الأمرين - في البيت الأول - وهو الخير ، اعتماداً على ما يجئ بعده - في البيت الثاني - من التصريح بالأمر الثاني وهو الشر .

المعنى :

ويختتم الشاعر قصيدته بحكمة أبدية راسخة يكشف فيها عن جهل الإنسان بما تضمره له الأقدار ، فعلى المرء أم يسعى لبغيته دون اكتراث بنتائج سعيه ، فهي متروكة لما قدر له .

التحليل والتعليق :

تعد نونية المثقب من أشهر قصائده الشعرية ، وأكثرها شيوعاً وانتشاراً ، تجلت فيها موهبة المثقب الفنية ، وعدد فيها من موضوعاته الشعرية كالنسيب ، والوصف ، والفخر ، والحكمة ، في تجاور محكم ، وبناء متكامل. فجاءت قصيدته متلاحمة متماسكة ، تمثل قيما فنية أصيلة ، ولذا حظيت بتعليقات كثيرة من النقاد، حتى ورد ذكرها في أكثر من أربعين مصدراً ، وصدق " أبو عمرو بن العلاء " حين قال : " لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه " [١]

١ . غرض القصيدة

ومن أهم النقاط التي وقف النقاد بصددها في هذه القسيدة ، الغرض المنشود منها ، أو الهدف الذي يبتغيه الشاعر من نظمها ، واخبرنا شراح الشعر الجاهلي مرة بعد مرة أن المدح هو الغرض الحقيقي لهذه القصيدة ، وأن مطلعها الغزلي ، ووصف الظعن والظاعنات ، ووصف الناقة أيضاً ، وما ختمت به القصيدة إن هي إلا مقدمات للغرض الأصلي وتعليقات عليه [٢].

ويشير الدكتور طه حسين إلى أن الغرض الأصلي من نظمها هو العتاب ، إذ يقول : " وشاعرنا يطيل شيئاً في غزله وعتاب صاحبته ووصف الظعائن ، وهو يطيل كذلك في وصف ناقته والفلاة ، فإذا انتهى إلى صاحبه الذي يريد أن يعاتبه لم يطل في العتاب ، وإنما انقطع حديثه فجأة " [٣] .

١- الشعر والشعراء ١ / ٣٩٥ .
٢- انظر قراءة الشعر ١ / ٢٤٢ .
٣- حديث الأربعاء ١/ ١٦٦.

على حين يشير الدكتور الربيعي إلى وصف الناقة هو العرض المنشود مبينا " أن الناقة – دون سواها – تبقى هنا محور العمل الشعري . ويبقى كل شيء عداها على هامش هذا العمل " [1].

والواقع أن الغرض الحقيقي من هذه القصيدة هو الفخر ، فلو نظرنا بعمق إلى جميع موضوعاتها لوجدناها تتسم بالفخر ، فالشاعر يهدف من وراء فخره هذا إلى أن يثبت لمحبوبته " فاطمة " أنه يتمتع بمكانة عالية ، وخصال نبيلة ، تجعله خلقياً بحبها، فتعاوده بوصلها وودها بعد قطعهما عنه.

والمثقب في نونيته جاء مخاطباً لعمرو بن هند في ثلاثة أبيات تعلوها نبرة عالية من العزة والكبرياء ، يقول فيها : [2].

إلى عمرو ومن عمرو أتتني
أخي النجدات والحلم الرصين
فإما أن تكون أخي بحق
فاعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطرحني واتخذني
عدواً أتقيك وتتقيني

واختلف النقاد حول هذه الأبيات نتيجة لتلك اللهجة العالية التي تكتنفها، والتي لا تتفق في طبيعتها مع مخاطبة الملوك فهل المراد منها عمرو بن هند " الملك " أم عمرو غيره ؟

١- قراءة الشعر ص ٢٦٢ .
٢- الديوان ص ٢٠٨ - ٢١٢ .

ومن هذا المنطلق أعلن الأصمعي " عن تشككه في أن المخاطب فيها عمرو بن هند " الملك " قائلاً :

" أراه غير الملك ، لأنه لم يكن ليخاطبه بمثل هذا الكلام " [1].

كما أشار الأستاذ حسن كامل الصيرفي إلى تشككه في ترتيب هذه الأبيات بقوله : " ربما كانت الأبيات الواردة بعد البيت الأول - وهي التي شككت الأصمعي بلهجتها في أن يكون المخاطب هنا هو عمروا الملك - متأخرة عن موضعها لا سيما وأن ابياتاً أخرى من هذه القصيدة قد جرى التقديم والتأخير فيها أو أنه كان يوجه القصيدة إلى واحد من أهله وعشيرته ، ثم يقول له إنه تارك له بلاده ليذهب إلى حيث يقيم الملك " [2].

على حين يلمح الدكتور طه حسين إلى أن هذه القصيدة قد اقتضبت اقتضابا وضاع منها جزء غير قليل ، واعتمد في هذا على أن المثقب أطال في نسيبه وعتاب صاحبته ، ووصف الظعائن والناقة ، فإذا ما نتهى إلى صاحبه - عمرو بن هند - والحديث إليه لم يطل ، وانقطع حديثه فجأة [3].

والحق أن المثقب في خطابه لعمرو بن هند - الملك - يريد أن يظهر لمحبوبته مدى ما يتمتع به من مكانه ، تمكنه من مخاطبة الملوك بهذه اللهجة التي تعلوها الندية وعزة النفس ، فيقع هذا من قبلها حسنا يسمح له بمعاودة وصلها من جديد .

١- شرح المفضليات للتبريزى ٢ / ١٠٣٥ .
٢- ديوان المثقب تحقيق أ / حسن كامل الصير في ص ٢٠٩.
٣- انظر : حديث الأربعاء ١ / ١٦٦ .

ومن ثم فالمثقب لم يهدف في نونيته إلى مدح عمرو بن هند ، وإنما عرض له من قبيل الفخر بنفسه ، باعتباره موقفا يثبت من خلاله مدى قدره ومنزلته ، فجاء حديثه إليه موجزاً لم يطل فيه ، ولم يقتضب كما ذهب الدكتور طه حسين .

وهكذا حرص المثقب على الفخر في نونيته ، فجاءت موضوعاتها ملائمة لفخره حتى في نسيبه بمحبوبته " فاطمة " جاء متمسكاً بعزته ومعلناً لكبريائه قائلاً لها : [1].

أفاطم قبل بينك متعيني
ومنعك ما سألت كأن تبيني
ولا تعدي مواعد كاذبات
تمر بها رياح الصيف دوني
فإني لو تخالفني شمالي
خلافك ما وصلت بها يميني

والمثقب بهذه اللهجة العاتية التي يخاطب بها محبوبته ، والتي يكشف من خلالها عن كبريائه وعزته في حبه، جاء مخالفاً لعادة الشعراء في نسيبهم بصويحباتهم . إذ كانوا يتهالكون في صبوتهم ، ويتخاذلون من غلبة الوجد على قلوبهم المستعرة. وهذا مسلك شائع عندهم، حتى غدا دليلا على إجادتهم في أشعارهم ونبه إليه القدماء في قولهم " يجب أن يكون النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابي والرقة أكثر مما يكون فيه من الخشن والجلادة . ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون من الإباء والعزة وأن يكون

١- الديوان ص ١٣٦ - ١٣٩ .

جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ، ووافق الانحلال والرخاوة فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض [(1)].

ومن هذا المنطلق انتقد الأستاذ عبد العظيم قناوى ، قول المثقب الذي يحذر فيه صاحبته من قطعها لوصله ووده .

لعلك إن صرمت الحبل مني
كذاك اكون مصحبتي قروني [(2)].

وعلق عليه قائلاً " وإذا كان هنا ما يمكن أن يؤخذ عليه فهو خشية القطعية إن صرمت حبله ، فالعاشق لا يملك زمام قلبه ، ولا يدفع جماح نفسه " [(3)].

والواقع أن المثقب في نسيبه لم يسلك هذا المسلك الشائع ، وإنما سلك ضرباً من الشعور الصداق والعميق بالصبو والشوق ، فالشاعر بعد أن قطعت عنه صاحبته ودها ، وبعد أن علاه الشوق أثار هذا الشعور في نفسه إحساساً بالشباب والقوة والكبرياء ، فراح يغنيها شعوره بالبطولة والأنفة والفعال الحميدة التي يتحلى بها ، والتي تجعله أهلاً لوصلها ، فتعاوده به " وهذا الضرب من الغزل الذي ترى حوله أنغام الاعتزاز والتغني بالفعال الكريمة وطبائع النفس المتازة هو الأشبه بالشخصية العربية والإنسان العربي في هذه الحقبة من تاريخه ، وأن الصبوة إنما تثير عند هذا العربي الشعور بالتماسك والجلادة والقوة والشباب والفتوة والفروسية " [(4)].

١- نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق د / محمد خفاجى ص ١٣٤.
٢- صرمت : قطعت ، الحبل : العهد والود . قروني : نفسي (الديوان ص ١٦٤) .
٣- الوصف في العصر الجاهلي ص ٣٢١ .
٤- قراءة في الأدب القديم د / محمد أبو موسى ص ٧٣ .

ويلمح الدكتور " الربيعي " إلى هذا الضرب من السلوك في تساؤله عن المعنى من أن يعلن المثقب العبدى غضبه على فاطمة ، وعلى مثيلة لها في مقطع تال ، ويتساءل ذلك التساؤل الملئ بالمعنى بعد ذكر الملك عمرو بن هند مباشرة . ثم لا يحدث ذلك مع الناقة . رغم أنه خلع عليها صفات البشر وجعلها تشكو وتبرح كما يفعل الإنسان ؟ (١).

وحول الدكتور " طه حسين " أن يجد حلاً لهذا التساؤل بتحليل راح فيه إلى أن " الشاعر أنشأ قصيدته في العتاب ، وهو يفكر من غير شك في صاحبه الذي سيعاتبه حين ينتهي إليه أكثر مما يفكر في صاحبته التي يطلب إليها المتاع فإذا تحدث إلى حبيبته بهذه اللهجة الغليظة القاسية ووجه إليها هذا النذير الخشن الغليظ ، فهو خليق إذا تحدث إلى صاحبه أن يكون حازماً ومتشدداً قاطعاً ، لا يحب الهوادة ولا اللين " (٢).

والصواب أن المثقب جاء بتلك اللهجة العالية في خطاب لمحبوبته " فاطمة " وكذلك في مخاطبته لعمرو بن هند ، من قبيل الفخر والاعتزاز بنفسه وكبريائه فحسب ، وليس من قبيل الغضب – كما ذهب الدكتور الربيعي – بدليل أن المحرك لهذا الفخر هو حبة لفاطمة ، فهو يهدف من وراء فخره إلى وصلها من جديد .

ولم يفعل ذك مع ناقته من قبيل حبه لها وإجلاله لمكانتها ، فالناقة في نظر الجاهلي قادرة على كل شيء فهي تعين على قطع القفار الموحشة ، وإليها يرجع الفضل في انتشال الشاعر من همومه وأحزانه ، وحمايته من مخاطر الصحراء .

١- انظر : قراءة الشعر ص ٢٦٢.
٢- انظر : قراءة الشعر ص ٢٦٢.

ولعل كل هذه التساؤلات من النقاد ترجع في أصلها إلى عدم وقوفهم على الغرض الحقيقي من نظم النونية وهو الفخر.

٢ . النحل في شعره :

ومن أهم القضايا التي أثيرت حول شعر المثقب العبدي - وبخاصة في نونيته - قضية الوضع أو النحل ، ويعد الدكتور طه حسين " من أبرز من تعرضوا لشعر المثقب من هذه الناحية ، وذهب الدكتور في اتهامه لشعر المثقب بالوضع أو النحل إلى أمرين :

عدم وضوح شخصية المثقب في شعره ، وأشار إلى هذا خطابه لمحدثه قائلاً :

" ما رأيك في صوت تحمله القرون الطوال حتى تنتهي به إليك وحتى تنتهي به إلى مَنْ بعدك من الأجيال ؟ وأنت تسمع الصوت وتتبين جرسه ونغمه ، وتتبعه متراجعا مع هذه القرون ، حتى إذا انهيت إلى آخرها أو إلى أولها ، لا تجد شخصا بينا ، وإنما وجدت شخصا شائعا ، ويعجبني الشعر الذي لا تستطيع أن تنهي به إلى شاعر معروف واضح الخصال ، بيِّن الشخصية ، يعجبني لأن فيه عظمة تأتيه من هذا القدم الذي يخفي علينا مصدره إخفاء " [١].

والواقع أن شخصية الشاعر في شعره تتكشف من ناحيتين ، الناحية الأخلاقية وتتمثل في أفكاره ومعتقداته وخصاله الخلقية ، والناحية الفنية ، وتتمثل في الخصائص الفنية المميزة لشعره ، والتي يختص بها عن غيره من الشعراء.

ويلمح ابن رشيق في حديثه عن حقيقة الشاعر إلى مقومات الشخصية، قائلاً : " وإنما سمى الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فإذا لم يكن عند

١- حديث الأربعاء ١ / ١٦٤ - ١٦٥ .

الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، أو استطراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني ، أو نقص أطاله سواه من الألفاظ ، أو صرف معنى إلى وجه آخر ، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ، ولم يكن له إلا فضل الوزن ، وليس بفضل عندي مع التقصير" (١).

والحق أن شخصية المثقب العبدى تبدو واضحة جلية في جميع أشعاره وتترسم ملامحها من خلال أشعاره كما يلي :

فها هو ذا يخاطب محبوبته فاطمة بلهجة عالية : بعيدة عن الذل والهوان مبين عزته وكبرياء في حبه :

فإني لو تخالفني شمالي
خلافك ما وصلت بها يميني
إذا لقطعتها ولقلت بيني
كذلك أجتوى من يجتويني

وهو القائل في خطابه لعمرو بن هند مبينا منزلته ومكانته :

إلى عمرو ومن عمرو اتتني
أخي النجدات والحلم الرصين
فإما أن تكون أخي بحق
فاعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطرح حتى واتخذني
عدواً أتقيك وتتقيني

١- انظر : حديث الأربعاء ١ / ١٧٠ .

وأشاد الدكتور طه حسين نفسه بهذه الأبيات، مبيناً أن الناس حفظتها لأنها راعتهم وأعجبتهم حقا " [1].

ولعلها راعتهم وأعجبتهم من قبيل مخالفتها لعادة الشعراء عند مخاطبة الملوك فالمثقب هنا يظهر جرأته وشجاعته في مخاطبته لعمرو بن هند، ولم يستعطفه أو يمدحه طمعا في عطاياه، وهذا ما لم يكن معهودا لديهم.

وهو القائل على لسان ناقته مبينا صدق إحساسه، ودقة شعوره:

تقول إذا دارأت لها وضيني

أهذا دينه وديني ؟

أكل الدهر حل وارتحال

أما يبقي علي وما يقيني ؟

وأشار الدكتور طه حسين إلى أنها من أروع ما قال الناس، لا في اللغة العربية وحدها، بل في غيرها من اللغات [2].

وهو القائل في مكر الأقدار بالناس وجهلهم بما تضمره لهم:

وما أدري إذا يممت وجها

اريد الخير أيهما يليني

ألخير الذين أنا أبتغيه

أم الشر الذي هو يبتغيني ؟

١- انظر : حديث الأربعاء ١ / ١٧٠ .
٢- انظر : حديث الأربعاء ١ / ١٧٠ .

ألا تكفي كل هذه النماذج الشعرية - للمثقب العبدي - بما تحويه من سمات فنية، وخصال خلقية، في رسم شخصية قوية، لها خصال بينه، وشاعرة صادقة ؟

هذا بالإضافة إلى ما ذكره الدكتور طه نفسه عندما شهد للمثقب بأنه " كان خفيف الروح، عذب الحديث، قوى النفس، شديد الحزم، يكاد ينتهي إلى شيء من الغلظة، رقيق القلب مع ذلك يكاد يذوب رقة ولينا " [1].

فهو يؤكد تفرد المثقب بشخصية قوية، لها سمات خاصة، تميزه عن غيره، كما أنه أشاد به في موضع أخر يقول فيه " ويعجبني أن أقف عند هذا الشعر الذي بقى وثبت، واكره الرواة على روايته والشراح على شرحه وتفسيره، وأتاح للغويين وأصحاب النحو أن يستنبطوا فيه كلمات كانوا يجهلونها، ومذاهب في النحو لعلهم لم يكونوا ليهتدوا إليها " [2].

وفي هذا ما يؤكد وضوح شخصية المثقب وقوتها في شعره، وإلا فكيف توافرت لهذا الشعر كل هذه المقومات من القوة والشموخ، حتى بقى ثابتا، واستطاع أن يكره الرواة على روايته، والشراح على تفسيره، ولم تتوفر فيه سمات الشخصية البينة، رغم أنه ترجمة عنها، وصدى لأنفاسها ؟!

٣. المقدمة :

اتسمت القصيدة في بدايتها بنج فني جديد - بالنسبة لعصرهم وهو نهج الولوج إلى لب الموضوع مباشرة دون التمهيد له بمقدمة طليلة معهودة، يتباكى أصحابها من خلال على ما بقي في قلوبهم من طيب ذكرياتهم المنصرمة، وحرارة

١- المرجع السابق ١ / ١٦٥ - ١٦٦ .
٢- المرجع السابق ١ / ١٦٥ .

الشوق لاسترجاع عبق أريجها ، وهو ما درج عليه شعراء عصرها ، واعتبروه شرطا لازما لتوافر عناصر القوة والإجادة في تدبيج القصائد الحسنة إلا أن المثقب العبدى في مقدمة هذه القصيدة خالف هذا النهج وقصد إلى لب موضوعه مباشرة دون تمهيد أو تقديم ، فخاطب صاحبته مباشرة في مطلع قصيدته قائلاً :

أفاطم قبل بينك متعيني
ومنعك ما سألت كأن تبيني

والناظر في هذا المطلع يتجلى له مرجع الأمر في قصد الشاعر إلى هذا النهج .

ويتمثل في سببين رئيسيين :

أولهما : شدة حبه وشغفه بمحبوبته ، فهو مَعْنِيٌ بحبها في المقام الأول وقبل كل شيء فكان اهتمامه أولاً ببث أشواقه ونجواه لقلبها حتى يستميله فتعدل عن عزمها في الارتحال .

وثانيهما : ضيق المقام المفروض على الشاعر نتيجة لشروع صاحبته في الارتجال الفعلي مع صويحباتها ، مما دفع به إلى سرعة مخاطبتها مباشرة دون تريث أو إبطاء حتى يثنيها عن عزمها ، تدل عن ارتحالها وتعاوده بوصلها وودها من جديد ، وبخاصة بعد أن راح يغنيها كل هذه المواقف الفخرية التي تجعله خليقا بحبها وأهلا لوصلها وودها حتى لا تردد في مواصلة عهدها معه .

٤ . الوحدة :

استطاع العبدى أن يوفر لهذه القصيدة عديداً من الوحدات الفنية التي تساعد على إبراز أواصر الصلة بين ابياتها ، فوفر لها الوحدة الشعورية وتتمثل في

هذا الشعور الفخري المفعم بالصبوة والفحولة والاعتزاز، والمخيم على جميع أبيات القصيدة حتى لنكاد نستشعره في كل كلمة منها، والمتفجر في قلب الشاعر نتيجة لعدول صاحبته عنه بوصلها وحبها، مما آثار كوامن الفحولة والحمية في نفسه، وبخاصة وهو العربي الأدبي الذي يتمتع بكل هذه الخصال التي تشهد على صبوته وفحولته، كما وفر لها الوحدة الفكرية وتتمثل في وحدة الهدف أو الغرض الذي قصد إليه الشاعر من وراء نظمة لأبيات هذه القصيدة بنهجها المنظومة فيه، متمثلاً في استمالة قلبها حتى تعدل عن ارتحالها وتعاوده وودها من جديد، ومن ثم فقد هداه فكره إلى استعراض كل هذه المفاخر أمامها - بداية من مخاطبته لها بتلك اللهجة الأمرية التي تعلوها نبرة العزة والكبرياء، ثم باستعراضه لكامل سيطرته وتمكنه من ناقته التي تمتلك كل هذا القدر من مظاهر القوة والصلابة، ثم باستعراضه لطبيعة علاقته بعمرو بن هند والتي تعلوها الندية والاعتداد بالنفس - حتى يكشف لها عن مكانته التي تجعله خليقا بحبها، فتعاوده بوصلها وودها، كما وفر لها الوحدة الفنية وتتمثل في وحدة الطابع اللغوي والأسلوبي المخيم على أبيات القصيدة، هذا بالإضافة إلى وحدتي الوزن والقافية.

وهكذا تنطوي القصيدة على عدة وحدات فنية تقوى أواصر الصلة بين أبياتها بصورة تبيح للناظر فيها أن يحكم عليها بتوفر الوحدة العضوية فيها بقدر ما توافر لها من وحدات (كالوحدة الشعورية، والوحدة الفكرية، والوحدة الفنية، ووحدتي الوزن والقافية).

ولعل هذا الرأي لا يوافق كثيراً ممن يجردون الشعر الغنائي من الوحدة العضوية نظراً لتداعي أفكاره وتوارد خواطره على مخلية الشاعر في غير ترتيب مسبق أو إحكام بنائي مقصود، إلا أن الحقيقة الثابتة - والتي لا جدال فيها -

أن الوحدة العضوية عبارة عن مزيج منصهر من تلك الوحدات السابقة في بوتقة واحدة ، بحيث تمثل كل وحدة منها رافداً من روافد الوحدة العضوية ، ولا يمكن لأي عمل أدبي - مهما يكون نوعه - أن يكون خاليا من كل هذه الوحدات ، وإنما الأصوب أن نحكم بتحقق الوحدة العضوية في العمل الأدبي بقدر ما توافر فيه من الوحدات المكونة لها .

5 . اللغة والصياغة :

اتسمت القصيدة في لغتها بالتنقل بين السهولة والوضوح تارة ، وبين القوة والغموض تارة أخرى ، فأحيان تنساب من جداول ألفاظه كلمات تتسم بالرقة والوضوح فتكشف عن مضمونها في سهولة ويسر دون معاناة أو تكلف نحو (متعيني ، تبيني ، غزلان ، الدانيات من الغصون ، الديباج ، البشر المصون) .

وتارة تنطلق كلماته غامضة تحتاج إلى مزيد من الجهد للوقوف على معناها نحو الوصاوص ، والسناف ، والتقنات " وما يتراءى لنا أحياناً من صعوبة متابعة الشعر لا يرجع إلى عمقه أو فلسفته بقدر ما يرجع إلى غرابة ألفاظه علينا في هذا العصر ، ووضوح الشعر الجاهلي بصفة عامة أو غالبه تفسره طبيعة الحياة الجاهلية نفسها ، الحياة البسيطة غير المركبة ، الواضحة غير المعقدة ، حياة الصحراء الواسعة التي ينطلق فيها الإنسان " [1].

وقد اعتمد الشاعر في قصيدته على عديد من الأساليب الفنية التي تشهد على براعته الشعرية ، كالترخيم في قوله :

١- الشعر الجاهلي تطوره وخصائصه الفنية د / بهى الدين زيان ص ١٥٠ دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٢م .

أفـــاطم قبـــل بينـــك متعينـــي

ومنعك مـــا ســـألت كـــأن تبينـــي

والترخـيم في اللغـة التلـيين ، ومنـه الترخـيم في الأسمـاء ، لأنهـم إنمـا يحـذفون أواخرها ليسهلوا النطق بها " [1].

والترخـيم عنـد المثقـب لا يقـف عنـد حـدود الإحسـاس بـالقرب أو الاحتضـان فحسـب ، بـل ارتـبط ارتباطـا وثيقـاً بالحالـة النفسـية لـدى الشـاعر ومـا يقتضـيه الحـال، وذلـك كقولـه السـابق : إذ جـاء النـداء في قولـه " أفـاطم " بـالهمزة وهـي لنـداء القريـب . فهـي حاضـره في قلبـه ، قريبـة مـن روحـه ، وإمعانـا في هـذا القـرب - وكأنمـا قـد احتضـنها بقلبـه وروحـه - رخـم باسمهـا " فاطمـة " فحـذف آخـره فجـاء البنـاء " أفـاطم " بـالترخيم والنـداء بـالهمزة خـير شـاهد علـى مكانـة هـذه المحبوبـة في قلبـه كمـا جـاء الترخـيم هنـا موافقـاً لمقتضـى الحـال إذ وجـد الشـاعر صـاحبته الـتي ملكـت عليـه قلبـه قـد تأهبـت للرحيـل فـأراد مخاطبتهـا في عجلـة قبـل رحيلـها ، فكـان الترخـيم خـير معين له نظرا لضيق المقام .

ومن الأساليب البديعية التي اعتمد عليها الشاعر في قصيدته الطباق ، وذلك في قوله :

فـــإني لـــو تخـــالفني شـــمالي

خلافك ما وصـــلت بهـــا يمينـــي

إذ طابق الشاعر بين الجهتين " اليمين " و " الشمال " لما بينهما من تضاد .

ومن أمثلة ذلك قوله أيضاً :

فإمـــا أن تكـــون أخـــي بحـــق

فاعرف منك غثـــى مـــن ســـميني

1- لسان العرب مادة رخم .

وإلا فـــاطر حنـــي واتخـــذني

عـــدواً أتقيــك وتتقينـــي

إذ جاء مطابقاً في البيت الأول بين اسمين " الغث والسمين " ، وهما من الصفات الحسية ، على حين طابق في البيت الثاني بين فعلين " اطرحني واتخذني" .

ومن الأساليب البديعية التي اعتمد عليها أيضاً في قصيدته الاستفهام ، وذلك كقوله :

لمن ظعن تطـالع مـن ضـبيب

فما خرجت من الـوادي لحـين ؟

تبصر هلى تـرى ظعنـاً عجـالاً

بجنب الصحصحان إلى الـوجين ؟

إذ شخص الشاعر من نفسه شخصاً آخر - على سبيل التجريد - وتوجه إليه مخاطباً في الأسلوب الاستفهامي ، والاستفهام هنا يكشف أبعاد تلك الحالة النفسية التي تكتنف الشاعر ، إذ توجه إلى متسائلا لمن هذا الظعن وهو يعلم أنه لصاحبته ، وكأنما يمنى نفسه أن يكون هذا الظعن لشخص آخر ، فلا تقوى نفسه على تحمل الحقيقة ، وهي ظعن المحبوبة .

وفي قوله " تبصر هل ترى ظعنا " يبين أن عينيه لا تقوى على المشاهدة بنفسها من شدة دموعها المنهمرة ، فيتوجه إلى صاحبة متلمساً منه أن ينظر نيابة عنه ، حتى يمتعه بحديثه عنها .

ومن استفهاماته أيضاً قوله يتحدث على لسان ناقته :

تقـول إذا درأت لهـا وضـيني

أهـذا دينـه أبـداً وديـني ؟

وقد يأتي باستفهامين في بيت واحد كقوله :

أكـــل الـــدهر حـــل وارتحـــال

أما يبقـــي علـــى ومـــا يقينـــي ؟

والاســـتفهام هنـــا معنـــاه التعجـــب والتقريـــع ، وكـــرر الاســـتفهام مبالغـــة في التعجب كما يومئ هذا الاستفهام إلى عدة إشارات منها :

١. دقـــة ورهافـــة حســـه إذا اســـتطاع أن ينفـــد إلى بـــواطن ناقتـــه ويستشـــعر وجدانها بهذا القول .
٢. شـــعور المثقـــب بظلمـــه لناقتـــه وإثقالـــه عليهـــا في رحلاتـــه ، حتـــى أنهـــا لـــو قـــدر لهـــا أن تـــتكلم لأعربـــت عـــن شـــكواه بهـــذا القـــول ، وفي هـــذا مظهـــر مـــن مظاهر اهتمامه بها وحبه لها .
٣. إحســـاس المثقـــب بالضـــيق والملـــل مـــن كثـــرة ترحالـــه ، فعـــبر عـــن إحساســـه هذا على لسان ناقته حرصا منه على مظهره أما صاحبته .

هـــذا وقـــد حـــوت القصـــيدة عديـــداً مـــن الصـــور الفنيـــة الـــتي تشـــهد علـــى اقتـــدار صاحبها وتمكنه من أدوات فنه ، ومن تلك الصور قوله :

يجـــذ تـــنفس الصـــعداء منهـــا

قوى النسع المحـــرم ذي المتـــون

تصـــك الجـــانبين بمشـــفتر

لـــه صـــوت أبـــح مـــن الـــرنين

كـــأن نفـــى مـــا تنفـــى يـــداها

قـــذاف غريبـــة بيـــدي معـــين

وهي صورة كلية تكشف عن قوة ناقته وشدتها ، وتتكون من ثلاث صور جزئية تتمثل كل واحدة منها في بيت مستقل ، وتتضافر فيما بينها لتعطي مشهدا متكاملاً ينطق بالقوة والنشاط من جميع جوانبه .

ففي البيت الأول يصور الشاعر قوة ناقته وشدتها عند تنفسها حتى أنها لتكاد من شدة تنفسها واتساع صدرها أن تقطع سير الرحل عند التنفس ، وهي صور حسية بصرية مفعمة بالحركة تعتمد على خيال بسيط استمد روافدها من واقعه المشاهد .

وفي البيت الثاني يصور الشاعر قوة ناقته وشدتها من زاوية أخرى يعكس فيها سرعة ناقته وشدة عدوها، حتى أنها من فرط سرعتها تقذف جانبيها ببعض الحصى المتطاير من وقع نغماته دوى الرنين بل هو أقوى ، وهي صورة حسية بصرية مفعمة بالحركة أيضاً تعتمد على خيال خصب بسيط يستجلب روافدها من واقعه المشاهد ويعاود تركيبها أو رسم معالمها بعد إعمال خياله فيها .

وفي البيت الثالث يصور الشاعر قوة ناقته وشدتها من زاوية جديدة ، يعكس من خلالها شدة سرعة ناقته وشدة صلابتها في عدوها ، حتى أنها من شدة وقع قدمها على الأرض في عدوها تطحن ما يقع تحت قدمها من حصى فيبدوا دقيقاً في صغره وكأنه طحين منبعث من بين شقى رحي قوية سريعة الدوران ، وهي صورة حركية تعتمد على الحسن في إدراكها ، أعمل فيها الشاعر خياله إلى حد بعيد حتى استطاع أن يأتي بها على هذه الشاكلة المفعمة بالحركة والنشاط من جميع جوانبها .

وهكذا استطاع الشاعر أن يجاور بين هذه الصور الجزئية الثلاث في مقدرة فائقة تمكن من خلالها أن يصور مشهداً متكاملاً يموج بالحركة من جميع جوانبه.

ومن بديع صوره أيضاً قوله يصور سرعة ناقته :

فسل الهم عنك بذات لوث … عذافرة كمطرقة القيون

بصادقة الوجيف كأن هراً … يباريها ويأخذ بالوضين

فها هو ذا يجمع بين صورتين أحداهما ساكنة يدعو فيها نفسه إلى إزاحة الهم عنه باستطانه لناقته القوية الصلبة التي تشبه فيها صلابتها وشدتها مطرقة الحدادين . والثانية متحركة يصور فيها سرعة ناقته العاتية واستمرارها وكأن هرا معلقا بجانبها ينهشها بأنيابه ومخالبه فتجد في عدوها للفرار من شراسته . وهما صورتان حسيتان اعتمد الشاعر في استجلاب روافدها على واقعه المشاهد بعد إعماله لخيال خصيب وبخاصة في صورته الثانية التي جاءت مشعة بالنشاط والحركة من جميع جوانبها .

٦ . الموسيقى :

وقد اختار الشاعر لقصيدته بحر الوافر ، وتفعيلاته (مفاعلتن مفاعلتن مفاعل) في كل شطر ، وهو من البحور اللينة الطيعة يشتد إذا شددته ويرق إذا رققته . وأكثر ما يجود به النظم في الفخر .[1] ومن ثم فهو بحر يتواء مع عاطفة الشاعر الجياشة والمفعمة بمشاعر الصبوة والفحولة والاعتزاز .

كما اتخذ الشاعر من حرف النون المكسورة رويا لقصيدته ، وقد اعقبها بياء وصل ممدودة حتى يتيح لنفسه مساحات رحبة تعينه في التنفيس عما بداخله من

١ - انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٩٣/١ تحقيق أ / أحمد محمد شاكر ط٢ دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٢م .

جيشان مشاعر الصبوة والكبرياء ، وبذلك تتواءم القافية مع الوزن في إيجاد مناخ ملائم لعاطفة الشاعر وعمق تجربته ، وبهذا الوزن والقافية تمتعت القصيدة بنبرة موسيقية عالية الجرس ، واضحة الرنين ، اعلت من قدر شاعرنا ومكنت لشعره وشاعريته في قلوب السامعين ، مما دفع بأبي عمرو بن العلاء بتعقيبه على هذه القصيدة بعد سماعها واستحسانها بقوله مادحا : " لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه " هذا بالإضافة إلى إنها حظيت بتعليقات كثيرة من قبل الأدباء والنقاد ، حتى ورد ذكرها في أكثر من أربعين مصدراً .

النثر الفني في العصر الجاهلي

اثر عن العرب في العصر الجاهلي نثر كثير وكلام غزير . كما أثر عنهم شعر جيد . وكان العرب يستخدمون نثرهم في شتى معاملاتهم . وسائراً أغراضهم الحياتية . ومن ثم كانوا يحتفلون له . ويهتمون به . ويختارون له الألفاظ القوية المعبرة والمعاني الشريفة . والأساليب الرصينة . وكانوا يطلقون على هذا النوع من الكلام النثر الفني لأنهم كانوا يعتنون به عناية فائقة . وهذا النثر يعطينا صورة صادقة عن حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وقد تعددت أنواع النثر الجاهلي . وأهم هذه الأنواع هي :

١. الخطب .　　٢. الوصايا .　　٣. الأمثال والحكم .

الخطب .

الخطب مأخوذة من " الخطب " . وهو الأمر الخطير . لأنه إنما يقام بالخطب في الأمور العظيمة . والأحوال الخطيرة . ولا يسمى الخطيب خطيباً إلا إذا غلب ذلك عليه وعلى وصفه . وصارت الخطابة صناعة له .

والخطبة كلام قوي معبر . ذو دلالة عميقة . وشأن عظيم من التأثير . يلقي هذا الكلام على حشد كبير من الناس لإقناعهم بما يعود عليهم بالخير العميم والنفع العظيم في دنياهم وآخرتهم .

صفات الخطيب :

وضع أهل الجاهلية بعض الصفات لشخصية الخطيب البارع . ورأوا أنه لا يكمل الخطيب في نظرهم إلا إذا تحققت تلك الصفات في شخصيته . فمنها أن

يكـون شـريف الأصـل ، صـادق الحـديث ، جهـير الصـوت ، قليـل ، التلفـت ، راسـخ ، نظيـف الملابـس والهيئـة ، حسـن السـمات ، يطـابق قولـه فعلـه، ذا وقـار وسـكينة وهـدوء علـى أدب جـم وأخـلاق سـامية ، وكـانوا يمـدحون فيـه رباطـة الجـأش ، والثبـات وابتعـاده عـن الارتعـاش والارتعـاش والحصـر والعـي ودقتـه في اختيـار الألفـاظ وعنايتـه بالأسـاليب والمعـاني ، قـال الجـاحظ " **أول البلاغـة اجتمـاع آلـة البلاغـة ، وذلـك أن يكـون الخطيـب رابـط الجـاش ، سـاكن الجـوارح قليـل اللحـظ ، مـتخير الألفـاظ ، لا يكلـم سـيد الأمـة بكـلام الأمـة ، ولا الملـوك بكـلام السـوقة ، ويكـون في قولـه فضـل التصـرف في كـل طبقـة ، ولا يـدقق المعـاني كـل التـدقيق، ولا يـنقح الألفـاظ كـل التنقيح، ولا يصفيها كل التصفية** ".

وكـان للخطبـاء في العصـر الجـاهلي أصـول مرعيـة ، وعـادت متبعـة ، وسـنن مطروقـة في أداء خطـبهم ، فقـد كـانوا يخطبـون في المواسـم والمحافـل العظيمـة ، والمجـالس الكـبيرة علـى رواجلـهم ، وكـانوا يلوحـون أثنـاء إلقـاء الخطـب بالعصـى والقسـى والرمـاح قـال " الجـاحظ " في ذلـك [illegible] ـرب تخطـب بالمخاصـر وتعتمـد علـى الأرض بالقسـى وتشـير بالعصـى والعـ[illegible]ـى كانـت المغاصـر لا تفـارق أيدي الملوك في مجالسهم ".

وكـان الخطبـاء في العصـر الجـاهلي يطيلـون خطـبهم أحيانـا ويقصـرونها أحيانـاً أخـرى، يفعلـون ذلـك مراعـاة لمـا يقتضـيه المقـام ، ومـا يتطلبـه الحـال ، قـال " أبـو عثمـان الجـاحظ " أعلـم أن جميـع خطـب العـرب مـن أهـل المـدر البـدو والحضـر علـى ضـربين منهـا الطـوال ومنهـا القصـار ، ولكـل ذلـك مكـان يليـق بـه وموضـع يحسـن فيـه ، ومـن الطـوال مـا يكـون مسـتويا في الجـودة ومتشـاكلاً في اسـتواء الصـنعة يحسـن فيـه ومـن الطـوال مـا يكـون متشـاكلاً في اسـتواء الصـنعة ومنهـا ذوات الفقـر الحسـان.

والنتق الجياد ، وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ ، وإنما حفظه التخليد في بطون الصحف ووجدنا عدد القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع " .

مجالات الخطابة :

والخطابة تستعمل في إصلاح ذات البين ، وإطفاء نائرة الحروب ، وقضاء الديات ، والتسديد للملك ، وإثارة المشاعر ، وإيقاظ العواطف ، وبعث الهم لخوض المعارك ببسالة وجرأة ورباطة جاش ، وتستعمل كذلك في التأكيد للعهد في عقد الأملاك ، والإشادة بالمناقب ، والوعظ والإرشاد ، والتقويم والتهذيب والإصلاح ، وعقد الاتفاقات ، وإبرام العهود ، وأخذ المواثيق ، ونشر المودة والألفة والمحبة ، والمناسبات الاجتماعية مثل العزاء ، والزواج ، والتهنئة ....

أنواع الخطابة :

من يتتبع الخطب المختلفة ويحاول أن يقف على أنواعها يلاحظ أنها متعددة الأنواع ، مختلفة الألوان والاتجاهات ، والموضوع الذي يتناوله الخطيب هو الذي يجعل الخطب متعددة الأنواع متباينة الألوان والاتجاهات ، وها هي ذي أنواع الخطب :

١ . خطب الوفود .
٢ . خطب الرثاء والعزاء .
٣ . خطب الصلح .
٤ . خطب الزواج .
٥ . خطب الحرب والتحضيض.
٦ . خطب التهنئة .
٧ . الخطب السياسية والبرلمانية.
٨ . خطب التكريم والمديح .
٩ . خطب الاستخلاف والولاية .
١٠ . خطب الفتوح .
١١ . خطب الدين والوعظ والإرشاد.
١٢ . خطب المفاخرات والمنافرات.

١٣. الخطب القضائية . ١٤. الخطب العلمية .

١٥. خطب المناظرات . ١٦. خطب المدافعة والاتهام .

والحق أننا لم نقف على هذه الأنواع فيما بين أيدينا من نثر جاهلي ، وأشهر ما وقفنا عليه من أنواع الخطابة الجاهلية ما يلي :-

١. خطب الوفود . ٢. خطب إصلاح ذات البين .

٣. خطب الاستنهاض والدعوة إلى الحروب .

٤. خطب المنافرات والمفاخرات. ٥. خطب الزواج .

٦. خطب التعزية والرثاء .

أشهر الخطباء في الجاهلية :

أنجب العصر الجاهلي كوكبة عظيمة من الخطباء ، أثروا الحياة الأدبية وزودوا المكتبة الجاهلية بمجموعة طيبة من الخطب التي تأسر الألباب وتستحوذ على الأفئدة بما تتسم به من فصاحة نادرة ، وبلاغة سامية ، فمن أقدم خطبائهم : " كعب بن لؤي "، وهو الجد السابع للنبي ﷺ، وكان كعب هذا يخطب للعرب جميعا، ويحضهم على البر ، ويحثهم على الصلاح والاستقامة ، ولما مات هذا الخطيب المصقع أكبروا موته ، وأرخوا به إلى عام الفيل ، ومن أشهر خطباء الجاهلية أيضاً " قيس بن خارجة " خطيب حرب داحس والغبراء ، و" خويلد بن عمرو الغطفاني " خطيب الفجار ، " وقس بن ساعدة " خطيب " عكاظ " الذي استمع إليه النبي ﷺ في سوق " عكاظ " . " وأكثم بن صيفي " حكيم العرب المشهور، وقاضيها وزعيم خطبائها ، " وهشام بن عبد مناف " ، " وعبد المطلب بن هشام " . " قيس بن عاصم " ، و" عمرو بن الأهتم " ، و" زهير بن جناب " خطيب كلب

وقضاعة . و " ربيعة بن حذار " خطيب بني أسد . و " عامر بن الظرب العدواني " أحد حكام العرب في الجاهلية . " وهرم بن قطبة الفزاري " . و " عمرو بن كلثوم " خطيب تغلب . و " هاني بن قبيصة " خطيب بني شيبان " وابن عمار الطائي " خطيب مذحج .

وهناك غير هؤلاء كثيرون ذكرت مصادر الأدب والتاريخ أسماءهم . وهذه الكثرة تدل دلالة ظاهرة على رقي النثر الفني في تلك الفترة . كما تدل على ازدهار الخطابة وسمو منزلتها في الأدب الجاهلي .

نماذج من الخطابة الجاهلية :

ونسوق الآن بعضاً من النماذج التي وقفنا عليها من الخطب الجاهلية لنقف على أنماط الخطابة لدى الجاهلين وسماتها . ومكانتها عندهم .

١ . " أكثم بن صيفي " يعزي " عمرو بن هند " .

قال " أكثم بن صيفي " يعزى عمرو بن هند " ملك العرب عن أخيه :

أيها الملك ! إن أهل الدار سفر لا يحلون عقد الترحال إلا في غيرها . وقد أتاك ما ليس بمردود عنك . وارتحل عنك ما ليس براجع إليك . وأقام من سيظعن عنك ويدعك . إن الدنيا ثلاثة أيام : فامس عظة وشاهد عدل فجعك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمه . واليوم غنيمة وصديق أتاك ولم تأته . طالت عليك غيبته . وستسرع عنك رحلته . وغد لا تدرى من أهله . وسيأتيك إن وجدك فما أحسن الشكر للمنعم والتسليم للقادر . وقد مضت لنا أصول نحن فروعها . فما بقاء الفروع بعد أصولها!! وأعلم أن أعظم المصيبة سوء الخلف منها . وخير من الخير معطيه . وشر من الشر فاعله .

٣ . خطبة قس بن ساعدة في سوق عكاظ :

روى " أبو الفرج الأصفهاني " عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما قدم وفد إياد على النبي ﷺ قال : ما فعل قس بن ساعدة ؟ قالوا مات يا رسول الله قال: كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق ، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ، ما أجدني أحفظه ، فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا رسول الله ، قال: كيف سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول:

أيها الناس : اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، بحار تزخر، ونجوم تزهر ، وضوء وظلام وبر وآثام ومطعم ومشرب ، وملبس ومركب ، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ وإله قس ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه ، وأدرككم أوانه أو أنه. فطوبى لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه ثم أنشأ يقول :

في الذاهبين الأولين
من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا
للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها
يمضي الأصاغر والأكابر
أيقنت أني لا محا
لة حيث صار القوم صائر

٣ . خطبة أبي طالب عم الرسول ﷺ في تزويج خديجة بن خويلد :

قال أبو طالب : " الحمد الله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتاً محجوبا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد ابن عبد الله بن أخي من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً وفضلا وكرما وعقلا ومجداً ونبلا ، وإن كان في المال قل فالمال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى.

٤ . خطبة هاشم بن عبد المطلب في إكرام الحجيج :

قال هاشم :

يا معشر قريش : أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوها، وأعظمها أحلاماً، وأوسطها أنسابا ، وأقربها أرحاما ، يا معشر قريش : أنتم جيران بيت الله ، أكرمكم بولايته ، وخصكم بجواره دون إسماعيل وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزوار بيته ، فإنهم يأتونكم شعثاً غبرا من بلد فورب هذه البنية لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتموه ، ألا وإني مخرج من طيب مالي وحلاله ما لم تقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرام فواضعه ، فمن شاء منكم أن يفعل منها ذلك فعل .

وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج رجل منكم لكرامة زوار بيت الله ومعونته إلا طيبا لم يؤخذ ظلما ولم تقطع فيه رحم ولم يغتصب .

التعريف بالخطيب :

هو " عمرو بن عبد مناف والد عبد المطلب " جد الرسول ﷺ ، كانت له سقاية الحجاج وإطعامهم ، وكان أول من سن رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة

الصيف إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام ، وكان أحد الأجواد الذين ضرب بهم المثل في الكرم وحسن الضيافة ، أنقذ قريشا من مجاعات كثيرة، وحماها من نوازل عديدة ، كادت أن تهز كيانها ، وتشتت شملها ، وهو أول من هشم الثريد لقومه ، ولذلك غلب عليه أسم " هشام " . مات وهو في طريقه إلى الشام .

مناسبة الخطبة :

لما كانت سقاية الحجيج مسندة إلى " هشام بن عبد مناف " ، ولما كان العرب يحجون بيت الله الحرام كل عام كان على " هشام " ألا يدخر وسعا في توفير سبل الراحة والأمان لهم ، وبالفعل كان " هشام " يبذل قصارى جهده ووقته ليؤمن البلاد ، ويعبد السبل ، ويكرم الحجيج ، وكان من ذلك تكرار حثه لقريش على أن تعطي وتبذل وتكرم الحجيج ، وهذه الخطبة أثر من آثار اهتمامه البالغ بالحجيج .

معاني المفردات :

١. **الاحلام :** العقول .
٢. **اوسطها انسابا :** أفضلها أنسابا.
٣. **اقربها ارحاما :** أشدها قرابة .
٤. **اكرمكم بولايته:** شرفكم بأن جعلكم قائمين على رعاية البيت .
٥. **إسماعيل :** هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .
٦. **احسن ما حفظ جار من جاره :** أكرمكم بأن أحللكم بلدا آمنا .
٧. **الاشعث :** الملبد الشعر من وعثاء السفر .
٨. **البنيــة :** وهي الكعبة .

٩. **لكفيتموه** : أي لو كان لي مال عنكم كل ما يقدم لحجاج بيت الله .

١٠. **فواضعه** : أي مخصصة لحجاج البيت .

١١. **بحرمة هذا البيت** : بحقه عليكم .

أفكار لخطبة :

تقوم خطبة هشام على ثلاث أفكار هي :

١. مدح قريش والثناء عليها .

٢. بيان تكريم الله لهم بأن جعلهم جيران بيته الحرام .

٣. حمل قريش على البذل والعطاء وإكرام الحجيج .

الدراسة والتعليق :

هذه خطبة من الخطب الكثيرة التي ورثناها عن أجدادنا الجاهلين ، قالها هشام بن عبد مناف ليحث قومه على حسن استقبال الحجيج ، وإكرامهم ، والعناية بأمورهم ، وقد حاول هشام أن تتضمن خطبته ما يكفل لها بأن تكون حقيقة بإقناع من وجهت إليهم ، فالخطابة تقوم أولاً وأخيراً على الإقناع ، والخطيب مطالب قبل كل شيء بأن يقنع جمهور المخاطبين بما يقول .وإذا لقينا نظرة سريعة على الخطبة لاحظنا أنها تتضمن ثلاث أفكار ، جعلها الخطيب محوراً ، أدار خطبته حوله ، فكأني به من خلال هذه الأفكار قد قسم خطبته إلى مقدمة، وموضوع ، وخاتمة .

وإذا أمعنا النظر في المقدمة رأينا أنها تتضمن الثناء على قريش وامتداحهم بالشرف والرفعة وطهارة النسب ، وعراقة الأصل ، وكرامة المنبت ، وأرى أنه فعل

ذلك ليستميل عقولهم وقلوبهم إليه ، وليعطوه آذانهم ومشاعرهم ، ومن ثم يكون قريبا منهم ملتحما بهم .

أما الموضوع فيتضمن لفت أنظارهم إلى قدوم الحجيج شعثاً غبراً . قد نالت منهم الغربة ، وأنهكهم السفر . وأرهقهم التنقل وطول الطريق . كما يتضمن الموضوع أيضاً لفت أنظار قومه بأن الله قد كرمهم ، ورفع منزلتهم بأن جعلهم جوار بيته الحرام .

أما الخاتمة فقد ضمنها الخطيب الغرض الذي من أجله أنشأ خطبته ، وهو الحث على إكرام الحجيج ، وحسن استقبالهم ووفادتهم . والعمل على راحتهم وأمنهم .

وقد حفلت الخطبة ببعض الألوان الفنية التي أضفت عليها الروعة والجمال ، وأكسبتها البراعة والجلال ، وقد تعددت الأوان الفنية في الخطبة، فتقف فيها على الصور البيانية ، والأساليب الإنشائية ، وكذلك الأساليب الخبرية

١. فمن الصور البيانية : " يأتونكم شعثاً غبرا " فهذه كناية ، أوردها " هشام " في صورة حسية أعطت المعنى وضوحا ، ومنحته قوة وتأثير ، وقد أوردها الخطيب ليثير في نفوس قريش الرغبة في إكرام الحجيج ، وليحفزهم على البذل والعطاء ، ومن الصور أيضاً قوله : " أحسنها وجوها " فهذه كناية عن الشرف والرفعة ، وقوله : " أوسطها نسبا " كناية عن عراقة الأصل، وكرم المنبت، وقوله : " بيت أل " له كناية عن الكعبة المشرقة .
٢. وقد نوع هشام أسلوبه بين الأسلوب الخبري والإنشائي ، فمن الأساليب الإنشائية في خطبته قوله : " يا معشر قريش " وقد كرر هذا

النداء رغبة منه في استمالة قلوبهم والاستحواذ على عقولهم . ومن الأساليب الإنشائية كذلك قوله : " أكرموا ضيفه " . وقوله : " أسألكم بحرمة هذا البيت . ومن الأساليب الخبرية قوله : أنتم جيران بيت الله " وقوله : " أنتم سادة العرب ".

٣. امتاز الخطبة بترتيب أفكارها . حيث نلاحظ أن كل فكرة تسلم للأخرى . وهذا ما أعطى للخطبة تماسكاً . ومنحها تلاحماً وقوة سبك.

٤. خلت الخطبة من الألفاظ الغريبة . فألفاظها سهلة مأنوسة . لا غرابة فيها . ولا حوشية . فالألفاظ ذات معان واضحة . لا تكد الذهن . ولا ترهق الفكر في استخراجها والوقوف عليها .

٥. أما معاني الخطبة فهي واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار. فلم نقف في الخطبة على غموض أو إغراق في معانيها . كما لم نقف على تدخل ولا تعظل بين دلالاتها .

٦. خلت الخطبة من دلائل الصنعة التكلف . فلم نقع فيها اهتمام كبير بالمحسنات البديعية والصنعة اللفظية . وهذا ما يجعلنا نقول : إن الرجل لم يتكلف في أداء خطبته وإنما ترك نفسه على سجيتها .

٧. الخطبة تشير دون شك إلى تغلغل الروح الدينية في نفوس العرب. فقد كانوا يكبرون البيت الحرام ويعظمونه . ويكرمون زواره والوافدين إليه.

الـوصـايـا :

الوصية : في الحقيقـة الأمـر توجيـه سـديد ، ونصـح خـالص ، وإرشـاد سـليم ، وحـث علـى التمسـك بـأمر مهـم وخطـير ، والوصـايا تصـدر - عـادة - مـن أنـاس عمـروا طـويلاً ، وخاضـوا كـثيراً مـن التجـارب ، وعركـوا الحيـاة وعـركتهم ، وخـبروا كـثيراً مـن أمورهـا وشـتى شـئونها حتـى أصـبحوا علـى درايـة كـبيرة بعواقـب الأمـور وعلـى علـم تـام بمـا ينفـع ويضـر ، وبنـاء علـى ذلـك نجـد أن الوصـايا تصـدر في الغالـب الأعـم مـن أب رحيم على أبنائه أو أم حانية على بناتها ، أو زعيم راع على قومه .

دواعي الوصايا :

وهنـاك دواع تفـرض علـى ذوى التجـارب العريضـة والآراء السـديدة والعقـول المستنيرة أن يقومـوا بإصـدار الوصـايا وإرسـالها ، ولعـل مـن أهـم هـذه الـدواعي الشـعور بقرب الأجل وانتهاء الأمل ، والإحساس بتغير الأحوال ، ونزول الخطر .

نماذج من الوصايا في العصر الجاهلي :

١ - ذو الإصبع العدواني يوصي ابنه أسيدا .

قال ذو الإصبع :

يـا بـني إن أبـاك قـد فنـى وهـو حـي ، وعـاش حتـى سـنم العـيش ، وإنـي موصـيك بمـا إن حفظتـه بلغـت في قومـك مـا بلغتـه ، فـاحفظ عنـي : ألـن جانبـك لقومـك يحبـوك وتواضـع لهـم يرفعـوك وأبسـط لهـم وجهـك يطيعـوك ولا تسـتأثر علـيهم بشـيء يسـودوك وأكـرم صـغارهم كمـا تكـرم كبـارهم يكرمـك كبـارهم ويكـبر علـى مودتـك صـغارهم . واسمـح بمـا لـك واحـم حريمـك ، واعـزز جـارك ، وأعـن مـن اسـتعان بـك ،

واكـرم ضـيفك ، وأسـرع النهضـة في الصـريخ فـإن لـك أجـلا لا يعـدوك ، وصـن وجهـك عن مسألة أحد شيئاً فبذلك سؤددك .

التعريف بصاحب الوصية :

هـو حرثـان بـن الحـارث العـداوني ، عـاش في العصـر الجـاهلي ، وعمـر طـويلاً ، يعـد مـن حكمـاء العـرب ، وهـو إلى جـابن ذلـك مـن الشـعراء الفرسـان ، فقـد شـهد وقـائع كـثيرة ، وخـاض معـارك مشـهورة ، ولـه شـعر جيـد ، وسمـى ذا الإصـبع لأن حيـة نهشت إبهام قدمه فقطعه ، أو لأنه كانت برجله إصبع زائدة.

معاني المفردات :

١. **سئم العيش :** كره الحياة .
٢. **الن جانبك لقومك :** كن رفيقاً بهم في معاملتك إياهم .
٣. **ابسط لهم وجهك :** أي كن طلق الوجه، ودع العبوس والانقباض .
٤. **ولا تستأثر عليهم :** أي لا تؤثر نفسك بشيء دونهم .
٥. **يسودك :** أي يجعلونك سيداً .
٦. **واسمح بمالك :** أي لا تكن بخيلاً ، وكن جواداً كريماً .
٧. **واحم حريمك :** حافظ على حرمتك واحم كل ما يجب حمايته .
٨. **واعزز جارك :** انصره وكن سنداً له .
٩. **الصريخ :** المستغيث .
١٠. **لا يعدوك :** أي لا يتجاوزك أو يتخطاك .
١١. **صن وجهك :** احفظ ماء وجهك وحافظ على عزة نفسك .
١٢. **السؤدد :** الشرف .

أفكار الوصية :

تدور وصية " ذي الإصبع " حول عدة أفكار، نجملها في النقاط التالية :

١. كبر سنه وتأففه من الحياة وبغضه لها .
٢. الشيم الحميدة والخلال الكريمة التي تجعل المرء سيدا في قومه .
٣. نجدة الصريخ .
٤. الابتعاد عن مواطن الذل .

معنى الوصية :

عندما نقرأ الوصية نلاحظ أن ذا الإصبع العدواني بدأ وصيته بالإشادة إلى أنه عاش عمرا طويلا ، وأنه خاض تجارب الحياة العريضة ، حتى أصبح عليماً بأمور قد تخفى على الصغار ، وأنه أصبح علي [illegible] وأكبر الظن أنه فعل ذلك ليشير إلى خطورة ما يريد أن يوصي ابنه به [illegible] ـد صدق ما يقول ، لأن ما يقوله نتيجة خبرته الطويلة في الحياة ، ثم أخذ ذو الإصبع يوصي ابنه ، ويحثه على أن يتمسك بمكارم الأخلاق ، وحميد الصفات أن يطرح الكبر جانباً ، ويتمسك بالتواضع ، فإنه إن فعل ذلك نال الحظوة في قومه ، والصفة الثانية التي حث ذو الإصبع ابنه على أن يتمسك بها هي صفة بسط الوجه وترك العبوس والتجهم، وأخذ ذو الإصبع بعد ذلك في سرد الخلال الكريمة ووضعها إزاء ابنه ليتمسك بها كالكرم ، ونجدة الصريخ ، والابتعاد عن

تحليل الوصية :

١. لم يهجم " ذو الإصبع " مرة واحدة على ابنه ليوصيه ، وإنما قام بتمهيد بدأ به الوصية ألح فيه إلى كبر سنه ، وقرب أجله ، وشعوره بالخطر ، وقد فعل ذلك ليستميل قلب ابنه إليه ، ولتكون وصيته ذات أثر فعال .

٢. انتقل " ذو الإصبع " من التمهيد إلى ما يكفل لابنه حياة سعيدة كريمة في قومه ، فجعل يضع أمامه الخلال الطيبة التي تجعله في ألفة تامة ، وود مستمر مع أبناء قومه .

٣. يلاحظ أن " ذو الإصبع " قرن كل صفة بنتيجتها المترتبة عليها ، فلين الجانب يميل القلوب ، والتواضع يرفع صاحبه .

٤. وأهم ما يميز الوصية أن جملها قصيرة ، وعبارتها موجزة ، وأسلوبها قوى ومعانيها واضحة لا غموض فيها ولا التواء ، ومن ثم كانت الوصية أبلغ في التأثير واحظي بالقبول .

الأمثال:

المثل : قوله موجز مشهور يشبه به حال الذي حكى فيه بحال الذي قبل لأجله . ولكل مثل مورد ومضرب . فالمورد هو الحال التي قيل فيها المثل . والمضرب هو الحال التي يقال فيها . وتتميز الأمثال بأنها تصدر من وحي الفطرة السليمة . تحت تأثير من الشعور الصادق . والتجارب الفعلية .

وتتميز الأمثال كذلك بإيجاز ألفاظها . وإصابة معانيها . وما تتضمن عليه من حسن التشبيه . وجودة الكناية . ومن ثم فهي تهب الكلام رونقاً . وتفرغ عليه قبولاً وحسناً .

وقد اهتم كثير من العلماء بجمع الأمثال وشرحها . في مصادر مستقلة مثل كتاب " الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام " . والأمثال " لأبي عكرمة الضبي " . والأمثال " للمفضل الضبى " . وجمهرة الأمثال " لأبى هلال العسكرى". والمستقصى" للزمخشرى ". ومجمع الأمثال " للميداني ". ويعد هذا الكتاب من أوفى الكتب وأفضلها وأشملها التي ألفت في هذا الموضوع . فقد جمعه الميداني من خمسين كتابا . ألفت جميعها في الأمثال . ثم قام بترتيب أمثاله على حروف المعجم بعد أن أضاف إليها أمثال المولدين.

وأمثال الجاهلين سجل حافل يضم كل ما يتصل بحياتهم الاقتصادية . والسياسية . والاجتماعية . وتشير إلى كل ما تحتوي عليه بيئتهم من حيوانات أو زواحف أو حشرات أو ظواهر طبيعية . والنظر في مجموع الأمثال الجاهلية يجد أنها صورت الحياة الجاهلية تصويراً دقيقاً . وهذا ما يحدو بنا إلى أن نقول بكل اطمئنان إن الأمثال الجاهلية كانت بمثابة صورة صادقة للحياة الجاهلية . وإنها

كانت بحق صوت المجتمع الجاهل الذي جسد آماله وأحلامه وآلامه وأفراحه وأتراحه . فمن الأمثال التي تعطينا صورة صادقة عن حياتهم السياسية وما كان يسرى خلالها من خصومات بين الإمارات العربية والقبائل المختلفة قولهم : "أشام من البسوس " ، وقولهم : " لا ناقة لي فيها ولا جمل " ، وقولهم : " أجرى من داحس ".

ومن امثالهم التي تعطينا صورة صادقة أمينة عن نمط حياتهم الاقتصادية قولهم : " إنما الدلو بالرشاء " ، وقولهم : " أنفك منك وإن كان أجدع " .

ومن أمثالهم التي تشير إلى ما كان يقع عليهم من خطوب وكوارث قولهم : " سبق السيف العذل " ، وقولهم : " رأى فاتر وعدو حاضر " ، وقولهم : " بالصيف ضعيف اللبن " .

ومن أمثالهم التي تشير إلى قوة إدراكهم لبواطن النفس البشرية قولهم : " حبك للشيء يعمى ويصم " ، وقولهم : " رب أخ لم تلده أمك " ، " مقتل الرجل بين فكيه " ، والمكثار كحاطب ليل " .

وإليك طائفة من أمثالهم لنقف من خلالها على سمات الأمثال وما تميزت به :

١ . لا تعدم الحسناء ذاماً :

يضرب مثلاً للشيء الفاضل يكون فيه ما يشينه .

وأول من قال ذلك " حبي بنت مالك العدوانية "وكانت جميلة فخطبها" مالك بن غسان ". فلما حملها قالت أمها لنسوتها إن لنا عند الملامسة رشحة. فإذا أردتن إدخالها على زوجها فمحن أعطافها بما في أصدافها . فلما أردن ذلك بها أعجلهن زوجها عن تطيبها ، فوجد منها رويحة ، فلما أصبح قيل له كيف

رأيت طروقتك ؟ قال : لم أر كالليلة لولا رويحة أنكرتها . فقالت من خلف الستر . لن تعدم الحسناء ذاماً فذهبت مثلاً .

٣ . وافق شن طبقة :

وقصة هذا المثل أن شنا كان رجلاً من عقلاء العرب . قال والله لأطوفن حتى أجد امرأة مثلي فأتزوجها . فبينما هو في بعض مسيرة إذ وافقه رجل في الطريق فسأله شن أين تريد ؟ فقال : موضع كذا . يريد القرية التي يقصد لها شن، فوافقه فلما أخذا في مسيرها قال له شن : أتحملني أم أحملك. فقال له الرجل : يا جاهل أنا راكب وأنت راكب . فكيف أحملك أو تحملني ؟ فسكت عنه شن وسار إذا قربا من القرية إذا هما بزرع قد استحصد . فقال له شن أترى هذا الزرع أكل أم لا ؟ فقال الرجل يا جاهل ترى نبتاً مستحصداً فتقول أتراه أكل أم لا . فسكت عنه حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة . فقال شن أترى صاحب هذا انعش حيا أم ميتا ؟ فقال له الرجل ما رأيت أجهل منك . نرى جنازة فتسأل أميت صاحبها أم حي ؟ فسكت عنه شن وأراد مفارقته . فأبى الرجل أن يتركه حتى يصير به إلى منزله فمضى معه . وكان للرجل ابنة يقال لها طبقة فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه فأخبرها بمرافقته إياه وشكا إليها جهله وحدثها بحديثه . فقالت يا أبه ما هذا بجاهل .

أما قوله أتحملني أم أحملك فأراد أتحدثني أم أحدثك حتى تقطع طريقنا، وأما قوله : أترى هذا الزرع أكل أم لا فإنما أراد أباعه أهلوه فأكلوا ثمنه أم لا . وأما قوله في الجنازة فأراد هل ترك عقبا يحيا بهم ذكره أم لا ؟ فخرج الرجل فقعد مع " شن " فحادثه ساعة . ثم قال له أتحب أن أفسر لك ما سألتني عنه ؟ فقال : نعم .

ففسره، فقال : " شن " ما هذا من كلامك فمن صاحبة ؟ قال ابنة لي : فخطبها فزوجه إياها فلما رأوها قالوا وافق شن طبقة يضرب مثلاً .

٣ . جوع كلبك يتبعك :

يضرب لما ينبغي ان يعامل به اللئام .

أول من قال ذلك ملك من ملوك حمير كان عنيفاً على أهل مملكته ، يغتصب أموالهم ، ويسلبهم حقوقهم ، وكانوا يخبرونه أنه سيقتل ، فلا يحفل بذلك، وأن امرأته سمعت أصوات السؤال فقالت : إني لأرحم هؤلاء لما يلقون من الجهد ونحن في العيش والرغد ، وإني لأخاف أن يكونوا عليك سباعا ، وقد كانوا لنا أتباعا فرد عليها ، جوع كليك يتبعك ، فأرسلها مثلاً . فلبث زمانا ثم أغزاهم فغنموا وحرمهم من الغنيمة ، فقالوا لأخيه وكان أميرهم ، إنا نكره خروج الملك فيكم وقد ترى ما نحن فيه فساعدنا على التخلص منه وأجلس مكانه فوثبوا ليه فقتلوه ، فمر به " عامر بن جذيمة " وهو مقتول وقد سمع بقوله : جوع كلبك يتبعك فقال ربما أكل الكلب مؤدبة إذا لم ينل شبعه ، فأرسلها مثلا يضرب لما ينبغي أن يعمل به اللئام .

٤ .لا عطر بعد عروس :

يضرب لمن لا يدخر عنه نفيس .

وأول من قال ذلك امرأة من عذرة ، يقال لها " أسماء بنت عبد الله " ، وكان لها زوج من بني عمها يقال له عروس ، فمات عنها ، فتزوجها رجل من قومها يقال له نوفل ، وكان أعسر أبخر بخيلاً دميماً ، فلما أراد أن يظعن بها قالت له :

لو أذنت لي فرثيت ابن عمي وبكيت عند رمسه . قال : افعلي. فأنشأت تقول : يا عروس الأعراس ، يا أسداً عند الباس ، مع أشياء ليس يعملها الناس ، قال نوفل: وما تلك الأشياء ؟ قالت : كان عند الهمة غير نعاس ، ويعمل السيف صبيحات الباس ، ثم قالت : يا عرس الأعراس الأزهر الطيب الخيم ، الكريم العنصر ، مع أشياء ليس نذكر ، قال : وما تلك الأشياء ؟ قالت : كان عيونا للخنا والمنكر ، طيب النكهة غير أبخر ، أيسر غير أعسر ، فعرف أنها تعرض به فلما رحل بها قال : أيتها المرأة ضمي عطرك ، ونظر على قشوة فيها عطرها مطروحة ، فقالت : لا عطر بعد عروس فذهبت مثلاً ، ويقال إن رجلاً تزوج امرأة فوجدها تفلة فقال لها أين الطيب ؟ فقالت خبأته ، فقال : لا عطر بعد عروس ، يضرب لمن لا يدخر عنه نفيس .

٥ . رب ساع لقاعد :

أول من قاله النابغة الذبياني شاعر النعمان بن المنذر ، وقصة هذا المثل أن وفداً من وفود العرب أتى النعمان بن المنذر ، وكان فيهم رجل من بني عبس يقال له شقيق ، فمات عنده ، فلما حبا " النعمان " الوفود بعث على أهل شقيق بمثل حباء الوفد فقال النابغة : رب ساع لقاعد .

٤ . جزاء سنمار :

يضرب لمن يجزي بالإحسان الإساءة .

ومعنى هذا المثل أن جزائي جزاء سنمار ، وسنمار رجل رومي بني الخورنق " للنعمان بن امرئ القيس " ولما فرغ منه ألقاه " النعمان " من أعلاه فخر ميتاً ، وإنما فعل ذلك به لئلا يبني مثله لغيره ، فضربت العرب به المثل لمن يجزي بالإحسان الإساءة .

الحكم :

الحكمة قول يتسم بالإيجاز، يتضمن حكما إما يحث على الخير، ويدعو إلى الفضيلة، وإما ينهي عن الخبث، ويكف عن الشر. فالأمة العربية من أكثر الأمم إرسالاً للحكمة وإفرازاً لها، ويرجع ذلك إلى كثرة تجارب أبنائها في الحياة، وحصانة عقولهم، ورجاحة تفكيرهم من ناحية، ويرجع كذلك إلى فصاحتهم النادرة، وقوة تمكنهم من زمام الأساليب من ناحية أخرى.

والملاحظ أن الحكمة تجيء في الشعر كما تجيء في النثر، فتقف عليها في الشعر في صورة أبيات منظومة وموزونة داخل القصائد الطويلة، ونقف عليها في النثر الجالي في صورة عبارات دقيقة قصيرة موجزة من الوزن، تتضمن خلاصة تجارب عريضة لأفراد أو جماعات.

وقد حفظت لنا كتب الأدب ومصادر التاريخ كثيراً من أعلام الحكمة في العصر الجاهلي في الشعر والنثر، فمن حكماء الجاهلية، " ذو الإصبع العدواني " واسمه " عامر بن الظرب "، و" قس بن ساعدة الإيادي "، و" طرفة بن العبد ".

وللحكمة أثر بالغ في الكلام، فهي تورث بهاء وقبولا، وتمنحه عذوبة وشرفاً، وترتفع به، وتضعه في منزلة سامية، ومن ثم تقبل عليه انفس البشرية في لهفة. وترتاح إليه الأفئدة، وتطمئن إليه الأذهان، فالكلام الذي يشتمل على الحكمة يكون أمتع في الصدور وأوقع في النفوس، وآنق في الأسماع، وأسير في الآفاق، ولا شك في ذلك، فالحكمة تثير في النفوس حب الفضيلة وتدعو إلى الهداية وتحث على مكارم الأخلاق.

وإليك طائفة من حكم الجاهلية :

قال أكثم بن صيفي [1] .

حيلة من لا حيلة له الصبر .

العافية الملك الخفي .

من لم ييأس على ما فاته أراح نفسه .

عدو الرجل حمقه وصديقه عقله .

الكرم حسن الفطنة وحسن التغافل . واللؤم سوء التغافل .

الحر حر وإن مسه الضر . والعبد عبد وإن كان في رغد .

الحر لا يكون صريع بطنه ولا فرجه .

أحق من يشركك في النعم شركاؤك في المكاره .

الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة وإفراط الأنس مكسبة لقرناء السوء.

إن سرك من دمك فانظر أين يريقه .

لا تفش سرك إلى أمة ولا تبل على أكمة .

الصمت يكسب أهلة المحبة .

وقال أيضا [2]:

من لا حاك فقد عداك . فضل القول على الفعل دناءة . وفضل الفعل على القول مكرمة . المناكح الكريمة من مدارج الشرف . الوقوف عند الشبهة خير من اقتحام الهلكة . من يصحب الزمان ير الهوان . في كل عام سقام . ومن كل خبرة عبرة كل فرحة ترحة . من مأمنه يؤتى الحذر . رب صبابة غرست من لحظة .

١ - أكثم بن صيفي ومأثوراته د / كاظم الظواهر ص ٢١٣ وما بعدها دار الصابوني - ط ٢ - ١٩٩١م .
٢ - السابق ٢٠٨ .

ورب حرب شبت من لفظة . رب كلمة سلبت نعمة . رب ملموم لا ذنب له . رضا الناس غاية لا تدرك . خير السخاء ما وافق الحاجة . ومن عرف قدره لم يهلك . ومن صبر ظفر . وأكرم أخلاق الرجال العدو .

حكم للصعقب بن عمرو بن النهدي [1]:

قال ابن دريد أخبرنا السكن بن سعيد الرموزي عن محمد بن عباد عن الكلبي قال : وفد " الصعقب بن عمرو النهدى " في عشرة من بني نهد على " النعمان بن المنذر " . وكان الصعقب رجلاً قصيراً دميما تقتحمه العين شريفاً بعيد الصوت . وكان قد بلغ النعمان حديثه . فلما أخبر النعمان بهم قال للآذان : ائذن للصعقب . فنظر الأذن إلى أعظمهم وأجملهم . فقال : أنت الصعقب ؟ قال : لا . فقال للذي يليه في العظم والهيئة : أأنت هو . فقال لا : فاستحيا . فقال ايكم الصعقب ؟ فقال الصعقب ؟ الصعقب : هانذا فأدخله إلى النعمان . فلما رآه قال: تسمع بالمعدى خير من أن تراه ! فقال له الصعقب : أبيت اللعن : أن الرجال ليسوا بالمسوك يستقسى فيها . انما الرجل بأصغريه بلسانه وقلبه ؟ أن قاتل قاتل بجنان . وأن نطق نطق ببيان . فقال له النعمان : فلله أبوك : فكيف بصرك بالأمور؟ فقال : أنقض منها المفتول ؟ وأبرم منها المسحول وأحليها حتى تحول. ثم أنظر إلى ما يئول . وليس لها بصاحب من لم ينظر في العواقب . قال : قد أحلت وأحسنت . فأخبرني عن العجز الظاهر والفقر الحاضر. قال : أما الظاهر فالشاب الضعيف الحيلة المتبوع للحيلة . الذي يحوم حولها ويسمع قولها . إن غضبت ترضاها وإن رضيت تفداها . فذاك الذي لا كان ولا ولد النساء مثله .

---

١ - تعليق من أمالي ابن دريد ٢٢٤ - ٢٢٥ . ومعنى الصعقب : الطويل . والمسك : الجلد أو خاص بالسخلة . والسحل: الذي قوة واحدة . داء . عياء : لا يبرأ منه . سبع فلانا : شتمه ووقع فيه .

وأما الفقر الحاضر فالذي لا تشبع نفسه ، وإن كان له قنطار من ذهب.

قال: فأخبرني عن السوءة السوءاء والداء العياء ، قال : أما السوءة السوءاء فالمرأة السليطة التي تعجب من غير عجب ، وتغضب من غير غضب ، فصاحبها لا ينعم باله ولا يحسن حاله ، إن كان ذا مال لم ينفعه ، وإن كان فقيراً عير به ، فأراح الله منها بعلها ، ولا متع بها أهلها .

وأما الداء العياء فالجار جار البيت إن شهدك شافهك ، وإن غبت عنه سبعك ، وإن قاولته بهتك ، وإن سكت عنه ظلمك ، فقال له النعمان : أنت أنت ! فأحسن صلته وصلة أصحابه " .

وقال : عامر بن الظرب العدواني . [1]:

يا معشر عدوان : الخير ألوف عروف، وإنه لن يفارق صاحبه حتى يفارقه، وإني لم أصبح حكيماً حتى صاحبت الحكماء ، ولم أكن سيدكم حتى تعبدت لكم.

وقال : النعمان بن المنذر : :

من سأل فوق قدره استحق الحرمان ، ومن ألحف في المسألة استحق الرد ، والرفق يمن ، والحزن شؤم ، وخير الطاعة ما وافق الحاجة ، وخير العفو ما كان مع القدرة [2] .

وقال ايضا [3] :

الملك حلو الطعم مر التكاليف ، وكان يقول من خان جان ، ولما وقع في حبس ابرويز وأشرف على التلف قال : من له يدان بغوائل الزمان ، ومن كلامه : الملك عقيم أي لا أرحام بين الملوك وبين أحد .

١- امالى لأبى القالي ٢ / ١٧٩ .
٢- كتاب الأداب لجعفر بن شمس الخلافة ص ١٨ .
٣- الإعجاز والإيجاز للثعالبي ص ٦١ - ٦٢ ومعنى : جان ، الجان السود : أي من خدع وغش يسود : وجهه يوم الدين وغوائل جمع غائلة وهي الداهية المهلكة .

وقال عمرو بن هند [1] :

السلاح ثم الكفاح والمحاضرة، وكان يقول الملوك يشتمون بالأفعال لا بالأقوال ، ويتسفهون بالأيدي لا بالألسن .

وقال الحارث بن ابي شمر الغساني ملك عرب الشام [2] .

إذا التقي السفيان بطل الخيار ، وكان يقول من اغتر بكلام عدوه فهو أعدى عدو لنفسه ، ومن كلامه : الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود .

وقال حسان بن تبع الحميري - احد ملوك اليمن - [3] :

لا تثقن بالملك فإنه ملول ، ولا بالمرآة ، فإنها خؤون ، ولا بالدابة فإنها شرود ، ومن كلامه المعروف حصن النعمة من صروف الزمن ، وضروب المحن .

١- السبق ص ٦٢.
٢- السبق ص ٦٣.
٣- السبق ص ٦٣.

الشعر في العصر الأموي

إذا نظرنا إلى بيئة الشعر في العصر الأموي نجدها قد تغيرت وتطورت فهذه مكة والمدينة قد تحضرتا وكثر فيهما الترف والرقي ، والعبيد والمغنيات والمغنيين والإماء ، واكتملت لها كل أسباب المرح البرئ الذي قوامه الذوق الراقي المهذب ، مما جعل أهلها يحزنون على فراقها كما حدث لأبي فطيفة الأموي حين نفاه ابن الزبير إلى دمشق أخذ يبكي بلدته في شعر مؤثر مقارناً بينهما وبين دمشق . ولا نقرأ هذا الشعر حتى نحس كأنه طرد من فردوسه الأرضي يقول في مطلع قصيدة له :

القصر فالنخل فالجماء بينهما

أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

ويقول :

أقطع الليل كله باكتئاب

وزفير فما أكاد أنام

وكان للحروب الدامية والمعارك العنيفة ، والثورات المتلاحقة التي شهدها العصر الأموي أثر كبير في إذكاء روح الشعر ، وإشعال ناره إذ كان يجري على كل لسان ، واتخذه الأمويون وخصومهم أداة للتعبير عن آرائهم السياسية المختلفة ، وتأييداً لمذهبهم ، ودفاعاً عنه ، ورداً على الآخرين ونقضا لهم .

وقد ظهرت أغراض جيدة في الشعر في هذا العصر على رأسها الغزل ، إذ كان في العصور السابقة يتخذ بداية ومقدمات للقصائد في مختلف أغراضها ، أما في العصر الأموي فقد أصبح فناً مستقلاً قائماً بذاته عند كثير من الشعراء في

مقدمتهم (عمر بن أبي ربيعة) إذا جعل ديوانه كله غزل وكذلك ظهر شعر النقائض على يد جرير والفرزدق والشعر التعليمي والرجز إلى غير ذلك من الأغراض التي جدت في هذا العصر.

وقد أثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي تأثيراً واضحاً ، فنرى الغزل وقد تطهر وصفى مما كان عليه من قبل . ونشأ الغزل العزرى وكأنما أضفي الإسلام على المرأة وعلاقتها بالرجل عند هؤلاء الشعراء ضرباً من القدسية أحاطها بهالة من الجلالة والوقار .كما نرى في شعر عمر بن أبي ربيعة وغيره .

أما شعر المديح فقد تحول إلى تصوير الفضيلة الدينية في الممدوح ، ووثق هذا التصوير في مديح الخلفاء والولاة أن الحكم والدين كانا مرتبطين ارتباطاً لا تنفصم عراه . فنهض الشعراء يتحدثون عن تقواهم ، وأنهم يقيمون ميزان العدالة السماوية بين الرعية . وعلى نحو ما تأثر المديح بالإسلام ، تأثر فن الهجاء كذلك ، إذا أخذ الشعراء يهجون خصومهم بانحرافهم عن الدين ، فأطالوا في وصفهم بالفسوق والبغي والطغيان .

أما شعر الحماسة فقد كان أقوى في تأثره بالإسلام . إذ كان أكثرة ينظم في الجهاد ، وحب الشهادة والتضحية في سبيل الله .

كما طبع الرثاء بطابع الإسلام ومبادئه من التسليم لله بالرضا بفضائله، فكل نفس ذائقة الموت ، وهو حسمٌ في رقاب العباد ، وعليهم أن يتذرعوا إزاءه بالصبر الجميل .

هنا من ناحية موضاعات الشعر وأغراضه ، أما من حيث الألفاظ والأساليب والأوزان ، فلم يختلف بناء القصيدة في هذا العصر عنه في عصر الجاهلية وصدر الإسلام فقد اشتملت على عدة عناصر من الأغراض والمقاصد

فكان الشاعر يبدأ بالنسيب وذكر الديار ثم يفخر بنفسه وقومه ، ثم يقتضب الكلام إقتضاباً ، وينتقل إلى الغرض الذي يقصده من مدح أو هجاء على ما كان متبعاً في العصر الجاهلي وعند شعراء الإسلام .

ولم يخرج شعراء هذا العصر في جملة تصورهم وتخيلهم عما الفوه في العصرين السابقين وإن خالفوهم في ترتيب الفكر ، وتقريب المعاني إلى الأذهان والوجدان بما هذّب نفوسهم ، ورقق طباعهم ، من دراسة كتاب الله وأحاديث رسوله الكريم ، بما نوع خيالهم ووسع معارفهم من مشاهد الحضارة وبدائع الصناعات .

كما لم يخرجوا جملة في تأليف ألفاظهم ، ونسج أساليبهم عن نظائرهم في الجاهلية والإسلام ولكنهم أثروا جزالة اللفظ ، وفخامته وحسن جرسه ، ومؤالفته لسابقه ولاحقه دون غرابة أو تنافر ، وربما تعمد بعضهم الغريب ، ومداخلة بعض الكلام في بعض ليعجب علماء اللغة والنحو كالفرزدق ، كما أثروا جودة الأسلوب وروعة تأثيره ورقته وعزوبته في الغزل القصصي والنسيب والعفيف البدوي .

هذا عن القصيدة أما الرجز فقد كانت الغرابة من ألزم طبائعه . أما الأوزان والقوافي فلم يصبها تغيير يذكر عما كانت عليه من قبل ، ولكن شاع في هذا العصر نظم الأراجيز والتطويل فيها واستعمالها في جميع أغراض القصيدة ، حتى في افتتاحها بالنسيب والتخلص منه إلى المدح والزهد ونحو ذلك .

جميل بثينة والحب العذري

" من بحر الطويل "

يقول جميل :-

ألا لَيْـــتَ أيـــامَ الصَّـــفَاءِ جَديـــد
ودهــرا تَــولَّي يــا بُثَــيْنُ يعــودُ
فَنَغنَــى كمـــا كُنَّـــا نكُـــونُ وأنـــتُمْ
صـــديق وإذا مـــا تبـــذُلينَ زَهيـــدُ
وَمَا أنسى ملأ شْياء لا أنسى قَولَها
وقَدْ قربتَ نِضْوي أمِصْــر تريــد
ولا قَولها : لولا العُيُونُ التي تَــرى
أتَيتُكَ ، فاعــذرُني فَــدتكَ جُــدودُ
خليليَّ ما أُخْفى مِنَ الوَجْدِ ظَــاهِرٌ
وَدَمْعِي بما أُخْفِــي الغَــداةَ شَــهيدُ
ألا قَــدْ أرَى واللهِ أنَّ رُبَّ عَبْــرَةٍ
إذَا الــدَّارُ شَــطَّت بَيْنَنَــا سَــتَزيدُ
إذا قلتُ : ما بي يــا بثينــة قــاتلي
من الحُبِّ قَالــتْ : ثَابِــتُ ويَزيــدُ
وإن قُلْتُ رُدِّى بَعضَ عَقْلِي أعِش بــه
مع النَّاسِ قالتْ : ذَاكَ منــك بَعيــدُ
فلا أنا مَرْدودُ بمــا جِنــتُ طالِبــاً
ولا حُبُّهـــا فِيمَـــا يَبِيـــد يَبِيـــدُ

جَزتْكِ الجَوازِي يا بُثَــيْنُ مَلاَمَــةً

إذَا ما خليــلُ بَــانَ وهُــوَ حَميــدُ

وقُلتُ لها : بيْني وبَيْنَــكِ فــاعْلَمِي

مِــن اللهِ ميثــاقُ لَــهُ وعُهُــودُ

وقَدْ كَــانَ حُــبَكُمُ طَرِيقــاً وتَالِــدا

ومــا الحُــبّ إلاّ طــارِفُ وتَليــدُ

وإنّ عَروضَ الوَصْلِ بَيْني وبينهــا

وإنْ ســـهّلته بـــالمُنَي لصـــعودُ

فأفْنَيْتُ عَيْشِي بانْتِظَــاري نَوَالهــا

وأبليتُ ذَاك الــدَّهرَ وهُــوَ جَديــدُ

******

ألا لَيْتَ شِعْري هَــلْ أبِيــتَنّ لَيْلَــةً

بَــوادي القُــرَى إنِّــي إذاً لَسَــعِيْدُ

وهل أهْبِطن أرْضاً تَظَلُّ رِياحُهــا

لهــا بالثَّنَايــا القَاوِيــات وَئِيــدُ

وهَلْ ألْقَيَنْ سعْدي من الدَّهر مــرَّةً

ومارَثّ مِن حبلِ الصَّــفاءِ جَدِيــدُ

وقد تَلْتَقى الأهواءُ مِن بعــدِ يأسَــةٍ

وقد تطْلَب الحاجاتُ وهــيَ بَعيــدُ

وهل أزجُرَنْ حَرْفاً عَــلاَةً شــملَةً

بخَــرقٍ تُبارِيهــا سَــواهِمُ سُــودُ

على ظهر مرْهوبٍ كـأنَ نُشُـوزَهُ
إذا جازَ هُـلاَّكُ الطريـق رُقُـودُ
سَبَتْني بعَيْنَيْ جُؤْذُرٍ وسْطَ رَبْـرَب
وصَدْرٍ كَفَا ثُـور اللُّجَـيْن وَجيـدُ
فَمنْ يُعْطَ في الدُّنيا قَرِينـا كَمِثْلِهـا
فذلك فـي عَـيْشِ الحيـاةِ رَشِـيدُ
يموت الهوَى مني إذا مـا لَقِيتُهـا
ويَحيَـا إذا فَرقْتُهَـا فَيَعُـودُ
يَقولون : جاهدْ يا جميـلُ بغَـزْوَةٍ
وأي جِهـادٍ غَيْـرَهُن أُرِيـدُ ؟
لكُـل حـديثٍ بَيْـنَهُنَّ بَشَاشَـةٌ
وكـلُّ قتيـلٍ بَيْـنَهُنَّ شَـهِيدُ
ومَنْ كَانَ في حُبِّي بُثَيْنَـةَ يَمتَـرِى
فَبرقَـاءُ ذِي ضَـالٍ علَـيَّ شَـهِيدُ
ألم تَعلَمي يا أمَّ ذِي الـوَدْعِ أنَّنـي
أضاحِكُ ذكـراكُمْ وأنْـتِ صَـلُودُ

دراسة القصيدة :

أ ـ التعريف بالشاعر :

هـو أبـو عمـرو جميـل بـن عبـد الله بـن معمـر العـذرى القضـاعي . وهـو شـاعر فصـيح مقـدَّم .. جـامع للشـعر والروايـة ، كـان راويـة هدبـة بـن خشـرم ، وكـان هدبـة شـاعراً راويـة للحطيئـة وكـان الحطيئـة شـاعراً راويـة لـزهير وابنـه كعـب وكـان كـثير بـن

عبد الرحمن (كثير عزة) راوية لجميل ، ومعنى ذلك أنه موصول الأواصر بمدرسة شعرية كان لها تاريخ كبير في الحرص على شرف المعنى وقوة الأسلوب وجزالته .

ويعد جميل من عشاق العرب ، فقد افتتن بحب بثينة ، وهام على وجهه حتى استقر في مصر تاركا بني عذرة في وادي القرى ، وقرب المدينة المنورة ، وظل مقيما في رحاب عبد العزيز بن مروان واليها فأكرمه وظل يمدحه حتى توفي عنده عام ٨٢ هـ / ٧٠١ م ، وتناقل الناس أخباره وأشعاره العذرية الرقيقة في الشعر العذري الذي ابتكره مع شعراء اشتهروا بذلك في العصر الأموي ، منهم : قيس بن الملوح ، وقيس بن ذريح ، وكثيرة عزة ، وتوبة الخفاجي . ويعده النقاد في البادية نظير عمر بن أبي ربيعة في الحاضرة وكلاهما حجازي خضعا لعوامل متقاربة .

أما صاحبة جميل فهي بثينة بنت حبأ بن ثعلبة بن ربيعة ... حيث تلتقي مع جميل في النسب ، وكانت تكني أم عبد الملك لكن ماذا عن قصة هذين العاشقين ومأساتهما ؟

تشهد أخبار جميل وبثينة أن هذه المأساة بدأت بحادث عابر ، تفجرت منه كل الروافد العاطفية حتى نهاية المدى ، فقد كان جميل في أول عهده بالعشق يهوي (أم الجسير) أخت بثينة الكبرى ، وذات يوم أقبل جميل بإبله حتى أوردها واديا ترعى كما تشاء ، وكان يقطن في طرف هذا الوادي قوم بثينة ، وتصادف في هذا اليوم أن خرجت الفتاة بصحبة جارة لها .. تردان الماء ، فمرتا على بعض من إبل جميل فنفرته ، وشق ذلك على الفتي فقام من ضجعته إلى بثينة تلك الفتاة الصغيرة التي خالها حمقاء فعنفها على سلوكها وسبها فردت عليه سبه بسب آخر وغالت فيه .

وأدرك جميل كم هي رقيقة تلك الفتاة ، وكم هو مليح سبابها ، فشعر بسهم الحب ينفذ إلى عمق قلبه ، فأحب سبابها ، وعلق بها .

أية عاطفة طاغية تلك التي تقيمها الإساءة والحرمان والسباب ، وكأن قلبه كان ينفتح في شوق جارف لعاطفة تملؤه .

وينصرف جميل عن أم الجسير إلى أختها الجميلة بثينة وفي ذلك يقول :

وأول ما قاد المودة بيننا
بوادي بغيض يا بثين سبابُ
وقلنا لها قولا فجاءت بمثله
لكل كلام يا بثين جوابُ

وبهذا تبدأ سطور قصة العشق بين جميل وبثينة ، وتتتابع فصول القصة يوما بعد يوم حتى ينسى المؤرخون نسب جميل ، ويذكروا فقط اسمه مقرونا بمحبوبته بثينة .

وتورد الأخبار أنه قد وقع لبثينة هوى جديد مع رجل اسمه حجنة الهلالي ، فلم يزده ذلك إلا فتوناً إلى فتون ، ووقعت الجفوة بينهما ، وهي جفوة لم تشفه من جواه ؛ لأنه كان قد صار إلى حالة لا ينفع فيها دواء .

ولم يفلح أهله في إقناعه بوجوب الكف عن هوى امرأة ليس له من أطايبها غير النعيم بأوهام الخيال .

وقد اعترف جميل بأن من الحمق أن يذوب الرجل وجدا بامرأة تكون أطايبها في زمام رجل سواه . ثم اعتذر بأنه لا يملك الصبر عن الهيام بتلك المرآة ، لأنها ملكت عليه أقطار نهاه وقد أضله هواه فلم يعد يعرف مذاهب التجمل ولا مسالك العقل .

وتشهد أخبار جميل وبثينة بأنهما كانا عاشقين يريان للعشق غاية أشرف من المتاع المبذول في دنيا الأهواء ، ومن أجل هذا سخر جميل من العبارات التي وجهت إلى من يعشق امرأة لها بعل ، وهي عبارات غليظة تؤذي الرجل البدوي أشد الإيذاء .

ولم تقف بلية الحب عند الهيام بامرأة متزوجة لا تنال منها المطالب الحسية إلا عن طريق الإثم - وهو مسلك يمقته جميل كل المقت - فقد صدر أمر السلطان بإهدار دم جميل إن فكر في زيارة بثينة ، فرحل إلى اليمن مرة ، وإلى الشام مرة ، وطالت به الحيرة في تلمس أسباب الخلاص من هواه ، فلم يجد أفضل من الرحيل إلى مصر ، ولم تطل أيامه بمصر، فقد أخذ النور يخبو واحس أن الستار الأخير سوف يسدل عليه ، فدعا صديقا له وأوصاه أنه إذا مات عليه أن يأخذ حلته في حقيبته ويذهب إلى قوم بني الأحب من عذرة - وهم قوم بثينة وأن يصيح بهذه الأبيات :

بكر النعي - وما كنى - بجميل
وثوى بمصر ثواء غير قفول
بكر النعي بفارس ذي همة
بطل إذا حمل اللواء مديل
ولقد أجر الذيل في وادي القرى
نشوان بين مزارع ونخيل
قومي بثينة فاندبي بعويل
وابكي خليلك دون كل خليل

ففعل الرجل ما أوصاه به جميل ، فما كاد ينقضي من إلقاء هذه الأبيات حتى برزت إليه بثينة يتبعها نسوة قد بزتهن طولا وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز في جنة فقالت : يا هذا لئن كنت صادقا لقد قتلتني ، ولئن كنت كاذبا لقد فضحتني : فقال الرجل : والله ما أنا إلا صادق .وأخرج حلة جميل فلما رأتها بثينة صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها واجتمع نساء الحي يبكين معها ويندبنه حتى صعقت ووقعت مغشيا عليها . فلم ير يوم كان أكثر بكاء منه .

وهكذا تغلق الصفحة الأخيرة في هذه المأساة ، على صورة عاشقين كتب عليهما قدرهما أن يعيشا على وجد ومرارة وشوق جارف ، بموت العاشق بعيداً عن وطنه وتحيي المعشوقة في كمد وحزن ووحشة تجتر ذكرياتها القديمة حتى طوقتها رمال عذرة بعد موت حبيبها بقليل ليلتقيا في جنة العاشقين التي لا تعرف الفراق مهما بعدت بينهما المسافة .

ويقتضينا المقام أن نقول إنه إذا كانت مأساة قيس ولبنى - على شهرتها الواسعة - أشد هذه الماسي اختلاطا واضطرابا في أخبارها الكثيرة وما دخلها من وضع الرواة وتزيد القصاص وأوهام السمار ، فإن قصة جميل وبثينة لم ينلها هذا الاختلاط ولا تختلف مصادرهما كثيرا ، ومن ثم فهي أقرب هذه المأسي للواقع ؛ حيث نجت من عبث الرواة والقصاص والسمار .أقرب أقر

غرض القصيدة :

قصة جميل في الشعر والحب العذري تعد من النوادر في تاريخ الأدب العربي ، فهو من حيث الشعر رجل قوي الأسر محكم الأسلوب ، وقد استعد للشعر كل الاستعداد .

أما من حيث الحب فقد تأهب له جميل بمواهب تجعل قصته فيه على جانب عظيم من الجاذبية ، فقد كان جميل فتى شريف النفس ، شجاع القلب يخافه العدو ويرجوه الصديق .

ولم يكن العشق والحب العذري عنده فنا من اللهو أو العبث ، وإنما كان محنة أصيب بها قلبه الجرئ ، وقد طال بلاؤه بمحنة العشق ولم ينقذه غير الموت وهو مغترب وحيد .

ولما كان جميل بعيداً طريد الحب ، فقد عاش على الذكرى والأمل في لقاء المحبوبة وتجدد أيام الصفاء والحب ، وهذه القصيدة إحدى النفثات التي أخرجها جميل من حنايا نفسه ومن بين ضلوعه ، وسويداء قلبه ليعبر بها عن حبه وإخلاصه واشتياقه لمحبوبته بثينة ، وقد قال هذه القصيدة وهو مرتحل إلى مصر .

٢ ـ تحليل القصيدة :

إذا ما أنعمنا في القصيدة كلها نجد أنها تشتمل على عناصر وأفكار عدة ، أبرزت قصد الشاعر وكشف اللثام عن تجربته التي اضطرمت بين جوانحه وعاني منها ما عاني ، فراح يصدح بهذه القصيدة وبتلك الأجزاء الفنية التي تعبر عن شعوره وإحساسه وصدق عاطفته. وأول هذه العناصر :

الحديث عن الماضي السعيد:

الفكرة في الابيات التالية :

١. الا ليــت أيــام الصــفاءِ جديــدُ
ودهــراً تــولى يــا بثــين يعــود

٢. فنغنى كمــا كنــا نكــون وأنــتم
صــديق وإذا مــا تبــذلين زهيــد

٣. وما أنس ملأشياء لا أنس قولهــا
وقد قربت نضوى أمصر تريــد ؟

٤. ولا قولها: لوى العيون التي ترى
أتيتك ؛ فاعذرني ، فــدتك جــدود

٥. خليلي ما أخفي من الوجد ظاهر
ودمعي بما أخفــي الغــداة شــهيدُ

٦. ألا قد أرى والله إن ربَّ عبــرة
إذا الــدار شــطت بيننــا ســتزيد

التفسير اللغوي :

١. **جديد :** تجدد الماضي ورجوعه . **دهرا :** الفترة من الزمن .
تولى : ذهب وابتعد . **وصار :** في حكم الماضي.

٢. **بثين :** بثينة وحذف الحرف الأخير من الاسم يسمى ترخيما .

٣. **نغني :** نسعد بالإقامة . **نكون :** نوجد.

٤. **ما تبذلين :** ما تنيلين من الوصل والوداد . **زهيد :** قليل .

٥. **ملاشياء :** من الأشياء .

٦. **النضــو:** الضعيف المهزول من الحيوان يريد ناقته .

يقول مهما أنس من شيء فلا أنس قولها وقد قربت من ناقتي أتريد مصر.

٧. **الجدود :** جمع جَد .

٨. **بالفتح :** وهو أبو الأب تدعو له بالسلامة وتفتد به بالأهل .

٩. **الوجد :** الحب الشديد . **الغداة :** ما بين الفجر وطلوع الشمس .

شهيد : ظاهر .

١٠. **العبرة :** الدمعة أو الحزن من غير بكاء.

شطت : بعدت . أي سيكثر بكائي إذا افترقنا .

ستزيد : خبر عبرة والجملة خبر أن المخففة .

شرح وتعليق :

يبدأ الشاعر قصيدته بالحديث والتغني بأيام الصفاء الخالية والذكريات الحلوة الجميلة التي قضاها في رحاب محبوبته أو بالقرب منها : فليتها ترجع كما كانت لترفرف عليهما السعادة ، وتهدأ النفس وتقر العين ولو بالقليل من الوصل والوداد . فما زالت كلماتها عالقة بذهنه ساعة الوداع وهو مرتحل إلى مصر لا يستطيع نسيانها وقلبه ، ذلك لأن بثينة كانت تودعه بحرارة وشوق وفي صوت هامس تقول له : أتنصرف عن لتبتغي مصر ؟ تقولها وهي تخشى التلاقي ويصدها عنه عيون الحساد ونظرات العذال ، ولا تملك لا الاعتذار عن اللقاء ، والدعاء له والتضحية من أجله بالأهل والأحباب .

ويسير الشاعر بعد أن ودع محبوبته ، متقطع القلب يعصف به الشوق، ويمزقه الحب ويتلظى بنار الفراق ، ويذوب من كثرة البكاء والحزن على فراق

محبوبته ، وتبادله محبوبته الشعور نفسه إذا ما بعدت بينهما الشقة والفراق ، فسيزداد في قلبها الحب ويشتد مع أنها تتأبى عليه ، وتخب آماله ، فلا هي تمكنه من الوصال ، ولا هو يستطيع نسيانها .

تلك ساعة من ساعات الماضي السعيد ، يذكرها ليخفف عن قلبه المتيم المكلوم وطأة الفراق ونار البعد ، واستعادة الذكريات أمر واقع لكل إنسان ، لكنه في جانب المحبين أكثر وأشمل ، فالحب يعيش على الذكرى إذا ما حال البين بينه وبين من يحب ، كما الحال عند جميل .

وصف ما في نفسه من حب وشوق :

استطاع الشاعر أن يعبر عن هذا الإحساس وذلك الشعور في الأبيات التالية :-

٧. إذا قلت:ما بي يا بثينة قاتلي
من الحب: قالت: ثابت ويزيد

٨.وإن قلت:ردي بعض عقلي أعش به
مع الناس ، قالت : ذاك منك بعيد

٩. فلا أنا مردود بما جئت طالبا
ولا حبها فيما يبيد يبيد

١٠. جزتك الجوازى يا بثين ملامة
إذا ما خليل بان وهو حميد

١١. وقلت لها : بيني وبينك فاعلمي
من الله ميثاق له وعهود

١٢. وقد كان حبكم طريفا وتالدا
وما الحب إلا طارف وتليد

١٣. وإن عروض الوصل بيني وبينهما
وإن سهلته بالمني لصعود
١٤. فأفنيت عيشي بانتظاري نوالها
وأبليت ذاك الدهر وهو جديد

التفسير اللغوي :

٧. **اي إذا قلت لها إن الحب سيقتلني قالت :** إنه باق وسيزيد .

وهذا معنى قوله : ثابت ويزيد .

٨. **ردي بعض عقلي :** صوابي ورشدي ، والمراد الوصال الذي به يحيا بين الناس .

٩. **فلا انا مردود :** أي لم أنل ما طلبت من بعض عقلي ،

يبيد : يفني وينتهي .

١٠. **جزتك :** عاقبك . **الجوازي :** جمع جارية وهي المكافئة المنصفة .

والمعنى : أنه إذا جوزي الأحبة بالثناء عليهم وقت الفراق فليس لك في نفسي إلا العتب واللوم .

والبيت : في الأصل جملة دعائية .

١١. **الطريف :** الجديد وضده التليد .

١٢. **العروض :** الطريق في عرض الجبل .

صعود : مرتفع أو الطريق الشاق .

والمعنى : أن الوصل صعب المنال وإن سهلته بالوعود .

١٣. **نوالها :** قربها ووصلها .

ابليت الدهر : ذهاب العمر بغير وصل .

شرح وتعليق :

بعد أن وقف الشاعر طارقاً أبواب الذكريات والأيام الحلوة الجميلة ، ليخفف وطأة الحب عن قلبه المتيم ، ويسري عن نفسه المملوءة شوقاً وحنيناً يعد ذلك يحدثنا الشاعر (جميل) عما في نفسه من حب وشوق ، ويورد لنا حواراً بينه وبين محبوبته نسجه من خياله السامق ، ليؤنس وحدته وغربته ، ويطفئ نار الشوق المتأججة بين جوانحه .

وهو في هذا الحوار الملتهب ، يحاول إظهار ما يدور بين جنباته من حب قاتل يؤرقه ليلا ونهاراً ، فلا يكاد يحس بطعم الحياة ولا لذة العيش ما دام بعيداً عن محبوبته لا ينال منها وصلا ولا قربا .

وترتفع نبرة الشاعر ، فيصف ما أصابه من جراء هذا الحب ، فنراه وقد ذهب عقله بسبب البعد والفراق ، فجاء يطلب الوصل عله يرجع إلى رشده وصوابه ويعش بين الناس عاقلا رزيناً سعيداً هادئ النفس ساكن اللب.

لكن هيهات هيهات وقد بعدت الشقة بينه وبين بثينة ، فلم ينل منها ما أراد من وصل وقرب ينعم به ، ولا انشغل قلبه عنها وذهب حبها منه فيستريح ، بل ظل مشغول القلب ، شارد اللب ، ولا يملك إلا أن يلوم محبوبته التي أبت أن تمد إليه يد القرب والوصل ، ويذكرها بأنهما قد أخذا على نفسيهما العهد والميثاق أمام الله على اللقاء والمودة والمحبة .

ويرجع الشاعر إلى الحقيقة المؤلمة أنه مهما أعطته محبوبته من وعود وأمنيات بالوصل والقرب إلا أن ذلك صعب محال ؛ ذلك لأنه قد حيل بينها وبين محبوبها . ولا تملك من أمر نفسها إلا هذا القلب النابض بالحب. لذا فقد أفنى الشاعر دهره في انتظار وعدها المزعوم وقضى زهرة عمره في طلب نوالها لكنه عاد بخفي حنين .

الأمل في لقاء بثينة :

يصور الشاعر هذا العنصر قائلا :

١٥. ألا ليت شعري هل أبيــتن ليلــة
بــوادي القــرى إنــي إذا لســعيد
١٦. وهل أهبطن أرضا تظل رياحهــا
لهــا بالثنايــا القاويــات وئيــد
١٧. وهل ألقين سعدي من الدهر مرة
ومارثٌ من حبـل الصــفاء جديــد
١٨. وقد تلتقي الأهواء من بعد يأســة
وقد تطلب الحاجــات وهــي بعيــد
١٩. وهل أزجُرن حرفا عــلاة شــملة
بخــرق تباريهــا ســواهِم ســود
٢٠. على ظهر مرهوب كأن نشــوزه
إذا جــاز هــلاك الطريــق رقــود
٢١. سبتني بعيني جؤذر وسط ربرب
وصدر كفــا ثــور اللجــين وجيــد
٢٢. فمن يعط في الدنيا قرينا كمثلهــا
فــذلك فــي عــيش الحيــاة رشــيد

التفسير اللغوي :

١٥. **ليت شعري :** ليتني أعلم أو أشعر .

وادي القرى : بلادهما شمالي المدينة بالحجاز .

١٦. **الثنايا :** جمع ثنية وهي طريق ملتو في الجبل أو هي الجبل نفسه .

القاويات : جمع قاوية بمعنى الخالية .

وئيد : صوت شديد عاصف .

١٧. **سعدى :** يكني بها عن بثينة . **رث :** بلى وتقطع .

ما : مبتدأ خبره جديد .

١٩. **ازجر الناقة :** أصيح بها لتسرع .

الحرف : الناقة الضامرة أو المهزولة أو العظيمة .

العلاة : الناقة الطويلة . **والشملة :** السريعة .

الخرق : القفر والأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح .

تباريها : تسابقها .

سواهم : جمع ساهمة وهي الناقة الضامرة .

٢٠. **مرهوب :** طريق مخوف .

نشوز : جمع نشز وهو المكان المرتفع.

هلاك الطريق : الذين ضلوه . **رقود :** نيام وهو خبر كأن .

٢١. **سبتني :** أسرتني وسحتني . **الجؤذر :** ولد البقرة الوحشية .

الربرب : القطيع من بقر الوحش .

الفاثور : الجفنة وهي الإناء الواسع . **اللجين :** الفضة .

الجيد : العنق وهو بالرفع على أنه مبتدأ خبره (لها) محذوف .

٢٢. **القرين :** الصاحب والزوج . **رشيد :** موفق .

شرح وتعليق :

استطاع الشاعر (جميل) أن يصور ما في داخله من شوق ومحبة لبثينة وما يعانيه من الهجر والصد وضياع الأمل في اللقاء ، مما جعله يحلم ويتمنى بأسلوب المشتاق المتلهف - المبيت ليلة واحدة في أرض محبوبته ليأنس بها ويسعد بالقرب منها - وإن كان لا يراها تلك الأرض (وادي القرى) التي شهدت أول بذور للحب العذري بينهما ، فما أحلاه من مكان خال إلا منهما ، تعزف الرياح فيه أعذب ألحان الهوى العذري ، فيتم الوصل ويتجدد الحب ، ولم لا وقد يتحقق هذا الحلم وتلتقي الأهواء بعد اليأس ، وهذا يجعله يقطع الفياقي والقفاز من أجل الوصول إلى تحقيق هذا الأمل المنشود، والوصول إلى هذه الجميلة التي سحرته بجمالها أخذته بعيونها الجذابة ، وقوامها المعتدل الرائع ، وكل ما يتمناه أن يسعده الدهر بليلة في هذا الوادي الذي يقطن فيه هذا الجمال الأخاذ ، وتكتمل سعادته ويرتوي ظمأ قلبه بمجرد المبيت دون أن يلتقي بها أو يراها ، فهي في نظره نموذج صالح للمرأة التي جمعت المحاسن كلها في نسبها وخلقها وجمالها ودينها ، ومن يفز بها فقد فاز بالخير كله وعاش في الحياة سعيداً موفقا .

✍ **عودة إلى وصف حبه العذري وجهاده فيه :**

يقول الشاعر مصورا هذا الحب :

٢٣. يموت الهوى مني مـــا لقيتهـــا
ويحيـــــا إذا فارقتهـــــا فيعـــــود
٢٤. يقولون : جاهد يا جميل بغزوة
وأي جهـــــاد غيـــــرهن أريـــــد ؟
٢٥. لكـــل حـــديث بيـــنهن بشاشـــة
وكـــــل قتيـــــل بيـــــنهم شـــــهيد
٢٦. ومن كان في حبي بثينة يمتري
فبرقـــاء ذي ضـــال علـــى شـــهيد
٢٧. ألم تعلمي يا أم ذي الودع أنني
أضاحك ذكـــراكم وأنـــت صـــلود

التفسير اللغوي :

٢٣. **يموت الهوى مني :** يضعف الحب . **فارقتها :** ابتعد عنها.

٢٤. **جاهد بغزوة :** أخرج للجهاد في سبيل الله كي تنسى حبها .

٢٥. **بشاشة :** بهجة وسرور.

شـهيد : الميت لغاية نبيلة كالمجاهد في سبيل الله تعالى .

٢٦. **يمتـري :** يشك .

البرقـاء : أرض غليظـة ذات حجـارة ورمـل وطـين أو كـل شـيء فيـه سـواد وبيـاض وبرقـاء ذي ضـال إحـدى بـرق بـلاد العـرب . يتخـذ مـن مواقفه فيها شاهدا على حبه الشديد .

٢٧. **ذو الـودع :** طفلـها يعلـق عليـه الـودع وقايـة ، وهـو محـار صـغير أبـيض معروف . **صلـود :** بخيلة .

شرح وتعليق :

علم الشاعر أنه لا أمل في لقاء محبوبته والائتناس بها . فراح يصف حاله وما ألم به من وجدٍ وصبابة ، واشتعال الحب بين جوانحه ، ولا يطفئ هذه النار المتأججة إلا لقاء محبوبته ، ثم تعود لتشتعل مرة ثانية بعد فراقها ، فهو لا يستطيع نسيان (بثينة) حتى لو خرج للجهاد كما نصحه إخوانه وأهله ، حتى ينسى هذا الحب الجارف ويري أن الجهاد الأكبر في مجاهدة هذا الحب والصبر عليه ، أو يموت شهيدا في سبيله .

ثم ينتقل الشاعر إلى بيان صدقه وإخلاصه في حبه (لبثينة) فيخاطب من يشك في هذا الحب وذلك الإخلاص بأن يذهب إلى وادي البرقاء ويسأله عن مواقفه مع بثينة في هذا الوادي ، كي يكون دليلاً على حبه وإخلاصه وتفانيه في حب بثينة في بُعدها وقربها ؛ ففي قربها يهدأ القلب وتصفو الروح وفي بعدها وهجرها يعيش الشاعر يخاطب الذكرى الجميلة ويضاحكها ، حتى لو بخلت عليه باللقاء ، فهو يعيش على الذكرى الجميلة ، والأيام الحلوة الخالية .

تحليل ونقد :

تناولنا في الصفحات السابقة شرح بعض من شعر جميل في الحب العذري، ورأينا كيف تلاءمت المشاعر والخواطر مع موضوع واحد ، وتراسلت المعاني وتتابعت الأفكار من أول بيت إلى آخر القصيدة ، لتتلاقى في مجرى واحد يصب في موضوع واحد هو الحب العذري.

وإذا ألقينا نظرة على هذا الحب ، وحقيقته نرى أن الحب له صورتان .

الأولى : حب حسي يفتن فيه الرجل بالمرأة من حيث هي أنثى تحقق له المتعة واللهو وإرضاء الحواس . وفتنة تدفعة إلى طلب الجنس الآخر في عمومه لأنه يري فيه الوسيلة لتحقيق متعته ولهوه وإرضاء حواسه . وعلى ذلك فالمرأة في هذه الصورة ليست غاية للحب ولكنها وسيلة إليه . ولذلك فالمحب بهذا اللون لا يقف حبه عند واحدة بعينها يهب لها قلبه وحبه ومشاعره وإخلاصه ووفاءه . ولكنه ينتقل من واحدة إلى أخرى كما تنتقل النحلة من زهرة إلى زهرة طلبا للرحيق والعطر الفواح . لذا لا نراه يقنع بالشرب من كأس واحدة . وهو لا يطلب الكأس إلا أن تروي ظمأة . ونيل صداه . وتطفئ نار لوعته . فالمرأة نفسها لا تعنيه إلا بقدر ما ينال منها من متعة .

والثانية : حب روحي طاهر عفيف يصدر عن مشاعر راقية متدفقة وعاطفة نبيلة صادقة وصبابة عنيفة مبرحة . ويقوم على الإخلاص الشديد ويميل إلى المبالغة غير المقبولة أحيانا في التفاني والضراعة . ليعبر عن فطرة سليمة ونزعة إنسانية مهذبه .

كما أنه حب يتعلق فيه العاشق بمحبوبة واحدة . يري فيها مثله الأعلى الذي يحقق له المتعة الروحية . ورضا النفس . واستقرار العاطفة . وهو استقرار يجعل فتنته بواحدة تقف عندها آماله . وتحقق فيها كل أمانيه . فالمرأة عنده هي هدفه الذي يطلبه . والغاية التي يسعى إليها . والأمل الذي يرتجيه . والمعبود الذي يقضي عمره في محراب حبه . ويوقد له الشموع . ويحرق البخور . مثله مثل الفراشة التي تتهافت على النور ولا تزال تحوّم حوله حتى تحترق بناره. فالمحبوبة عنده هي الكأس التي يقضي حياته ظامئاً إليها لا يعدوها إلى غيرها. ولا يتجاوزها

إلى سواها، لأنه لا يطلب الريّ في أي كأس . ولكنه يطلبه في كأس بعينها هي تلك التي تعجبه وترضيه [1].

والحقيقة التي لا جدال فيها أن العرب قديماً عرفوا هاتين الصورتين من الحب . (العذري والحسي الفاحش) فكل من يقرأ الغزل الجاهلي ويتتبع الحياة الاجتماعية في هذا العصر يستطيع أن يتبين الاتجاهين الأساسيين من اتجاهات الحب .

فإلى جانب امرئ القيس والأعشي وأضرابهما ممن يمثلون الاتجاه الحسي في الحب . عرف المجتمع الجاهلي في باديته ومدنه طائفة من الشعراء يمثلون الاتجاه العذري العفيف . وأطلق عليهم لقب (المتيمين) تمييزاً لهم عن سائر الشعراء وربطوا بين كل ميتم وصاحبته كما كان الحال عند العذريين في العصر الأموي : فالمرقش الأكبر وأسماء والمرقش الأصغر وفاطمة وعبد الله بن العجلان وهند وقيس بن الحدادية ، ونعم وعبد الله بن علقمة وحبيشة ومالك بن الصمصامة وجنوب، وعمرو بن كعب وعقيلة ، وعنترة وعبلة .

وهذا يعطينا إشارة إلى أن الحب العذري لم يأتي من فراغ . أو لم يكن نتاجا أمويا خالصا وإنما كانت له جذوره الممتدة في العصر الجاهلي . لكنه لم تتحدد معالمه . ولم تكتمل صورته وعناصره الفنية والخلقية . ولم يظهر في قصائد مستقلة تحققت فيها الوحدة الموضوعية . إلا في العصر الأموي . بعد أن استقام الأمر لبني أميه واستقرت لهم دولتهم الجديدة ومع هذا الاستقرار تميزت صورة الحب العفيف لسمات معينة واتخذت لها طابعا خاصا اكتسبت اسما جديدا عرف باسم " الحب العذري " نسبة إلى قبيلة بني عذرة ، وفي أرجاء البادية العربية

١- أنظر : الحب المثالي عند العرب . د / يوسف خليف .

ظهر عشاق عدوا النماذج الصحيحة لهذا الحب والمثل العليا له بكل سماته المميزة، وطوابعه الخاصة . فأطلق عليهم أسم العذريين نسبة إلى هذا اللون من الحب .

كما أن الإسلام كان سببا في أن يصبح هذا اللون من الحب اللون الأول في لوحة الحياة البدوية الإسلامية . فالإسلام هو الذي حال بين عرب البادية وبين ألوان الحب الأخرى الحسية . فلم يجدوا لعواطفهم متنفسا إلا في هذا الحب العفيف الذي لا يحرمه الإسلام ولا ينكره .

والقصيدة التي بين أيدينا لشاعر من أكبر الشعراء العذريين الذين أبدعوا في هذا المضمار، وعبروا تعبيرا صادقا للفطرة الإنسانية الصافية . استجابة فعلية لتناقضات مذهبية . وتوازنا روحيا وإسلاميا وخلقيا بين الصراعات السياسية والمبالغة والإسراف المادي والترفيهي واللاهي العابث. فكان الحب العفيف وأصحابه الوجه الأخر للصراع السياسي الدائر بين شعراء الأحزاب السياسية من شيعة وخوارج وزبيريين والحزب الأموي الحاكم، فترفع بعض الشعراء عن الخوض في هذه التيارات السياسية ليتغنوا بالحب الطاهر العفيف . مجردا عن الأهواء والشهوات والملذات والإسراف المادي ؛ للتعبير عن الخلق السامي . والروحية الصافية المهذبة [1] .

١- انظر الأدب الاسلامي بين النظرية والتطبيق ج٢ / ٥٤ ، د / على صبح .

القيم الموضوعية والشكلية :

أولاً : من حيث الموضوع :

أشرنا فيما سبق إلى أن موضوع القصيدة هو الحب العذري الذي شاع في العصر الأموي واشتهر به كثير من الشعراء أمثال جميل ، الذي استطاع أن يخاطب قلوب المحبين بأشعار مطبوعة بأريج من الحب الصادق النبيل ، ولهيب من العواطف الجياشة والأحاسيس المتأججة التي تذوب لها حشاشات القلوب ، كما جاء مطبوعا بجملة من القيم العذرية التي تتسم بالعفة والطهارة وتتعالى فيها صيحات الروح وحسن الخصال على نداء الغريزة ومطالب الجسد ، وما ذلك كله إلا من ينابيع الفروسية النبيلة التي كانت تتحلى بها القبائل العربية قديماً وبخاصة قبيلة (عذرة) التي نسب إليها هذا الحب.

والقصيدة التي بين أيدينا تعد مرآة صافية لحياة الشاعر ، ودليلاً فنياً على صدق فنه ورقته لما تجسدت فيها من ملامح الحب العفيف الطاهر وتوارت فيها القيم الإسلامية الراقية ، وذخرت بها من قيم عصره وزمانه ، فكانت بذلك نموذجا راقيا تتجلى فيه عذرية الشاعر ومقومات فنه فما مظاهر ذلك كله ؟

١- الملامح العذرية :

استطعنا فيما سبق أن نضع أيدينا على مفهوم الحب العذري . ولكي يكون الحب أو الغزل بهذه الصفة لا بد لها من ملامح تظهر في عمل الشاعر وتجربته التي يعانيها ويصوغها شعراً . وتجسد القيم النبيلة في الغزل مثل العفة ووحدة المحبوبة. والحرمان من وصلها ، والإخلاص لها والوفاء بعهدها ، والأمل في وصلها ولقائها ، وكلها سمات عذرية اكتنفت علاقة المحبة المتبادلة بين جميل وبثينة .

وبخاصة إذا عرفنا أنه شاعر عربي أصيل تربي على أخلاق الفروسية العربية الأصيلة وتحلى بأخلاق الفوارس النبلاء من الشجاعة والكرم والمروءة والاعتداد بالنفس والذود عن المرآة وحمياتها ، وكلها صفات خلقية اكتسبها شاعرنا (جميل) من منابعها الأصيلة من البيئة العربية .

ومن ثم وجدت عاطفة المحبة والغزل العذري مناخاً طيباً وتربة خصبة لنموه وازدهاره وتعدد ملامحه وصوره في القصيدة .

فمن أقواله التي تتجسد فيها الملامح العذرية وتبرهن على حبه الذي يكتمه بين جوانحه .

خليلي ما أخفي من الوجد ظاهر

ودمعي بما أخفي الغداة شهيد

وقسمه على صدق حبه في القرب منها أو البعد عنها وازدياد عبرته وحزنه إذا فارقها :

ألا قد أرى والله أن رب عبرة

إذا الدار شطت بيننا ستزيد

وقوله يبرهن به على تألمه وشدة وجده وصبابته ، وتأجج الحب بين جوانحه:

إذا قلت : ما بي يا بثينة قاتلي

من الحب قالت : ثابت ويزيد

ومن الملامح العذرية أيضاً قوله يبرهن به على شدة حرمانه ولوعته لفراقها وصعوبة وصلها :

وإنّ عروض الوصل بيني وبينها

وإن سهلته بالمني لصعود

وقوله يبرهن به على أمله الدائم في لقائها ومعاودة وصلها من جديد والتنعم بالصفاء والهناءة كما كان في سالف عهده، ويبرهن به كذلك على إخلاصه في حبه لها وعدم العدول عنه إلى غيرها.

ألا ليت أيام الصفاء جديد
ودهراً تولى يا بثين يعود
*****
فأفنيت عيشي بانتظاري نوالها
وأبليت ذاك الدهر وهو جديد
*****
وهل ألقيت سعدي من الدهر مرة
ومارث من حبل الصفاء جديد
وقد تلتقي الأهواء من بعد يأسة
وقد تطلب الحاجات وهي بعيد

ومن الملامح العذرية في القصيدة قوله يبرهن به على صدق حبه ومجاهدة نفسه فيه ورده على المشككين في هذا الحب وذاك الطهر:

يموت الهوى مني إذا ما لقيتها
ويحيا إذا فارقتها فيعود
يقولون جاهد يا جميل بغزوة
وأي جهاد غيرهن أريد
*****
ومن كان في حبي بثينة يمترى
فبرقاء ذي ضال عليّ شهيد

ومـن أقوالـه الشـاهدة علـى عذريتـه والاعتـداد بمحبوبتـه وتمجيـدها وإثبـات أنها خير قرين :

فمن يعط في الـدنيا قرينـا كمثلهـا
فذلك فـي عـيش الحيـاة رشـيد

وهكـذا تـوافرت في القصـيدة ملامـح عذريـة الشـاعر وعفتـه وطهارتـه الـتي تشـهد علـى إخلاصـه في حبـه وتفانيـه وتهالكـه في صـبابته . وهـذا لا يتنـافى مـع شـهامة العربـي ورجولتـه وفروسـيته . فكمـا كـان يعتـد برجولتـه وقوتـه وشـجاعته في ميـدان الحـرب والقتـال . كـان يعتـد كـذلك بخضـوعه واستسـلامه لسـلطان المحبـة والهـوى والغـرام . وقـد استحسـن النقـاد هـذا الأمـر وبخاصـة في ميـدان الغـزل العـذري ومـن ذلـك قـول ابـن قدامـه مشـيراً إلى ذلـك : " يجـب أن يكـون النسـيب الـذي يـتم بـه الغـرض هـو مـا كثـرت فيـه الأدلـة علـى التهالـك في الصـبابة، وتظـاهرت فيـه الشـواهد علـى إفـراط الوجـد واللوعـة . ومـا كـان فيـه مـن التصـابي والرقـة أكثـر ممـا يكـون مـن الخشـن والجـلادة . ومـن الخشـوع والذلـة أكثـر ممـا يكـون فيـه مـن الإبـاء والعـزة . وأن يكـون جمـاع الأمـر فيـه مـن الإبـاء والعـزة . وأن يكـون جمـاع الأمـر فيـه مـا ضـاد التحـافظ والعزيمـة، ووافـق الانحـلال والرخـاوة، فـإذا كـان النسـيب كـذلك فهـو المصاب به الغرض " [١] .

كمـا ينبغـي الإشـارة إلى أمـر هـام وهـو ورود بعـض الأوصـاف الحسـية لبثينـة في القصـيدة وهـذا لا يتنـافى مـع عفـة الشـاعر وطهارتـه وعذريتـه في حبـه، لكنهـا صـورة تتفـق مـع إجلالهـا وقدسـيتها ومنزلتهـا في قلبـه . كمـا أنهـا دليـل علـى تعلقـه بهـا . فهـو قد تعلق بجمال روحها وحواسها .

١- نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ١٣٤.

ومن ذلك قوله :

سبتني بعيني جؤذر وسط ربرب
وصدر كفاثور اللجين وجيد

فهذه أوصاف حسية ، ولكن الشاعر لا يقصدها لذاتها ، وإنما لما تركته في نفسه من أثر طيب جعله يتعلق بها جسما وروحاً ، دون أن يعرضها في صورة من الفحش والابتذال ، ومن ثم يتأتي لنا وصف رائع لجمال محبوبته - كما يراها في عينيه - في صورة تجمع بين جمال الروح والجسد .

وهذا ليس معناه أن يتمادى الشاعر العذري في وصف محبوبته وصفاً حسياً مبتذلاً ، وإلا لا يتسم بالعذرية والعفاف.

٢- القيم الخلقية والدينية :

كان للإسلام وتعاليمه السمحة الراقية الأثر الكبير في تأصيل الحب العفيف وانتشاره ، ذلك لأن الإسلام دعا إلى ترسيخ القيم السامية ، والتحلي بالأخلاق الفاضلة ، ولما كان الحب العذري أساسه التعاطف الروحي والوجداني ، فقد أقره الإسلام ، وازداد الشعراء تمسكا بتعاليم الإسلام ، ووجهوا عواطفهم وأحاسيسهم نحو مظلة الإسلام وتعاليمه السمحة ، كما جاءت أشعارهم في هذا الاتجاه مشتملة عل كثير من القيم الخلقية والدينية ، حتى صار هذا منهجاً في النسيب والغزل ، سار عليه شعراء الحب والنسيب في الشعر العربي والإسلامي في كل العصور الأدبية ، حتى يرى بعض النقاد أن الحب الإلهي انطلق من هذا الفن ،

وأصبحت صوره وأعلامه ومعالمه رموزا ومصطلحات وصوراً في الأدب الصوفي بعد ذلك عند سلطان العاشقين ابن الفارض وغيره [1].

وقد اشتملت القصيدة على كثير من القيم الخلقية والدينية منها :

التعاطف الروحي المجرد من الشهوات والملذات . ذلك لأنه لا يبغي من ورائه المتعة الحسية والجسدية الغانية بغناء وقتها . بل يرمي المحب إلى الصفاء الروحي والتعاطف الوجداني . الذي يملأ النفس اطمئنانا . ويشع جواً مليئاً بالطهر والعفاف وقد تجسد هذا المبدأ السامي وتلك القيمة الروحية العالية . في قول الشاعر جميل :

ألا ليت أيام الصفاء جديد

ودهراً تولى يا بثين يعود

فهو هنا لا يطلب إلا ذلك الصفاء الروحي المجرد من الشهوات والملذات الفانية . وهذا مبدأ سام يرفع من علاقة الرجل بالمرآة . كي لا تكون قائمة على النفع المادي الفاني .

التعلق بالذكريات الجميلة . وأحاديث النجوى الطاهرة . ذلك أنها خلق إسلامي يدل على الوفاء وعدم الجحود والعرفان بالجميل ومن ذلك قوله :

وما أنس ملأشياء لا أنس قولها

وقد قربت نضوي أمصر تريد ؟

ولا قولها : لولا العيون التي ترى

أتيتك فاعذرني فدتك جدود

١- انظر الأدب الإسلامي ج٢ / ٥٥ د / علي صبح .

كما نلحظ في البيت الثاني خلقاً سامياً هو خلق الحياء الذي هو شعبة من شعب الإيمان بالله عز وجل . والحياء والإيمان مقترنان إذا ارتفع أحدهما ارتفع الآخر . ومن لم يستح من الناس لا يستحي من الله عز وجل .

الدموع والعبرات دليل على رقة القلب . وهي رحمة ينفس بها الإنسان عن نفسه ويذهب بها بعضا من نار الوجد . ويتصبر بها على بلائه . ولنا في رسول الله الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة ، حيث بكي النبي ﷺ ولده إبراهيم . فتعجب بعض الصحابة من بكائه فرد عليهم ﷺ قائلاً : " إن العين لتدمع . وإن القلب ليحزن . وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزنون وإنها رحمة ولا نقول إلا ما يرضي ربنا " .

وقد تجسد هذا الخلق الرفيع وتلك القيمة الروحية في قول (جميل) معبراً عن تألمه لفراق محبوبته وإنهمار الدموع من عينيه :

خليلي ما أخفي من الوجد ظاهر
وتدمعي بما أخفي الغداة شهيد
ألا قد أرى والله أن ربَّ عبرة
إذا الدار شطت بيننا ستزيد

من القيم الخلقية النبيلة التي اشتملت عليها القصيدة ، المشاركة الوجدانية في المشاعر والأحاسيس الإنسانية الفياضة بالحب . وهذه قيمة إسلامية فإذا بادرك إنسان بمشاعر الحب والود لزم أن تبادله هذا الشعور وتصرح له بذلك . وبخاصة إذا كان حبا مبرءاً من الغرض الزائل . والمجرد عن الشهوة الفانية . وفي الحديث النبوي الشريف :

" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه "

ومن ثم كان تبادل المشاعر الوجدانية من القيم الإسلامية التي حث عليها الإسلام ورغب فيها ، ونفر من التقاطع والتدابر والحقد والحسد والبغض ، وتمثل هذا المبدأ السامي في قول جميل :

إذا قلتُ : ما بي يا بثينة قاتلي
من الحب قالت : ثابت ويزيد
وإنْ قلتُ: ردي بعض عقلي أعش به
مع الناس ، قالت : ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جئت طالبا
ولا حبها فيما يبيد يبيد

من القيم التي اشتملت عليها الأبيات الوفاء بالعهد ، ورعاية المواثيق ، ونحن نعلم أن هذا الأمر من مبادئ الإسلام السامية التي حث عليها القرآن الكريم، والسنة النبوية ، يقول الله عزوجل آمراً بالوفاء بالعهد :

﴿ ... وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (1)

وقول الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ... ﴾ (2)

ويقول سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (3)

١- سور الإسراء : من الآية ٣٤ .
٢- سور المائدة : من الآية ١ .
٣- سور النحل الآية ٩١ .

ويقول عز وجل :

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾ [1]

ويقول الرسول ﷺ :

" آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان "

ومن هذا المنطلق ومن تلك القواعد الثابتة انطلق جميل وراح يذكر بثينة بذلك العهد المبرم بينه وبينها والله شهيد عليه ، ليكون أدعى للوفاء به وعدم نقضه. يقول جميل :

وقلت لها : بيني وبينك فاعلمي
من الله ميثاق له وعهود
وقد كان حبكم طريفا وتلدا
وما الحب إلا طارف وتالد

وهكذا اشتملت القصيدة على مجموعة من القيم الخلقية والدينية ، التي تنم عن ثقافة الشاعر الدينية التي تربى عليها ، فهذبت من سلوكه ورققت حواشيه وجوانحه ، وكانت تمثل سياجاً يحميه من الانفلات نحو الغزل المكشوف المبتذل .

ثانياً : من حيث الشكل :

الشعر له رسالته الفنية الخطيرة في تجارب الحياة والمجتمع ، بل فاعليته المؤثرة في البناء والهدم ، والسمو والانحطاط ، وذلك من خلال الأثر الفني والشعوري الذي يكون مادة أساسية في التأثير على المتلقي ، والتعامل المباشر مع مشاعره وأحاسيسه ، وبالتالي تطويعها ، وتشكيل مزاجها سلبا أو إيجاباً ، ولم يكن

١- سور الرعد : الآية ٢٠ : ٢١ .

للشعر - عامة - من فضل في هذا التأثير إلا عبر عناصر فنية يتشكل منها الأسلوب، تغدو مقوما أصيلا في تشكيل القالب الفني للأداء والتعبير، ومقوما فنيا أصيلا - كذلك - في تحقيق القوة التأثيرية للتجربة فيما تحمل من مضامين وفيما تعالج من موضوعات .

وتتعدد هذه العناصر الفنية التي يتشكل فيها القالب الأسلوبي من لغة وعاطفة وخيال وموسيقى ، تغدو كلها لبنات أساسية في تجسيد الأفكار، والألوان الشعورية ، وما تكنه النفس من مكبوتات ودفائن .

وحينئذ تكون شاهدة عيان على شاعرية الشاعر؛ إذا تحتاج هذه المواد - في تحقيق أثرها الفني في التنسيق بينها ، واستغلال إيحاءاتها للتمكين من إنشاء قالب أسلوبي فني ، يتضمن السمات الفنية الحية والرصانة والقوة والمتانة .

ولم يكن ثمة شيء قد مكن الشعراء من توظيف أحاسيسهم ومشاعرهم في نقل الجوانب الإنسانية وغيرها سوى مهارتهم في التعبير الفني المحكم بهذه العناصر الفنية للأسلوب .

والقصيدة التي بين أيدينا اشتملت على كثير من القيم الفنية ، ونحن بصدد تفنيدها .

١- الصورة والأخيلة :

والصورة من الأمور التي يرتكز عليها الشعر، فهي المعرض الذي يعرض فيه الشاعر أفكاره وخواطره ، كما أنها تتلون بعاطفته وانفعالاته ، وتتكون من الكلمات والعبارات في نسق يخطط له الأديب في اختيار نقطة البداية ولحظة

النهاية . وفي اختيار اللغة المناسبة والوزن القادر على الإيحاء بالعاطفة الموفقة التي يدل تكرار الصوت فيها أو تنوعه على حالة نفسية مقصودة [1] .

إذن فالصورة عبارة عن أجزاء تحتاج إلى مصور بارع ليجمع شتاتها، وينسق ألوانها حتى تكون معبرة وموحية عن خواطره وأفكاره وتجربته . ولا يأتي هذا إلا من خلال تناول الموضوع والسير فيه عن طريق الكلمات والعبارات . التي هي من أهم مكونات الصورة لما تؤديه من دور بارز في الإيحاء عن نفسية الشاعر ، لكنه المسئول عن تنسيقها وتنظيمها ، وضبط إيقاعاتها مع الجو الشعوري الذي يريد أن يرسمه ، وألا يقف بها عند الدلالة المعنوية الذهنية .

ولهذا لا ينبغي للشاعر أن يقف على المدلول القاموسي للفظة وحسب بل يخرجها منه إلى معنى أرحب وأوسع وأجمل ، ووضعه في مكانه المناسب من العبارة لتكون اللفظة رهينة الأصوات الموسيقية التي تتألف في تركيبها ولتعطي صورة واضحة متناسقة الألوان والظلال ولكي تكون الصورة باهرة رائعة . ينبغي أن يصاحبها شيء من الخيال ليجمع بين أجزائها وينظمها ، ويوفق بين ما يكون فيها من متناقضات عن طريق رؤية الوحدة الباطنة المختفية وراء هذه المتناقضات . فإذا المتفرق في الطبيعة يصبح متكاملا موحدا لتكون ذات تأثير إذ إن قوتها تتمثل في الإيحاء بالأفكار عن طريق الصور المدعمة بشيء من الخيال بعيداً عن الأفكار المجردة أو المبالغة .

وعلى هذا الأساس فالصورة : عبارة عن قالب له أجزاء يصب فيه الشاعر أفكاره وخواطره ويلونها بألوانها المناسبة ، وينظم أبعادها ، ووسيلته في ذلك الألفاظ والعبارات وشيء من الخيال . أو هي أداة الشاعر الفنية يعبر عن تجربته .

---

١ - انظر مقدمة في النقد الأدبي . محمد حسن عبد الله ص ٢٤٠ .

ويرسم مشاهد من حياته وواقعه ، قوامه الكلمات وما يحدثه بينها من علاقات يبتكر بها دلالات جديدة غير مباشرة يبني بها عالما متميزاً جديداً يجمع فيها بين عناصر متباعدة ، في إطار من الانسجام والوحدة ويصور المعنى تصويراً جمالياً ، ويخاطب المشاعر .. ويدع للخيال حرية التخيل حول الصورة المشكلة .

والصورة الرائعة هي التي يصل الشاعر من خلالها إلى قلوب الآخرين ، ويؤثر فيهم ، والتجربة الشعورية للحب العذري من أقوى التجارب الأدبية ، وأبلغها غاية في الصدق الفني الذي يقوم على التلائم بين المعاناة في مشاعر الحب الهادر ، ووجدانه القوي ، وبين عناصرها من العاطفة والمشاعر الروحية والخواطر وأدواتها في التصوير من الألفاظ والأساليب والصور المستمدة من الحقيقة والخيال وروافد الموسيقي المختلفة ، لذا فقد رأينا الشاعر (جميل) يبرهن على رقة مشاعره ومعاناته في الحب ، بدخوله في الغرض الأصيل للقصيدة وهو الحب العذري دون أن يقدم لها كما اعتاد معاصروه من الشعراء ، وقد عمد جميل إلى هذا النهج الفني نتيجة لاحتشاد مشاعره وشاعريته بوابل من زفرات الوجد المكبوتة بلهيب الشوق إلى محبوبته ، ومن ثم فهو ليس في حاجة إلى مقدمة طويلة يتوسل بها إلى ذكر صاحبته ، وإلهاب مشاعره وحشد شاعريته نحوها كما أعتاد كثير من الشعراء قبله بل هو في حاجة ملحة إلى التنفيس عن عواطفه وجراحه المكلومة ، عله يجد من خلاله متنفساً يريح به قلبه ، ومن ثم قصد إلى ذكرها والحديث عنها في عجالة مباشرة .

ومن هذا المنطق فإن هذا النهج الفني سرعة الولوج إلى موضوع القصيدة ومباشرة الحديث فيه يكاد يمثل عاملاً وخاصية مشتركة عند شعر الحب العذري .

ولعل أبرز دليل على صحة هذا الرأي تلك البداية الرائعة التي بدأ بها جميل هذه القصيدة حيث يقول :

ألا ليت أيام الصفاء جديد

ودهراً تولى يا بثين يعود

إذْ قصد إلى مخاطبة صاحبته في تلقائية ولهفة وتطلع إلى أيام الصفاء والنقاء والطهر والعفاف وتزداد تلقائية الشاعر وبراعته في استهلاله لغرضه دون واسطة أو مقدمة ، من مخاطبته لمحبوبته بقوله (يا بثين) ، فقد حدد حاجته وسؤاله ورجاءه ، وهذه صورة تبعث على الإعجاب بشاعرية جميل. وحسن استهلاله لهذه القصيدة وتمكنه من أدوات فنه .

ومن الصور التي أسهمت في إظهار المعنى ، والتعبير عن مكنون الشاعر ، والإفصاح عن مراده . قوله في البيت الثالث :

وما أنس من الأشياء لا انس قولها

وقد قربت نضوي أمصر تريد

فهو يوحي بأن بثينة قد أخذت منه كل شيء وسلبت عقله ولبه حتى عاد لم يتذكر شيئاً إلا شيئاً واحداً هو قولها " أمصر تريد " وفي هذا إيحاء باستمرار الحب بينهما ، لكنها تستفهم وتستنكر الفراق والاغتراب الذي يؤجج الحب ويزيد حرارة الشوق والحرمان .

كما أن في البيت صورة أخرى قوله " قربت نضوي " حيث يصور ذلك الحياء الذي يملأ قلب بثينة ونفسها وهو من سمات الحب العذري القائم على الطهر والعفاف ، فهي لا تصرخ بما يدور في نفسها من خوف ولهفة على فراق محبوبها ، لكنها اقتربت منه كي تهمس في أذنه ، فالصورتان نابعتان من

الحقيقة . فهي - في نظره - لا تسأل بالإستفهام عن سفره إلى مصر . فهو أمر مقرر وحقيقة واقعة . وإنما تصور لوعة الفراق وآلام الغربة ومرارة الابتعاد .

وثمة صورة في البيت الرابع . تبرز كذلك - حياء محبوبته وعفتها وخوفها من الوشاة والحساد لذلك فهي لا تستطيع توديع محبوبها . وحتى لا يظن بها محبوبها التقصير . بل هي في حالة من الخوف والحياء معاً خوف من عيون الحساد والوشاة . وحياء من أن يراها أحد لذا فإنها تقسم له بأنها غير مقصرة وأنها تفديه بنفسها وروحها . بل بأبائها وأجدادها . دليلاً على إخلاصها ومحبتها.

وأما قوله : " فيما يبيد يبيد " فهو صرخة الشاعر الذي لا يملك الفرار من لوعته العاتية لأن المقادير نزهتها عن الفناء . كما نلمح هذا التجانس في الإيقاع من حيث اللفظ والتناسق في التقابل بين المعنيين وهو إيقاع موسيقي أيضاً . فالمعنى الأول يغاير الثاني رغم هذا التجانس اللفظي . وهذا يعطي نغماً موسيقا يدل على موهبة الشاعر في التصوير . وإبراز معالم الحب العذري وسمات الغزل العفيف .

وفي الأبيات الخامس عشر وحتى الثامن عشر . صور أدبية متراكبة ومتنوعة فالاستفهام في " ألا ليت شعري " يعطي صورا متلاحقة مثل صور العرض . للأسلوب الإنشائي وبين الوصل والمنع إلى حد " التعذر " أو اليأس القاتل .

وكذلك الاستفهام في قوله : " وهل أهبطن أرضا " يصور الرجاء والتحسر والدعاء والصراع العنيف والخوف من عوائق الطبيعة كالسهول والوديان والجبال . والعواصف والرياح والأنواء والأمطار . فمظاهر الطبيعة تشاركه الثورة والصراع

والعنف وهي من سمات المشاركة الوجدانية بين الشاعر وبين الطبيعة ومظاهر الحياة والكون .

والاستفهام الثالث : " وهل ألقين سعدي " يصور النفي والإنكار والخوف من الوشاةُ ثم الرمز بـ" سعدي " عن بثينة حفاظا عليها أو حماية لها من أهلها ، أو مراعاة للتقاليد والعادات عند العرب ، أو سيرا على نهج الشعراء وفي التكنية عن أسم محبوبتهم الحقيقي بسعدي أو بليلي وغيرها من الصور التي تتزاحم حول هذا الرمز الغزلي .

ثم تنتهي القصيدة إلى قمة التصوير الأدبي للمبالغة في قمة الحب العذري الطاهر، لتكون كالحكم القضائي والنتيجة الحتمية لهذه التجربة الشعورية في الحب العفيف الصادق . وذلك في تصوير مكابدة الحب، والعاناة فيه،والجهاد في الحفاظ عليه. وتقويته ومقاومة الصراعات والتيارات من حوله،حتى يتحقق له إحدى الحسنيين ؛ إما الزواج والتمتع بالحديث العذب وإما أن ينال الشهادة في سبيل الحب العفيف . يقول جميل بثية :

يقولون : جاهد يا جميل بغزوة
وأي جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشة
وكل قتيل بينهن شهيد

٢- الألفاظ والتراكيب :

الألفاظ والكلمات تلعب دورا بارزا في الشعر إذ إنها تساعد على بعث صور إيحائية . وفي هذه الصور يعيد الشاعر إلى الكلمات قوة معانيها التصويرية الفطرية في اللغة .

ومن ثم عندما يتخذ الشاعر لنفسه كما ضخما من الكلمات التي يخدم أو يعرض بها موضوعا ما يجب أن تكون هذه الكلمات ملائمة ودالة على المعنى الذي يسوقه ، إذ يساعدنا هذا على معرفة الشاعر ونفسيته ، وذلك من خلال نوعية الكلمات التي يكثر دورانها في شعره . إذ إن ما يعبر الكاتب عنه حقا هو طبعه وشخصيته العميقة وما يفضله وما ينفر منه ، ومظهره ، ونمط حياته ونفوذه واتزانه وحيويته وفتوره ، وهذا ما يعبر عنه إن كان يقدم بياناً حقيقياً باهتماماته الخاصة .

ويتجاور مع هذا العنصر عنصر آخر له أهميته ، وهو العاطفة ، ومن خلالها يندفع إلى الشاعر الكشف عما يعتمل في نفوسنا ، أو خبايا الكون استجابة لهذه العاطفة وفي لغة هي صور ، ولذا فإن اختيار الشاعر لكلمات معينة يرجع لأسباب نفسية ، أو لاتجاه شعري ، إذ أن لغة الإنسان جزء من تركيبته النفسية ، وإن انتقاءه للكلمات والمفردات يعتمد على طبيعة ما يريد الإفصاح عنه من داخل تكوينه الذاتي ، ومما ترسب في أعماقه .

ومن هذا المنطلق فقد اتسمت القصيدة بالسهولة والوضوح في ألفاظها ومعانيها في إيحاء تام وجلاء بين ، وهي سمة فنية تكشف عن قدرة الشاعر وتمكنه من أدوات فنه ، وتنم عن ثقافته الفنية ودرايته بألفاظ اللغة ومعانيها ، لذا نراه يعمد إلى المعاني المركبة فتسلس له وتذوب رقة وسهولة فإذا هي مجلوة واضحة يدركها المتلقي دون عناء أو تعب ، ويرجع ذلك - كما أشرنا من قبل - إلى قوة العاطفة ونوعيتها ، والشاعر هنا شديد الشغف بمحبوبته فهمي تفكيره وحواسه ومشاعره وحبه الذي ينصرف إليه بفكره وفنه . ويسخرهما لخدمة هذا الغرض وتلك العاطفة الجياشة ؛ لذا نراه لا يجهد نفسه وراء المعاني البعيدة أو الخيال

الجـامح ، ولا يتكلـف الألفـاظ العربيـة المتقعـرة ، وإنمـا ينسـاق بشـاعريته وعاطفتـه وفـيض حبـه إلى المعـاني الرقيقـة والتراكيـب السـهلة الـتي تـوحي بمكنـون نفسـه وتـنم عن مراده وتفصح عن تجربته دون عناء أو مشقة.

ومـن ثـم فالنـاظر إلى المعجـم اللفظي للشاعر في هـذه القصـيدة ، يـرى كمـاً هـائلاً وسيلا منهمراً مـن كلمـات الحـب ، والوصـال الـتي تـدل عمـا في نفسـه مـن حـب وعشـق وهيـام مثـل : الوجـد والـدمع ، عـبرة ، الحـب ، حـبكم ، الوصـل - نـوال - سـعيد - سـعدي - الصـفاء أهـواء إلى غـير ذلـك مـن الكلمـات الـتي تـوحي وتعطـي دلالـة علـى حبه وصدقه فيه .

كمـا أن هنـاك كمـاً مـن الألفـاظ الـتي تـوحي بمعاناتـه وتألمـه مـن البعـد والفـراق وقلـة الوصـال ، ومـن ذلـك : ألا ليـت ، تـولى ، يعـود ، فـنغني كمـا كنـا نكـون - ومـا أنسـى، لا أنسـى قولهـا ولا قولهـا : لـولا العيـون .فاعـذرني - فـدتك جـدود - خليلـي مـا أخفـى - قـاتلي - ردي بعـض عقلـي - بعيـد ، فـلا أنـا مـردود ، صـعود ، أفنيـت عيشي - أبليـت ذاك الـدهر - هـل أبـيتن ليلـة - هـل أهـبطن أرضـاً - هـل ألقـين - هـل تلتقـي إلى غـير ذلـك مـن الألفـاظ والتراكيـب الـتي تـدل علـى معاناتـه وتـأجج صـبابته وحرمانه ، وانتظار الوصال لم يحظ به .

وهكـذا أسـتطاع الشـاعر أن يـبرز ملامـح تجربتـه وحبـه نحـو محبوبتـه ، وكـذلك معاناته وعفته وطهره في هذا الحب .

كمـا ينبغـي الإشـارة إلى أن القصـيدة اشـتملت علـى بعـض الألفـاظ الـتي تـنم عـن ثقافاتـه الإسـلامية ، مثـل : صـديق ، الله ، حميـد ، ميثـاق ، عهـود ، والبيـت الثالـث عشـر كلـه حيـث يعلـم أن بثينـة ليسـت زوجتـه وإنمـا هـي في عصـمة رجـل آخـر

وهـذا خلـق إسـلامي . ومـن الألفـاظ الدالـة عـن ثقافتـه الإسـلامية أيضـاً : قـرين - رشيد - يموت - يحيا - جاهد غزوه - جهاد وحديث - قتيل - شهيد .

ولم ينس الشاعر أن يمتاح من الطبيعة ما يعبر به عن جزء من تجربته مثل أرض .. رياح جؤذر ، الثنايا .

وهكذا استطاع الشاعر أن يعبر عن تجربته في الحب العذري من خلال القيم الموضوعية والفنية التي وظفها في هذه القصيدة لتكون الركيزة التي يركز عليها في إخراج هذه التجربة من أعماق قلبه ووجدانه .

الخطابة في العصر الأموي

اما الخطابة في العصر الأموي فقد تهيأ لها من أسباب النهضة والنمو والسعة والازدهار من البيئة السياسية والاجتماعية ما زاد في أفقها ونوع في أغراضها ، وأنضج أسلوبها .

فقد أتيح لها حرية القول ، وهي الدعامة القوية ، والرفد العظيم الذي يمدها بالري والحياة .

ومتى أستطاع الخطيب أن يعبر عما يجول بنفسه ، ويحوك في صدره، ويدلي بما له من رأي في السياسة ، ويدعو لما يدين به من مذهب ، لا تهدده سطوة ، ولا تتوعده قوة ، يدعم بالدليل ما يعتقده ، ويفند بالحجة ما لم يؤمن به ، فهو صاحب الخطب الموصولة والبيان الجهير .

وإذا كان الإسلام قد كفل للناس الحرية فيما يقولون ، ولم يحجر عليهم فيما يدينون به بعد أن تبين الرشد من الغي فإن (معاوية بن أبي سفيان) حين قال: (إن لم تكن إلا حكمة يشتفي بها مشتف جعلتها تحت قدمي ودبر أذني إنا لا نحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا) ، قد مد في حبل هذه الحرية ، وأراح صدور الناس بما وفره لهم من الأمن على أنفسهم حين تنطلق ألسنتهم بكل ما يذهبون إليه من رأي أو مذهب .

وقد كان (معاوية) من الحجي والحكمة وسداد الرأي بمكان حين سن هذه الحرية للناس راضياً بها ، أو مضطراً إليها ؛ لما يعرف في نفوس العرب من قوة الشكيمة .

وقد كانت الحرية التي دعا (معاوية) إليها دافعاً قوياً لقيام الأحزاب السياسية وأول الطريق إليها

وكم كان للأحزاب السياسية من يد على الخطابة بالصيال والجدال ، والمنافسة . بل إنها كانت نعمة على (معاوية) نفسه . ففي تفرق الكلمة ، واختلاف الجماعة ، سبيل لقوته واستقرار لحكمه .

ولا يغيب عنا أن مناهضة بني أمية للأحزاب ، وأخذهم بالقسر لم يكن إلا بعد أن قويت شوكة الأحزاب ، وباتت تهدد الدولة ، أما قبل استفحال امر الفراق فإن (معاوية) وخلفاءه لم يضيقوا على الألسنة ، ولم ينهنهوا من حدة الرأي .

ولقد أثر أن أعرابياً شهد أمام (معاوية) بشيء كرهه فقال له (معاوية) كذبت يا أعرابي ، فقال الأعرابي : الكاذب والله متزمل في ثيابه. فقال (معاوية) وتبسم : هذا جزاء من عجل [1] .

والمعارضات في ذلك كثيرة مع الحجاج والمغيرة بن شعبة وعبد الملك ابن مروان وغيرهم . ويعد ذلك كله امتداد لما حدث في العصر الإسلامي .

قوة الملكة :

اتصف العربي في عصر بني أمية بقوة الملكة ، أو قل إن شئت نمت قوة الملكة وازدهرت ، وسلامة السليقة ، واكتمال الموهبة كل ذلك أمدهم بالقدرة على مواقف الخطابة وارتياد ميادينها وليس ذلك بغريب - فهم عرب فصحاء مفطورون على القول ، ولهم بالجرأة على القول تميز واشتهار.

١- انظر دراسات في الأدب - د/ كامل الفقي صـ ٣٣ وجمهيرة خطب العرب ج٢صـ ١٨٣ .

وقد قيل إن العرب أهل فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية ولعل هذا هو السبب في أنهم وضعوا للفصاحة كلمة مشتقة من اللسان فقالوا : رجل لسن إذا كان ذا بيان وفصاحة ، ولم يشتقوا مثل ذلك من الكتابة [1] .

لقد نضجت العقول في عصر بني أمية ، وهذبت الملكات ، وطوعت أزمة القول ، واستمد الخطباء ما استمدوا من الأمصار المفتوحة ، وصار ذلك مجالات جديدة للخطيب ، يجد فيها المعاني الوافدة ، والأغراض المستحدثة وإن كانت الملكات في أواخر هذا العصر قد ضعفت وتطامنت وهان شأنها إلا أنه ضعف لا يخرج أصحابه إلى حد العجز والانهيار .

الأحزاب والفرق :

يعد قيام الأحزاب السياسية ، وتعدد الفرق المذهبية من أهم بواعث الخطابة ، وتنشيط سوقها في هذا العصر .

وقد أثر في ذلك ما أثر من التراشق بالتهم ، ولقد كان فيهم أمويون وزبيريون، وكان فيهم الشيعة والخوارج ، وبين كل صيال وجدال ومن أثر ذلك خطب تتأجج ، وبيان يتدافع ، ووراء كل فريق عشاق يتبارون في القول ليهيجوا النفوس ، ويحموا الأنصار ، ولن تجد أفعل من ذلك النضال في إثارة البيان وصقله وتهذيبه .

وحين ضعفت الأحزاب ، وأغمدت سيوفها ، سلت مكانها الألسنة ، فكان للدولة معارضون أذكياء ينكرون سياستها ويذيعون قالة السوء عنها ، واضطر الخلفاء والأمراء أن يدافعوا عن أنفسهم وعن سياستهم باللين حيناً وبالقوة حيناً .

١- ضحى الإسلام ج١ صـ ١٧٤ .

وكل ذلك جعل حظ الخطابة في هذا العصر عظيماً لم تبلغ مثله أمة من قبل إلا ما كان من أمر اليونان والرومان . ولقد كان للإيمان الذي يخالط شغاف القلوب . والعقيدة التي ترسخ في أعماق النفوس . من دَفْع قوى جريء لأولى الإيمان والعقيدة أن يجهروا برأيهم . ويناضلوا لنصرة مذهبهم . ويستميتوا في نشر فكرتهم. لا يبالون في هذا بأذى . ولا يرهبون من جراء ذلك صاحب سطوة فلما نعي (الحسين) ﷺ في الكوفة نادى واليها (ابن زياد) إلى الصلاة الجامعة . ثم صعد المنبر وخطب فقال: (الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله . ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه . وقتل الكذاب بن الكذاب الحسين بن علي وشيعته . وما أكمل ابن زياد جملته حتى وثب إليه شيخ ضرير هو (عبد الله بن عفيف الأزدي) وصاح قائلاً : يا ابن مرجانه . أتقتل أبناء النبين وتقوم على المنبر مقام الصديقين؟ إنما الكذاب أنت وأبوك . والذي ولاك وأبوه . ولم يطلع عليه النهار إلا وهو مصلوب [1] .

وللخوارج في ذلك شأن عجيب . فقد كان لهم من قوة العقيدة ما حملهم أن ينتهزوا كل فرصة للدعوة إلى مبادئهم جهرا . بل كانوا يرسلون إلى الخلفاء والأمراء يدعونهم لمشايعة مذهبهم .

وقد بلغ من شأن الخطابة في هذا العصر أن أصبحت فناً يدرس . وعلماً يلقن يقاس به قيمة الرجال وقد روى أن (بشر بن المعتمر) مر على (إبراهيم بن جبلة) وهو يعلم الفتيان الخطابة . فوقف عليه وكأنه لم يعجبه كلام (إبراهيم) فدفع إلى الفتيان صحيفة من تحبيره وتنميقه فإذا فيها من جملة ما فيها : ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين

١- انظر دراسات في الأدب صـ ٣٦.

وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.. الخ).

سمات الخطابة الأموية :

لم تقم دولة الأمويين على الدين ، فقد علم قادتها أن مظهر الدين لا يقبل منهم ، ومن ثم عولوا على السياسة وشفت الخطابة عن هذه النزعة ، وكان من أثر هذه الصبغة في خطبهم أنهم لم يعمدوا إلى الاقتباس من آيات القرآن الكريم ، كما كان يفعل السلف الصالح ، بل غلا بعضهم فتجافى عن استهلال الخطبة بالحمد كما فعل (زياد بن أبية) في خطبته (البتراء) وقيل إن تمثله بالشعر أحب إليه من الاقتباس من القرآن الكريم .

وهذا اللون من الخطابة السياسية قد ظهرت فيه قوة الأسر ، وضخامة العبارة ، والتزيد في الوعيد ، والإنزار الشديد ، وكل ذلك قد اتضح في خطبة (زياد) البتراء .

أما خصوم الأمويين المناوئين للخلفاء ، المناهضين لهم قد سيرت في خطبهم سمات من الابتداء بحمد الله ، والصلاة على النبي ، والاقتباس من الكتاب الكريم، كما يبدو في هذا الضرب من الخطابة التذكير بالآخرة والتنفير من الدنيا ، والدعوة إلى مجاهدة النفس والالتزام بحدود الله وظهر ذلك في خطبة أبي حمزة الشاري .

خطبة لعمر بن عبد العزيز

خطب عمر بن عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً يحكم الله فيه بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض ، واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف ربه وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباق ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين ، ثم أنتم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه وبلغ أجله ، ثم تغيبونه في صدع من الأرض ، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ، غنياً عما ترك ، فقيراً إلى ما قدم ، وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ، فاستغفر الله لي ولكم ، وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها ، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي ويحمي الذين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم ، وأيم الله أن لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان مني ناطقاً ذلولاً عالماً بسبابه ، لكنه مضى من الله كتاب ناطق ، وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته .

ثم بكى فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه ، ثم نزل فلم ير على تلك الأعواد حتى قبضه الله .

الخطبة البتراء لزياد بن أبيه :

أما بعدُ ، فإنَّ الجهالةَ الجهلاءَ ، والضلالةَ العمياءَ ، والغيَّ [١] ، الموفيَ [٢] بأهلهِ على النَّارِ ، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمورِ العظامِ ، ينبتُ فيها الصغيرُ ولا يتحاشى عنها الكبيرُ . كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تَسْمَعوا ما أعدَّ اللهُ من الثوابِ [٣] الكريمِ لأهلِ طاعته ، والعذابِ الأليمِ لأهلِ معصيتهِ [٤] في الزمن السرمدي [٥] الذي لا يزول .

أتكونون كَمن طَرفت عينيه الدنيا [٦] وسدَّت مسامعه الشهواتُ ، واختار الفانيةَ على الباقيةِ . ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلامِ الحدثَ الذي لم تُسبقوا إليه من تَرْكِكِم الضعيفَ يُقهرُ ويؤخذُ ماله .

ما هذه المواخيرُ [٧] المنصوبةُ والضعيفةُ المسلوبةُ في النهارِ المبصرِ ، والعددُ غيرُ قليل ، ألم يكن منكم نهاة [٨] تمنعُ الغُواة [٩] عن دَلَجِ الليل [١٠] وغارةِ النَّهار ؟! قرَّبتمُ القرابةَ وباعدتمُ الدينَ . تعتذرون بغير العذر وتغضَّونَ على المختلس . كل امرئ منكم يذُبُّ [١١] عن سفيهه ، صنيعَ من

١- الغي : الضلال .
٢- الموفي : المشرف .
٣- الثواب : الجزاء على أعمال الخير .
٤- المعصية : الزلة .
٥- السرمدي : الأزلي الأبدي .
٦- طرقت عينيه الدنيا : طمحت عيناه إلى الدنيا وزخرفها فشغلنا بها عن الآخرة .
٧- المواخير : بيوت الريبة .
٨- النهاة : الزاجرون ، المانعون .
٩- الغواة : الضالمون
١٠- دلج الليل : السير فيه
١١- يذب : يدافع .

لا يخاف عاقبةً و لا يرجو مَعاداً [١] ما أنــت بالحلمــاء ولقــد اتبَّعــتم السـفهاء ، فلم يزلْ بكم ما تَرونَ من قيامِكمْ دونهــم حتــى انتهكــوا حُــرَمَ الإســلام ، ثــم أطرقوا وراءَكم كنوساً من مكانس الرّيَب [٢] .

حرامٌ عليَّ الطعامُ والشرابُ حتــى أســوِّيها بــالأرضِ هــدماً وإحراقــاً ! إني رأيتُ آخر هذا الأمر لا يصلُح إلا بما صلُحَ بــه أوّلُــه : لــينٌ فــي غيــر ضعف، وشدةٌ في غير عنف. وإني أقســم بــالله لأخــذنَّ الــوليَّ بــالمولي [٣] ، والمقيمَ بالظاعن [٤] ، والمقبــل بالمــدبر [٥] ، والمطيــعَ بالعاصــي ، والصــحيحَ بالسقيم ، حتى يلقي الرجلُ منكم أخاه فيقول : " انجُ ســعد ، فقــد هلــك ســعيد ، أو [٦] تستقيمَ قناتُكم .

إن كذبَة الأميرِ بلقاءُ مشــهورةٌ ، فــإذا تعلَّقــتم علــيَّ بكذبــة حلَّــتْ لكــم معصيتي ، فإذا سمعتموها فاغتموزها فيَّ ، وأعلمــوا أن عنــدي أمثالهــا . مــن نُقبَ منكم عليه [٧] فأنا ضامنٌ لما ذَهــبَ منــه . فإيــاي ودلــجَ الليــلِ فــإني لا أوتي بمُدلج إلا سفكتُ دمه .وقد أجَّلــتكم فــي ذلــك بمقــدار مــا يــأتي الخبــرُ الكوفةَ ويرجعُ إليكم . وإيّاي ودعوى الجاهليــة [٨] ، فــإني لا أجــد أحــداً دعــا بها إلا قطعتُ لِسَانَه . وقد أحدثتم أحداثًا لــم تكــن ، وقــد أحــدثنا لكــل ذنــب عقوبة . فمن غرّق قوماً غرَّقناه ، ومن نقّب بيتاً نقبنا عــن قلبــه ، ومــن نــبش

١- المعاذ : الأخرة .
٢- الكنوس : المختبنون . المكانس الملاجئ ، وتكون للوحوش تختبئ ، فيها . الريب التهم .
٣- الولي : السيد . المولى العبد .
٤- الظاعن : المسافر
٥- المدبر . الذاهب .
٦- أو ناصبة لأنها أتت بمعنى : الى أن .
٧- نقب عليه : سرقت داره
٨- دعوى الجاهلية : دعوى العصبية والنزق .

قبراً دفنّاه فيه حيا ! فكفُّوا عني أيديكم وألسنتكم أكفُفْ عنكم يدي ولساني . ولا تظهرُ من أحدٍ منكم ريبةٌ بخلاف ما عليه عامتُكم إلا ضربتُ عُنُقَه . وقد كانت بيني أقوام إحَنٌ [1] فجعلتُ ذلك دَبْرَ [2] أذني وتحت قدمي . فمن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته .إني لو علمت أنّ أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك [3] له ستراً ، حتى يبدي لي صفحته [4] فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم ، فربَّ مبتئسٍ بقدومنا سيُسَرُّ ، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناسُ ، إنا أصبحنا لكم ساسةً وعنكم ذادةً ، نسوسُكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذودُ عنكم بفيء [5] الله الذي خوّلنا ، فلنا عليكم السمعُ والطاعةُ فيما أحببنا ولكم علينا العدلُ فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا واعلموا أني مهما قصّرت فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا بليل ، ولا جابسا عطاء ولا رزقاً عن إبّانة [6] ، ولا مجمّراً [7] لكم بعثاً .

وأيم الله ، إنَّ لي فيكم لَصَرعي كثيرةً ، فليَحذر كلُّ امريء منكم أن يكون من صرعاي .

١- الإحن : الأحقاد .
٢- دبر : خلف .
٣- اهتك : اشق .
٤- يبدي لي صفحته : يكشفني .
٥- الفيء : الغنيمة
٦- ابانة : حينه
٧- التجمير : حبس الجنود عن العودة الى اهلهم .

زياد بن أبيه

٦٧٢ م و ٥٣ هـ

حياته :

لما كان زياد غير شرعي الوالد فقد تعددت أسماء والده ، فهو زياد ابن أبيه وهو ابن سميّة وابن أبي سفيان وابن عُبَيد . ولد بالطائف بين السنة الأولى والثامنة للهجرة ، وأمه جارية للحرث الثقفي تدعى سميَّة .

عرف زياد منذ حداثته بمزايا لا تظهر عادة إلا في الرجال ، منها النجابة : والفصاحة ومنها الحزم والشدة والدهاء ، فما كاد يشب عن الطوق حتى استكتبه أبو موسى الأشعري ، وهو على البصرة من قبَل عمر بن الخطاب.فاستبد بإعجاب الناس . وإذا بعمر يوكل إليه إحدى المهام فقام بها على أحسن وجه ، وعند رجوعه دخل على عمر ، وفي حضرته قوم من المهاجرين والأنصار بينهم عمرو بن العاص وأبو سفيان والد معاوية ، وألقي خطبة هزّ بفصاحتها قلوب الحاضرين. فقال عمرو : " لله در هذا الغلام . لو كان أبوه قرشياً لساق العرب بعصاه ، فقال أبو سفيان : إني أعرف أباه . فقال عمر : من هو ؟ قال أنا هو . وإلى هذا القول استند معاوية حين استلحق زياداً بأبيه .

ولما استخلف على بن أبي طالب ولّي زياداً على فارس فساسها بدقة وحزم. ولكن ذلك لم يرق لمعاوية فكتب إلى زياد يعنفه ويعرّض به ، فردّ عليه زياد بلهجة أشدّ عنفاً وقسوة . فلما بلغ الأمر عليا كتب إلى زياد يطري عليه ويحذره من معاوية .

وما كاد يقتل عليٌ حتى استمال معاوية زياداً إليه واستلحقه بنسبة ثم ولاه البصرة وأعمالها . وعندما مات المغيرة بن شعبة أمير الكوفة وألقي في مسجدها أولى خطبة حصبه الناس . فأمر بإقفال الأبواب والقبض على المشبوهين وقطع أيديهم .

وكان زياد على وشك أن يتولى أمور الحَجاز عندما أصيب بالطاعون فقضي عليه . وكان ذلك سنة ٦٧٣ م و ٥٣ هـ .

قال عبد الله بن عمر بن الخطاب لما بلغه موته : " أذهب ابن سمية . لا الآخرة أدركتَ . ولا الدنيا بقيت عليك " .

المناسبة :

كانت البصرة في أيام معاوية مركزاً لاستفحال المعارضه . وخلية لمختلف العصبيات يؤلفّ الخوارج والبدو المتعصون لتقاليدهم القبلية معظم سكانها . لذلك كان يسودها تياران : تيار النزاع المستمرّ والفساد والاضطراب . وتيار التماسك ضدّ الأمويين .

وكان على معاوية أن يقف بوجه المدينة الثائرة فلم ير خيراً من زياد يرميها به وهو العليم بإخماد الفتن والخروج من المآزق .

دخل زياد البصرة والياً عليها وهمه ضبط أمورها وإخضاعها للحكم الأموي. وما كاد يستقر به المكان حتى جمع الناس في مسجدها وألقى بين أيديهم خطبته البتراء التي لم يبدأها بالحمدلة أو البسملة أو التصلية . ومن ثم أخذ يطبق الشرائع التي سنها . يسير وبين يديه الحراب والعمد . ولكثرة ما عنف في حكمه وقسا . هابه الجميع وخضعت له الأحزاب واستتب الأمن .

قيل أن أعداء زياد هم الذين أطلقوا على خطبته أسم البتراء ليشنعوا عليه . ولكن تلك التسمية لم تخفض من قيمتها . وقيل أيضاً إنما سميت البتراء لأنها كالسيف القاطع .

المحتوى :

أوضح ما في البتراء أقسام أربعة هي التالية :-

١. **حالة البصريين :** لقد جمحت بهم المساوئ والشرور ، فالجهل والضلال والغي من بضاعة سفائهم وحلمائهم على السواء ، ربي عليها الصغار وفي ركابها سار الكبار . أتراهم جهلوا الإسلام وتناسوا تعاليم القرآن وأغمضوا عيونهم عما أعد الله من ثواب للمتقين وعذاب للفاسقين في الحياة الباقية ؟

أباستطاعة من دانوا بالإسلام أن يجعلوا طريقهم محفوفة بالآثام والفواحش ؟ هل ضربوا بالعمي فحجبت عن عيونهم الفضائل ، أم صمت منهم الآذان فليس في آذانهم غير ضجيج الشهوات ؟.

ما أعجب أمر أهل البصرة ، يعلون شأن الدنيا الزائلة ويخفضون قيمة الآخرة الدائمة . هم دعاة المعاصي في الإسلام ، فالضعيف على أيديهم يقهر ، والضعيفة تسلب في وضح النهار وليس بينهم من ينهي عن منكر أو يدفع عن غواية .

إنكم يا أهالي البصرة خارجون على تقاليد الدين ، وأعذاركم غير مقبولة . تشيحون بأنظاركم عن الفحشاء ، وتتعهدون السفهاء بالعناية ، كأنكم لم تخشوا عقاباً ولم تأملوا معاداً . لقد فسحتم المجال للأشرار فتمادوا في شرّهم وانتهكوا حرمة الإسلام وتستروا في أقبية الريب ومخابئ الفجور.

٢. **موقف زياد من هذه الحالة :** يخطط زياد في هذا القسم من خطبته لسياسية إصلاح عامة ، عمادها " اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف . بهذه السياسة قضى قبله عمر ابن الخطاب على مفاسد الجاهليين . وبها سيقضي زياد على مساوئ البصريين .

هو يحرّم على نفسه الطعام والشراب إلى أن يسوّي البصرة بالأرض هدماً وإحراقاً. وفي سبيل الوصول إلى غايته يقسم أن يأخذ الولي بالمولي، والمقيم بالظاعن، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يضجّ الناس من هول ما يلاقون ويخلدون إلى السكينة.

إن في هذا القول غير دليل على تفهم زياد لعمق المسؤولية، والإحاطة بالتبعات الملقاة على كواهل الجماعة. فهو يعلم أن وراء الخارجين على القوانين ومرتكبي الآثام أصابع تحرك الفتن في الخفاء وتعمل في الظلام، ثم يتلبس أصحابها البراءة ويدّعون المسالمة.

ويسير زيادة في بسط تشريعه القائم على الشدة، فيتعهد بتنفيذ ما يعد به، وبتطبيق ما يعلن من نظام عرفي يتعلق بالسرقة ودلج الليل ودعوى الجاهلية " فمن نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله. وإياي ودلج الليل، فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه ... وإياي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه ".

وجعل لكل ذنب عقوبة، " فمن أغرق قوماً أغرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً ".

بمثل هذه اللغة يدعو زياد الناس إلى أن يكفوا عنه أيديهم وألسنتهم، وإلا كان عقاب كل ريبة ضرب العنق.

لقد كان بينه وبين بعض البصريين عداوات سابقة، ولكنه لن يحرّك رمادها ويتخذ منها سبيلا إلى القسوة والتشفي، وإنما سيترك لهؤلاء مجال العودة إلى حياة العمل والمسالمة حيث سيسود العدل والنظام. " فاستأنفوا أموركم، وأعينوا على أنفسكم، فرب مبتئس بقدومنا سيسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس ".

٣. **شرعية الخلافة الأموية والإذعان لها :** بعد أن حقق زياد غايته في القسمين السابقين من ضبط أمور البصرة ، ينتقل هنا إلى إخضاع البصريين للحكم الأموي معلناً نوع العلاقة التي يجب أن تقوم بين الراعي والرعية . وأول ما يريد تثبيته في الآذان هو ما للأمويين من حق إلهي في سلطتهم ، فهم أصبحوا للناس ساسة وعنهم ذادة، يسوسونهم بسلطان الله الذي منحهم إياه ، فهم خلفاؤه على الأرض، فعلى الناس إذن أن يسمعوا ويطيعوا ، وعلى الحكام أن يعدلوا ، إنها شراكة بين الحاكم والمحكوم قائمة على التناصح والتعاون .

ثم يعلن زياد أنه لن يقصر عن ثلاث : قضاء حاجاتهم ولو أتوه تحت ستر الظلام ، إعطاؤهم الرزق في حينه ، عدم حبس الجنود في أرض الأعداء .

٤. **الخاتمة :** وينهي زياد خطبته بقسم صاعق يدعو به الناس إلى احترام القانون وإلا كان له بينهم صرعى كثيرون .

الدراسة الأدبية :

أول ما يجبه به زياد البصريين في الخطبة البتراء عرضه لما يبيحون لأنفسهم من عصيان قام على المنكر والفساد . ثم تعدي نطاق البيئة بأحكامه حين سن للعقوبات قانوناً لم يألفوه .

وبعد ذلك ينفي إضمار الحقد لأي كان من أعدائه أو مبغضيه . فيدعوهم إلى استئناف العمل ويعدهم بإقامة العدل .

وفي النهاية ينصحهم بالخضوع للأمويين الذين استمدوا من الله سلطانهم.وإذا به يأبى إلا أن يكون الختام صاعقاً مدوياً .

لقد نزلت هذه الخطبة على البصريين لا هبة مجلجلة فأرهبتهم وتركتهم مذهولين واجمين . فالتهديد فيها صارخ ، والوعيد مخيف . ولئن قال قائل عند سماعها :" أنبأنا الله بغير ما قلت " ، أجابه زياد : " إنا لا نبلغ المراد منك ومن صاحبك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً ." ولقد حقق تهديده ووعيده فكان رهيباً في تطبيق أحكامه .

إن مميزات الخطبة ، من حيث العمل الصناعي ، كثيرة أبرزها البلاغة ، وما يتحدر عنها من جلاء المعاني ، وإيجاز الألفاظ ، وتنسيق فني متكامل .

هو يبدو مرشداً يضع البصريين أمام ذنوبهم ، ويحرك روح الدين في صدورهم، فيذكرهم بالعقاب والثواب .

ثم يبدو مشترعاً يضع عقوبات جديدة لمفاسد غير مألوفة . وهذه العقوبات ستنفذ بدقة وحزم ، حتى إنه يحل لهم معصيته إن هو تباطأ في التنفيذ أو أخذ عليه شيء من الكذب .

والظاهر أن العرب في مطلع الإسلام ظلوا متعلقين بجاهليتهم لكثرة ما فرض عليهم الدين الجديد من نظم لم يتعودوها . لذلك يسألهم زياد أن يتمثلوا به وإلا ضرب منهم الأعناق .

وبعد ذلك يبدو حكيماً عادلاً يترفَع عن الضغائن والأحقاد ويتنزه عن الحزازات والميول الشخصية .

ويبدو أخيراً سياسياً داهية ، تمرس بالتجارب ، فيعلي شأن الأمويين ، ويفضلهم على سواهم من الحكام ، سائلاً البصريين الانقياد لهم ، فتقضي حاجاتهم ، وينالون رزقهم في وقته ، ويطلق سراح الجيش فلا يحبس في أرض العدو .

وكأني بزياد أراد أن يكون النغم الأخير داوياً ليظل صدى التهديد هادراً في الآذان ، فختم خطبته بهذه الجملة الصاعقة التي قفز إليها قفزاً : " إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امريء أن يكون من صرعاي ".

لقد اعتمد زياد الأسلوب الخطابي بما فيه من بناء ووضوح وإقناع وتأثير.

وهو في مقدمته وتدرجه إلى الموضوع ، واستخلاص النتائج ، يقيم خطبته على الفكر المجرد والتقسيم المنطقي والأدلة الدينية .

وقد يعود ما في خطبة زياد من إرعاد وإراقة دماء إلى تأثره بعمر ، ولكنه تجاوز لين الخليفة الراشدي الذي دعا الناس إلى إصلاحه أن رأوا فيه إعوجاجاً ، وكاد يصعق أحد منتقديه .

نستنتج من ذلك أن التشابه بين الخطيبين ، هو في الصلابة لا في الإسراف في العقاب .

ومتى عرفنا أن الخطابة الإسلامية عامة وخطابة زياد خاصة تأثرت بواقع السياسة الأموية وقد هددت بالتداعي ، لم تنكر عليها العنف والقسوة .

ولشدة إنفعال زياد رأينا التناقض من مزايا خطبته ، فبعد أن أعلن في مستهلها إتباع سنة اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف ، نراه ينسى خطته وينقض على سامعيه بالويل " فيسوى البصرة بالأرض هدما وإحراقاً. ويقسم بالله ليأخذن الولي بالمولى والمقيم بالطاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي ."

ويريد أن يعلم الناس أن تهديده ليس من قبيل الإيهام فهم في حل من طاعته أن لم يصدق فيما وعد به " فيستغرق من أغرق ، ويحرق من أحرق وسيدفنهم أحياء ".

ومن البراهين على شدة تماسك الفكر عند زياد عدم انشغاله بالحكم المتفرقة شأن الجاهلين على أن البتراء وإن كانت خلوا من الآيات القرآنية فهي لم تخل من النفحة الدينية يثير الخطيب ملامحها في تضاعيف السطور بطريقة غير مباشرة .

وزياد شديد التخير لألفاظه وتعابيره ونعوته ، يحسن المزاج بين الإيجاب والنفي ، يتلاعب بأساليب الإنشاء فمن تقديم إلى تأخير إلى تأكيد أو قسم ، يدعم بكل ذلك فكرته ويوطد بناء خطبته .

وفي البتراء تتجلى شخصية زياد القوية ، فهو الممثل للبيت الأموي ، العارف بأحوال البيعة ، الخبير بالسياسة والحكم ، يرفده ذكاء وقاد ومعرفة عميقة بطبائع الجماهير .

وفيها مظهر للفتن التي هزت عصر بني أمية ، ولتكاثر الأحزاب والفرق ، ولاهتمام الأمويين بما آلت إليه البلاد من اضطراب كان عليهم أن يخمدوه لتوطيد سلطانهم .

قال الثعالبي : " ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً فإنه كان كلماً أكثر كان أجود كلاماً " .

وقال احسن البصري : " أوعد عمر فعفا ، وأوعد زياد فابتلي " .

ولا عجب أن يقال في زياد مثل هذا القول وهو الذي صح فيه ظن أبن العاص فساق الناس بعصاه .

ملامح تطور وازدهار الأدب في العصر العباسي

مهما يكن من أمر التغيير الذي أصاب الحياة في العصر العباسي . فقد ظلت اللغة العربية أداة التعبير ووسيلة الفن القولي ، على الرغم مما أتاحه ذلك العصر للناس من ثقافات جديدة منوعة ، وتجارب حيوية مختلفة . إلا أن أداة التعبير في ذلك كله كان باللغة العربية بكل ما فيها من إمكانيات وطاقات تعبيريه .

ولما كان الأديب لسان قومه وعصره كان طبيعياً ، أن يكون هناك صراع بين التقاليد الفنية الموروثة وبين ثقافة وذوق المجتمع الجديد ، لكنه مع مرور الوقت بدأ التيار الجديد يفرض نفه ويؤكد جودته ، ونفذ الشعراء العباسيون من خلاله إلى استحداث أسلوب جديد عرف باسم أسلوب المولدين اعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالكلمات الوحشية ولغة العامة الزاخرة بالكلمات المبتذلة .

وبعبارة أخرى أسلوب يجمع بين مادة اللغة بمقوماتها النحوية والصرفية الملائمة بينها وبين الحياة الحضرية المترفة في العصر العباسي، من حيث القدرة على تخير البعيد عن الغرابة والوحشية ، وعن العامية المبتذلة ، وبدأت الأساليب ذات سمة خاصة تشق عن ذلك المزيج من القديم الفصيح والذوق الحضري الجديد.

وقد كان بشار أحد الأوائل الذين استخدموا هذا الأسلوب ، وأرسوا قواعده وسار على نهجه شعراء كثيرون أمثال البحتري وأبو تمام الذي رد ذلك الأسلوب

إلى قوة السبك وضخامة البناء ، وكذلك ابن الرومي ، والذي يقول فيه بن خلكان : " والشاعر المشهور صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك الفن حتى يستوفيه إلى أخره ولا يبقي فه بقية ".

ويظهر صاحب كتاب العمدة منهج الشعراء في العصر العباسي بقوله " ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته كإبن الرومي ، وأبي الطيب ومن شاكلهما هؤلاء المطبوعون .

كما لعبت الثقافة اليونانية والفارسية دوراً كبيراً في التركيبة الثقافية لبعض الشعراء تمثلت في التشخيص الذي يشبه توليد الأساطير واختراع الأرباب والربات لكل قوة من قوى الطبيعة عند اليونان ، وكذلك المعاني النادرة والأخيلة المبتكرة ، كأن يصور بعض الشعراء المعاني المجردة أرواحاً ينسب إليها ما ينسب إلى الأحياء من الأعمال والأقوال ، ومن ذلك قول ابن الرومي ساخراً من العوسج كأنه إنسان .

غذرنا النخل في إبداء شوك
يذود به الأنامل عن جناه
فما للعوسج الملعون أبدي
لنا شوكاً بلا ثمر نراه
تراه ظن فيه جنى كريماً
فأظهر عدة تحمي حماه

فـــلا يتســـلحن لـــدفع كـــف

كفـــاه لـــؤم مجنـــاه كفـــاه

ولما كان من ملامح العصر الثقافية ، دراسة الفلسفة والمنطق ومذاكرة علم الكلام ، والعلوم المترجمة ، فقد كان لزاماً أن ينشأ الشعراء أو بعضهم على نصيب من تلك العلوم في شعرهم ، بحيث لا يلم المتصفح ببعضه إلا جزم بإطلاع قائله على الفلسفة ومصاحبة أهلها واشتغاله بها ، حتى سرت في أسلوبه وتفكيره .

والجدير بالذكر أن مثل هذه الأشياء تعد ملمحاً واضحاً في الشعر العباسي ، لم يكن موجوداً من قبل ، بل كانت نتيجة حتمية لانتشار الثقافات المختلفة بصورة أثرت تأثيراً جدياً في الشعر والشعراء بالإضافة إلى أغراض الشعر الأخرى والتي سيأتي بيانها .

كما أن الشعراء بجانب ما جددوه في الأسلوب إلا أنهم ظلوا ينظمون في الموضوعات القديمة مثل المدح والرثاء والهجاء والغزل والوصف والمجون والزهد وظلت تلك المجالات قائمة وإن كانوا قد توسعوا في بعضها مثل المدح والمجون والزهد واستجابة للأوضاع والمتغيرات التي طرأت على العصر العباسي .

أبو العتاهية وأثره في الزهد:

ترجمته :

هو : أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان وينتهي نسبه إلى عنزة بالولاء من قبل أبيه وإلى بني زهرة من قبل أمه التي كانت مولاة لهم.

وأبو العتاهية كنيته . ولقب بها بعد أن دعاه المهدي بها يوماً : وعتاهية يقال للرجل المتحذلق ، فقد روى الأصفهاني أن المهدي قال له يوماً أنت متحذلق متعته فاستولت له من ذلك كنية غلبت عليه دوناسمه وسارت في الناس (١)

ويقال أنه لقب بذلك الاضطراب كان فيه وقيل لأنه كان يحب الخلاعة والمجون والتعته.

وقد ولد عام ١٣٠هجرية في بلدة تعرف بعين - التمر وهي كما يقول ابن خلكان من أعمال سقي الفرات بالعراق ، وقد نشأ في الكوفة ، والكوفة وعين التمر كلتاهما من سقي الفرات .

وقد أجمعت كتب الأدب أنه نشأ نشأة وضيعة فاسدة . فكانت أمة مولاه وأبوه بائع جرار أو كان حجاما ، إلا أن أبا العتاهية لم يعبأ بهذا الأصل وظهرت في شعره إشارات إلى فضل العلم والتقوى على النسب والأصل امتثالاً لقول الله ﷻ :

﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ... ﴾ (٢).

١- الأغاني جـ ٤صـ ٢.
٢- سورة الحجرات : من الآية ١٣.

ومن ذلك قوله :

ألا إنما التقوى هي العــزم والكــرم
وحبــك للــدنيا هـــي الفقــز والعــدم
ولـــيس علـــى عبــد تقــي نقيصـــه
إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم[1]

وقـد نشـأ الشـاعر في الكوفـة - كمـا أشـرنا - وأخـذ يخـتلط بالبيئـات المختلفـة، والـتي كانـت سمـة مـن سمـات العصـر العباسـي ، فـاختلط بالمجـان مـن الشـعراء وأختلـف إلى حلقـات العلمـاء والوعـاظ في المسـاجد ، ممـا كـان سـبباً في إتقانـه اللغـة العربية والتعرف إلى مذاهب أصحاب الكلام .

كمـا توثقـت الصـلة بينـه وبـين إبـراهيم الموصـلي المغـني ، وتعاهـدا علـى أن ينـزلا بغـداد ليروجـا بضـاعتهما - الشـعر والغنـاء - ففتحـت الأبـواب أمـام إبـراهيم الموصـلي بينمـا أوصـدت دون أبـي العتاهيـة ، فقـرر العـودة إلى الكوفـة، ولمـا فتحـت الـدنيا علـى الموصــلي في خلافــة المهــدي دعــاه إبــراهيم وأرســل في طلبــه ليقدمــه إلى الخليفــة ، فــذهب إليــه أبــو العتاهيــة ، وأعجــب الخليفــة بشــعره وقربــه إليــه وأغــدق عليــه بالعطايا والمنح.

وتمــر الأيــام ويرحــل المهــدي ويخلفــه الهــادي ، فيلزمــه أبــو العتاهيــة ينشــده ويمدحـه في كـل مناسـبه فينـال منـه المنح والجـوائز ، ويسـتمر علـى هـذا الحـال مـع ابنـه الرشـيد حينمـا ولـي الخليفـة وأصـبح لا يفارقـه في سـفر ولا حضـر . وكـان يجـري عليـه خمسـين ألـف درهـم في السـنة بالإضـافة إلى مـا كـان يحصـله مـن جـوائز وصـلات مـن كبار رجال الدولة .

١- الاغاني جـ ٤صـ ٥.

وقد امتنع في هذه الفترة عن قول الغزل والهجاء والمدح لغير الخليفة مما كان سبباً في إيذائه وسجنه ، ولعل ذلك بداية زهده ، إذ إنه ما لبث حتى أخذ في قول الزهد والإكثار من الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، وقد اتهم في عقيدته ". لكنه يرد على ذلك بقوله : " زعم الناس أني زنديق والله ما ديني إلا التوحيد ، فقلنا له : فقل شيئاً نتحدث به عنك أي من الشعر - فقال :

ألا إننا كلنا بائد

وأي بني أدم خالد .

وبدؤهم كان من ربهم

وكل إلى ربه عائد

فوا عجبا كيف يعص الإله

أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية

تدل على أنه الواحد

ولعل الظروف السياسية والصراعات الحزبية كانت وراء مثل هذه التهم التي كانت تلقي على بعض الشعراء ، ممن كانوا يتناولون هذه المثالب بالنقد والتوجيه والثورة على المفاسد التي كانت منتشرة آنذاك لكن الناظر في شعر أبي العتاهية لا يجد هذه التهمة أي الزندقة أو أي أثر لنظر نقدي في الكون أو لنزعة فلسفية في الدين .

شعره ومكانته الأدبية :

يعد أبا العتاهية من الشعراء المطبوعين في العصر العباسي . فقال صاحب الأغاني : أطبع الناس بشار وأبو العتاهية . وقال ابن الأعرابي وقد أثاره رجل رمي أبا العتاهية بالضعف . فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت منه وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر.

ونظراً لكثرة الشعراء في العصر العباسي ، وشدة التنافس بينهم إلا أنه استطاع أن يشق طريقه بين الحاسدين والواشين ، وأن يجعل لنفسه مكانة عالية وعرف بشعره وفنه طريق القصور والقلوب .

وهذه المكانة تعطينا بأن أبا العتاهية كان شاعراً مطبوعاً وكان شعره لطيف المعاني سهل الألفاظ بليغ التراكيب ، قليل التكلف ، وهذا ما أكده المبرد بقوله : أبو العتاهية حسن الشعر قريب المأخذ لشعره ديباجة ويخرج القول كمخرج النفس قوة وسهولة واقتدارا [1] .

وقد سئل كيف تقول الشعر قال : ما اردته قط إلا مثل لي . فأقول ما أريد وأترك ملا أريد .

ويؤكد الجاحظ هذه الحقيقة حين سمع من ينشد قول أبي العتاهية :

يا للشباب المرح المتصابي

روائح الجنة في الشباب

فيقول للمنشد كف : أنظر إلى قوله " روائح الجنة في الشباب " فإن له معنى كمعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب وتعجز عن ترجمته الألسنة

١- انظر الكامل ج١ ص ٢٣٩ .

إلا بعد التطويل وإدامة التفكير وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه .

وهذه الأقوال وتلك الشهادات لا تمنع من وجود بعض العثرات والسقطات مع أقتداره وتمكنه من قرض الشعر وسهولته عليه . لكن هذه العثرات لا تخرجه من إمارة الشعر في العصر العباسي ولا تقلل من شأنه ولا من مكانته بين الشعراء المطبوعين الذين كانوا يتمتعون بغزارة النظم وقوته وتعبيره عن الأحاسيس والمشاعر . وكلما كان الشاعر صادقاً في فنه مخلصاً له . كان فنه هذا خالداً بخلود الفن الأصيل .

زهده :

يكاد يجمع المؤرخون والباحثون على أن أبا العتاهية قد ختم حياته بالزهد وظل نحو ثلاثين عاماً يتغنى بالموت والزهد في الدنيا والابتعاد عما فيها من زخرف وبهجة وفتنة . وحاول الاقتراب من الآخرة . فكثرت في شعره العظات والتذكرة بالموت في صفحات فنية رائعة تشيع في جنباتها الفلسفة الروحية العميقة القائمة على المعاني الإيمانية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

ولعل الذي دفعه إلى هذا الاتجاه الشعري وتركه ما كان عليه الشعراء هو تأثير العصر الذي جمع بين المتناقضات ؛ حياة اللهو والشراب والرقص والغناء والغزل . وحياة الزهد والتقوى والخشوع . فهذه العوامل أسهمت في تكوين نزعة الزهد عنده . فترك الغزل والمنادمة واختط لنفسه أسلوباً آخر واتجاهاً يخالف ما كان عليه الشعراء آنذاك .

كما يرجع هذا التحول الشعري عند أبي العتاهية إلى أنه كان يحس بالضعة والحرمان والنقص ؛ فقد نشأ محروماً فقيراً من أسرة وضيعة يعير عائلها بعمله كحجام في الوقت الذي أحب فيه الشاعر الدنيا وأقبل عليها وكلف بها لكنه لم يجد من تصبو إليه نفسه ، فولد إحساسه بالحرمان في نفسه النقمة على الدنيا . ولم يلبث أن بالغ في ذمها وتحقيرها ، وذم الحرص عليا والتكالب على مباهجها وزينتها .

هذا بالإضافة إلى أن عصر الشاعر أسهم في هذا التحول إذ إنه كان من أحفل العصور الإسلامية بالزهد والزهاد ولم يرق إلى درجة الرقي والازدهار واعتباره اتجاها شعرياً إلا في العصر العباسي ، فقد استغرق بعض الشعراء في الذات العلية وحاولوا التجرد من كل ما سواه من عرض المادة والحس واللجوء إلى الحب الخالص لله والاقتراب من اليوم الآخر ، وكان أبو العتاهية أحد هؤلاء الشعراء من أمثال : ذو النون المصري وعمر بن الفارض ، وأبو يزيد البسطامي والحسين بن منصور الحلاج ، إلى غير ذلك من الشعراء ممن اشتهروا بهذا الاتجاه .

وإذا سلمنا بأن الزهد قد ظهر في شكل ثورة نفسية من الشاعر على ماضية وحنقه على الدنيا فلم لا تقول أنه بالإضافة إلى ذلك ، يعتبر صدى لثورة أوسع انبعثت من الجانب المتدين في المجتمع العباسي ، والذي يعد بمثابة اتجاه مضاد لاتجاه الخلاعة والفجور ، والتباين الكبير بين الطبقات في الغني والفقر ، لذا نلمح في أشعاره توبيخا وتسفيها للأغنياء ، وحضاً لهم على التخلي عن لذائد الدنيا الفانية .

في مثل قوله :

يا من بني القصر في الدنيا وشـيده
أسست قصرك حيث السـيل والغـرق
لا تغلفـن فـإن الـدار فانيـة
وشربها غصص أو صفوها رنـق
والموت حوض كريـة أنـت وارده
فانظر لنفسك قبل المـوت يـا مـذق

وأشعاره في هذا الاتجاه كما نرى تمتاز بالسهولة واليسر، وتدل على صدق عاطفته ورهافة حسه.

وفـاته :

وافته المنية وانتقل إلى الدار التي طالما تغني في أشعاره بها والانتقال إليها سنة عشر أو إحدى عشرة ومائتين من الهجرة، ودفن ببغداد، عن عمر يناهز التسعين عاما، كما يبدو من هذه الأبيات التي أوصي أن تكتب على قبره، والتي يقول فيها :

أذن حـي تسـمعي — اسمعي، ثم عـي، وعـي
أنـا، رهـن بمضـجعي — فاحـذري مثـل مصـرعي
عشـت تسـعين حجـة — أسـلمتني لمضـجعي
لـيس زاد سـوى التقـي — فخـذي منـه، أو دعـي

نماذج من شعره :

قال في التضرع إلى الله والندم على ما اقترف من ذنوب :

إلهي لا تعذبني فإني
مقر بالذي قد كان مني
ومالي حيلة إلا رجائي
وعفوك إن عفوت وحسن ظني
فكم من زلة لي في البرايا
وأنت عليّ ذو فضل ومن
إذا فكرت في قدمي عليها
عضضت أناملي وقرعت سني
يظن الناس بي خيراً وإني
لشر الناس إن لم تعف عني

ويقول في الزهد في الدنيا وعدم التعلق بها إلا بقدر ما يعين المرء على الحياة ، وأنه لن يأخذ من الدنيا ، إلا على قدر حاجته مهما بلغت أمانيه وأطماعه ولن يبقى له إلا ما قدمه خالصا لوجه الله :

جمعت من الدنيا وحزت ومنيتا
ومالك إلا ما وهبتَ وامضيتا.
ومالك مما يأكل الناس غير ما
أكلتَ من المال الحلال فأفنيتا .

ومالـــك عـــن شـــيء جعلتـــه

أمامـــك إلا شـــيء لغيـــرك أبقيتـــا

ومالك مما يلبس النـــاس غيـــر مـــا

كســـوت وإلا مـــا لبســـت فأبليتـــا.

وهـو بهـذا القـول يتمثـل القـول المـأثور: لـيس لـك مـن مالـك إلا مـا أكلـت فأفنيت وما لبست فأبليت وتصدقت فأبقيت.

قصيدة أبي العتاهية في مخاطبة الدنيا وذمها

١. قطعـت منـك حبائـل الآمـال
وحططت عن ظهر المطي رحـالي
٢. ويئست أن أبقي لشيء نلت ممـا
فيـك يـا دنيـا ، وأن يبقـي لـي
٣. فوجدت برد اليأس بين جـوانحي
وأرحت من حلـي ومـن ترحـالي
٤. ولئن يئست لـربّ برقـة خلـب
برقـت لـذي طمـع ، وبرقـة آل
٥. ما كان أشأم إذ رجـاؤك قـاتلي
وبنـات وعـدك يعـتجلن ببـالي
٦. فالآن يا دنيـا عرفتـك فـاذهبي
يـا دار كـل تشـتت وزوال
٧. والآن صار لي الزمـان مؤدبـاً
فغـدا علـيّ ، وراح بالأمثـال
٨. وألان أبصرت السبيل إلى الهدى
وتفرغـت هممـي عـن الأشـغال
٩. ولقد أقام لـي المشـيب نعاتـه
يفضـي إلـى بمفـرق وقـذال
١٠. ولقد رأيت الموت يبرق سـيفه
بيـد المنيـة حيـث كنـت حيـالي

١١. ولقد رأيت غُرَ الحياة تخرمت
ولقد تصدي الوارثون لمالي
١٢. ولقد رأيت على الفناء أدلة
فيما تنكر من تصرف حالي
١٣. وإذا اعتبرت رأيت خطب حوادث
يجرين بالأرزاق والآجال
١٤. وإذا تناسبت الرجال فما أري
نسبا يقاس بصالح الأعمال
١٥. وإذا بحثت عن التقي وجدته
رجلا يصدق قوله بفعال
١٦. وإذا اتقي الله أمرؤ وأطاعه
فيداه بين مكارم وفعال
١٧. وعلى التقي إذا ترسخ في التقي
تاجان ، تاج سكينة وجلال

وهي قصيدة طويلة تفيض بالانفعال الصادق والعزم القوي على الطريق الذي أدت إليه فلسفته في الحياة بعد أن خبرها وبلاها وتأملها واكتوى بنار شرورها . وذاق فيها طعم الحرمان والشقاء ، فأطال التأمل ، وأمعن في النظر فدقق الإمعان ، ثم وصل إلى النتيجة القوية الواضحة التي وثق بها .

وتكاد تكون هذه القصيدة انموذجا متكاملاً لشعره في الذهد ، إذ إنها جامعة لأهم خصائصه الفنية في هذا الاتجاه ، كما أنها تشتمل على الكثير من أسباب فلسفته وزهده ، وسنتعرض لهذا الجزء من هذه القصيدة بالشرح والتحليل لنقف على ملامح الزهد عند الشاعر .

الشرح والتحليل :

✍ **حقيقة الدنيا والبعد عنها :**

يقول أبو العتاهية مخاطباً الدنيا .

١. قطعت منــك حبائــل الآمــال
وحطط عن ظهر المطي رحـــالي
٢. ويئست أن أبقي لشيء نلت مما
فيك يــا دنيــا ، وأن يبقــي لــي
٣. فوجدت برد اليأس بين جوانحي
وأرحت من حلي ومــن ترحــالي
٤. ولئن يئست لربّ برقــة خلــب
برقت لــذي طمــع ، وبرقــة آل
٥. ما كان أشأم إذا رجاؤك قــاتلي
وبنــات وعــدك يعــتجلن ببــالي

اللغــة :

١. **حبائل :** جمع حبالة وهي شرك الصائد .
المطي : جمع مطية من المطاء **وهو :** الظهر.
ويطلق لفظ مطيــة على الذكر والأنثى .
والرحال جمع رحل وهو : ما يعد للرحيل من المتاع .
٢. **اليأس :** القنوط وعدم الرجاء .

الدنيا : نقيض الآخرة وهي أنثى الأدنى وسميت الدنيا لدنوها ، ولأنها دنت وتأخرت الآخرة وكذلك سميت السماء الدنيا لقربها إلينا.

٣. **البرد :** ضد الحر ، **والبرودة نقيض الحرارة** ، والمراد الهدوء والسكينة والفتور.

الجوانح : جمع جانحة وهي الأضلاع التي تحت الترائب والمراد ما تحتويه وهو القلب .

الحل : الإقامة ، الترحال السفر.

٤. **رب هنا تعني :** التكثير.

وبرقه الخلب : لمعة البرق التي لا تعقب مطراً .

الآل : السراب .

٥. **اشأم :** من الشؤم وهو التطير والشر .

بنات الوعد : كناية عن الآمال الزائفة الخادعة .

يعتطن : يسرعن .

المعنى :

يبدأ الشاعر قصيدته بجملة من الحقائق تتمثل في الكشف عن حقيقة الدنيا ومحاولة البعد عنها ، وعدم التعلق بها ، والجري وراء ما فيه من آمال زائفة وغرور يضلل صاحبة ، لذا فإنه لم يعد له طمع في زخارفها الزائلة وزينتها المغرية الخادعة ، ولم الطمع والتعلق بها وبرقها لا يخلف وسرابها دائم الخداع ، وبخاصة وقد ظل طوال الماضي من عمره متعلقاً بها مخدوعاً بسرابها ، مفتونا بزينتها وبهرجها مقتولا برجائه منها ، مشغولا بآماله فيها فما وجد غير السراب ، والهباء المنثور .

والشاعر بذلك يقرر تلك الحقيقة وهي أن الدنيا متاع الغرور وحياة فانية من تعلق بها وانشغل بزينتها وزخرفها ، ساقته إلى الهوان والضياع والخسران وهذا يدل على أن الشاعر قد تمرس الحياة وعاش ضروباً من لذائدها وتعلق بكثير من زخارفها ، وزينتها ، فحديثه عنها وكشف حقيقتها ، يوحي بتجربة صادقة عاشها الشاعر واعتملت نفسه بكل جزئياتها . فخرجت تلك الحقيقة معبرة عن واقعه وما أضحت عليه حاله من جراء تعلقه بها .

هداية بعد ضلال:

٦. فالآن يا دنيا عرفتك فاذهبي
يا دار كل تشتت وزوال

٧. والآن صار لي الزمان مؤدباً
فغدا علىّ ، وراح بالأمثال

٨. وألان أبصرت السبيل إلى الهدى
وتفرغت هممي عن الأشغال

٩. ولقد أقام لي المشيب نعاته
يفضي إلى بمفرق وقذال

١٠. ولقد رأيت الموت يبرق سيفه
بيد المنية حيث كنت حيالي

١١. ولقد رأيت عُرَ الحياة تخرمت
ولقد تصدي الوارثون لمالي

اللغـــة :

٦. **تشتت :** تفرق وهو ضد التجمع .

٧. **مؤدبا :** معلما ومهذباً . **غدا على :** أقبل .

راح : ذهب . **الأمثـال :** القصص والنوادر والعظات.

٨. **بصرت :** رأيت . **السبيل :** الطريق المستقيم .

الهدى : الرشاد والفلاح .

همم : جمع همة وهي الاهتمام وتعني العزيمة والإصرار.

الأشغال : جمع شغل وهو ما يلهي عن غيره من الأعمال.

كما في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾ [1] .

٩. **النعاة :** جمع ناع وهو المصوت بما يكره أي الذي يأتي بخبر الموت .

يفضي : يخبر ويُسر.

المفرق : بكسر الراء وفتحها : وسط الرأس .

القذال : بفتح القاف – جماع مؤخر الرأس والمراد أن رأسه اشتعل شيباً.

١٠. **يبرق :** " يلمع . سيف الموت : علامته كالكبر والمشيب .

حيالي : إزائي ونحوي .

١١. **العرا بضم العين :** جمـع عـروة ، وهـي مبيـت الأزرار في الثيـاب والمـراد أحوال الدنيا وما كان يأمله فيها .

تخرمت : ثقبت وانشقت واخترمته .

المنية : أخذته ، واخترمهم الدهر أي اقتطعهم وأستأصلهم .

تصدى الوارثون : تعرضوا واستعدوا للميراث واقتسامه.

١- سورة يس : الآية ٥٥

المعنى :

بعد أن كشف الشاعر النقاب عن حقيقة الدنيا . وأنها زائفة وفانية . تسلل الندم إلى نفسه وقلبه على ما ضاع من عمره في ظل خداعها وزيفها وتأمله في سرابها . فأعلن قطع صلاته بها بعد أن تعرف إلى طريق الهدى والفلاح وانصرفت غايته عما كان يشغلها من قبل وانقطع للتدبر والتفكر في الاستعداد للآخرة . وكيف لا وقد اشتعل رأسه شيباً وهو رسول من رسل الموت . جاء يحمل سيفه لينقض عليه كما رأى أحوال الدنيا وما كان يأمله فيها قد تقطع من حوله وتمزقت صلاته بها وتراءى له الأبناء وهم يتربصون بساعة فراقه لهم ويترقبون نشوة لقائهم بميراثهم .

وكل هذه أدلة يسوقها الشاعر ليؤكد بعده عن الحياة وعن فعل ما يشينه أو يعيبه باقي عمره وأنه بدأ مرحلة جديدة عرف فيها طريق الهدى والرجوع إلى الله ﷻ .

التقوى سبيل الفلاح :

١٢. ولقد رأيت على الفناء أدلة
فيما تنكر من تصرف حالي

١٣. وإذا اعتبرت رأيت خطب حوادث
يجرين بالأرزاق والآجال

١٤. وإذا تناسبت الرجال فما أري
نسبا يقاس بصالح الأعمال

١٥. وإذا بحثت عن التقي وجدته
رجلا يصدق قوله بفعال

١٦. وإذا اتقـــي الله أمـــرؤ وأطاعـــه
فيـــداه بـــين مكـــارم وفعـــال

١٧. وعلى التقي إذا ترسخ في التقـــي
تاجـــان ، تـــاج ســـكينة وجـــلال

اللغة :

١٢. **الفناء :** الموت والعدم وهي نهاية كل المخلوقات ومنه
قول الله تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (١)

تنكر : تغير وأصبح منكراً . والتنكر التغير عن حال تسرك إلى حال تكرهها منه والمنكر : ضد المعروف .

الحال : الشأن . والمراد أحواله وتصرفاته وأموره .

١٣. **اعتبرت :** تذكرت وتفكرت في عبر الزمان وتصرفاته . ومنه .
قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (٢)

والمراد التذكرة والتفكر والأدكار .

الخطب : الشأن أو الأمر، صغر أو عظم، وقيل هو سبب الأمر.

يقال : ما خطبك ؟ أي ما أمرك . وفي التنزيل العزيز.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (٣)

١- سورة الرحمن : الآية ٢٦.
٢- سورة الزمـــر : الآية ٢١.
٣- سورة الذاريات : الآية ٣١.

أي ما شأنكم وحالكم والجمع خطوب .الآجال : جمع أجل هو العمر المحدود . ومنه قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (١)

١٤ . **تناسبت :** ذكرت أنسابها مفاخرة .

وانتسب واستنسب : ذكر نسبه وجمع النسب أنساب .

صالح الاعمال : الأقوال والأفعال الطيبة وفي التنزيل العزيز :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (٢)

١٥ . **التقي :** من يقي نفسه المحاذير والزلل :

ومنه قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ... ﴾ (٣)

أي أحذروا واحموا أنفسكم .

والتقي : المتقي الذي يجنب نفسه المهالك .

الفعال : الفعل وهو ما يقابل القول ومنه قوله سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٤)

والمراد أن التقي هو الذي يتوافق قوله مع فعله .

١- سورة الأنعام : الآيـــة ٢ .
٢- سورة الكهف : الآيـة ٣٠ .
٣- سورة التحريم : من الاية ٦ .
٤- سورة الصف : الآية ٢،٣ .

١٦. **مكارم :** جمع مكرمة بفتح الميم وضم الراء وهي الأفعال الكريمة

المعالي : جمع (معلاة ، وعلا، وعلاء) بمعنى الشرف الثابت والذكر العالي المرتفع .

١٧. **التاج :** ما يصاغ للملوك من الذهب والجوهر ، والعرب تسمي العمائم التاج وفي الحديث : (العمائم تيجان العرب) جمع تاج أي العمائم للعرب بمنزلة التيجان للملوك .

ترسخ : رسخ الشيء يرسخ رسوخاً : ثبت في موضعه ، الراسخ في العلم الذي دخل فيه دخولاً ثابتاً . وكل ثابت راسخ ومنه :

﴿ ... وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ... ﴾ (١)

أي الثابتون على مدارسة العلم .

سكينة : الاستقرار والهدوء والرزانة . ومنه قوله جلا وعلا :

﴿.. فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا..﴾ (٢)

الجلال : العظمة والرفعة ولا يقال الجلال إلا لله والجليل من صفات الله سبحانه، وقد يوصف به الأمر العظيم والرجل ذو القدر الخطير.

المعنى :

أراد الشاعر بعد ما اهتدى إلى طريق الهداية بعد الضلال أن يرسم صورة واضحة المعالم للتقوى والهداية ، ليسير في ركابها راغبي الآخرة ، وليحيا من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة - وبخاصة بعد أن عرف الإنسان من تصرف الأحوال وتقلب الزمان أن الدنيا زائله فانية ، وأن الآجال والأرزاق لا شأن

١- سورة آل عمران : الآية ٧.
٢- سورة التوبة : من الآية ٤٠.

للإنسان في مجرياتها ، فهي مخطوطة في علم الله الأزلي للإنسان ، تجري بها الأسباب التي كفلها الله للإنسان وهيئها له .

وإذا كان الأمر كذلك فإن التقوى هي معراج الفلاح وسبيل الهدي ، ومنارة السالكين ودرب الإيمان والصدق ، وأن التقي هو الذي تصدق أقواله أفعاله ويري رفعته وعلو نسبه في قربه من ربه بالأعمال الصالحة وبالتقوى.

﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ... ﴾ (١)

والتقي إذا ما أخلص لربه هداه الله للخيرات والأعمال الصالحات من أقوال وأفعال ويكون عبداً ربانيا يقول للشيء كن فيكون ، تنبع الحكمة من لسانه وتسير المكرمات على يديه .

وإذا كان هذا شأن التقوى وسمة المتقين ، فما عليهم إلا أن يتزودا بهذا السلاح وذاك السبيل ليزدادوا وقاراً وسكينة وهيبة .

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ... ﴾ (٢)

١- سورة الحجرات : من الآية ١٣ .
٢- سورة التوبة : من الآية ٤٠ .

جماليات النص وطرائق التعبير :

لقد بلغ من قوة هذه القصيدة في صدق انفعالها وتعبيرها أن أثارت ابن الأعرابي حتى قال في مجلس بعض الخلفاء : " إني ما رأيت قط شاعراً أطبع ولا أقدر على بيت منه ، وما أحسب مذهبه إلا ضربا من السحر " .

- والقصيدة لها أهمية خاصة في حياته النفسية والفنية جميعا ، لأنها تقع على الخط الفاصل الحرج في حياته حين وصل إلى قرار خاص بسلوكه وفنه ، ونلمح ذلك من خلال لهجته وتعبيره الذي يعتمد فيه على ضمير المتكلم في مثل قوله : قطعت وحططت ويئست ، فوجدت ، وأرحت - ترحالي - رحالي - بالي وكلها تلمح بل تدل على ما في نفس الشاعر وما حدث فيها من تغيير وما طرأ عليها من تحول .
- **كما أن تعبيره بالأفعال الماضية في مجال عزوفه عن الدنيا بعد أن تعرف على حقيقتها وسماتها القبيحة فيه دلالة على أنه قد تمرس الحياة أيام الصبابة والهوى وتعلق بالكثير من مغرياتها ، وحمل على عاتقه الكثير من أعبائها نلمح ذلك من خلال قوله : قطعت ، حططت، يئست ، وكأنه بهذا التعبير يلقي عن عاتقه ما كان يتحمله .**
- **كما أنه حين تنتابه نشوة النصر على أهوائه وفرحته بالتخلص مما كان يشغله** يستخدم الأفعال الماضية التي تؤكد انصرافه وعزوفه عن الدنيا ، فتأتي الأفعال وجدت - أرحت ، ولئن يئست لربّ برقة خلب- برقت ، لتؤكد هذا المعنى ولتعطي جمالا في أداء الشاعر وحسن التعبير عن تجربته .

- كما تأتي كلمات الندم وعثور الحظ دليل على إسرافه وإفراطه في الاشتغال بملذات الحياة وانغماسه في أهوائه خلال ماضيه مثل : ما كان أشأم ، رجاؤك قاتلي ، بنات الوعد يعتجلن ببالي .
- هذا بالإضافة إلى إجادته في تخير الصور الفنية المعبرة عما بنفسه والمجسدة لما يحسه في أعماقه تجاه الدنيا وحقيقتها .
- فنرى في البيت الأول صورة رائعة من صور الاستعارة المكنية التي جسدت الآمال شركا وحبائل صيد كثيرا ما أوقعته الدنيا في فخاخها قبل أن يتعرف على حقيقتها كما أن استخدامه لكلمة قطعت تفيد تمام الإجهاز على العلاقة بالدنيا .
- وفي البيت الثالث كناية عن راحة فؤاده وهدأة نفسه بعد أن اعتنق طريق الهدى والفلاح وتكشفت له سمات الدنيا القبيحة ويأسه من أباطيلها وذلك في قوله : فوجدت برد اليأس بين جوانحي .
- وفي البيت الرابع دلالة على إنغماس الشاعر وانصهاره في الحياة اللاهية العابثة قبل عزوفه عنها ، ويقينه بكثرة خداعها وبرق سرابها للراغبين فيها وغير البائسين منها ، لكنه عرف حقيقتها وسبر أغوارها وأبان زيفها وغرورها ويتجلى ذلك في قوله.. لرب برقة خلب برقت لذي طمع ، وبرقة آل .
- وفي البيت الخامس يوظف خياله توظيفاً رائعاً فيأتي بصورة بيانية رائعة أسهمت في تجسيد ما ارتكبه في ماضيه من حماقات وجهل وانشغال بالدنيا .

وفي قوله : " رجاؤك قاتلي " استعارة مكنية تصور شدة حرصه على تحقيق رجائه وآماله .

وفي قوله :" بنات وعدك " كناية عن الأماني الكاذبة والآمال الخادعة التي تزينها الدنيا لراغبيها .

وقبل هذه الصور وتلك الخيالات تتجسد لنا ملامح جدته وصدق نيته في نفرته من الدنيا ومما كان عليه في سالف عهده وذلك في قوله ما كان أشأم .

أما في الأبيات من ٦ : ١١ نرى أن الشاعر يلح في إظهار فكرته تلك التي تتمثل في معرفته طريق النجاة والهدى ، فقد استعمل من الألفاظ والتعبيرات ما يساعده على إبراز تلك الفكرة .

- ففي مجال قراره الفاصل الذي يحاول توكيده يستخدم كلمة (الآن والتي كررت في أوائل الأبيات الثلاثة الأولى والتي تفصل بين واقعة الحالي وماضيه ، ولم يكتف الشاعر بذلك بل حشد الكثير من الألفاظ ، يا دار كل تشتت وزوال ، وصار لي الزمان مؤدباً ، وأبصرت السبيل إلى الهدى وتفرغت همي عن الانشغال ، فكل هذه الألفاظ تبرز أولاً قدرته على تخيره للألفاظ الموحية والمعبرة عما في نفسه . وثانياً فإنها جاءت موفية كما أراده من معنى .
- ثم إنه في فلسفته التي انتهى إليها ، وأصبحت حقيقة واقعة في نفسه ومنهجاً يسير عليه استخدم لبيان ذلك قوله : (رأيت ، ورأى ، وأبصرت) وفي هذه الألفاظ دلالة على وضوح الرؤية وسلامة القصد فيما اتجه إليه .

- كما استخدم أدوات التوكيد ليدلل على أنه لاشك ولا ريبة فيما ذهب إليه وأخبر به وذلك بعد مشاهدته ورؤيته ونلمح ذلك من خلال قوله في صدر ثلاثة أبيات " لقد " ويعقبها بقوله (رأيت)، (وتصدي).
- أما من ناحية الصور والأخيلة ، فإننا نجد أن أبا العتاهية قد صور ورسم بقلمه ما جسده خياله من حسه ومشاعره تجاه واقعه الذي عاشه قبل أن يسلك طريق الهداية والفلاح .
- ففي البيت التاسع نجد الاستعارة الرائعة التي جسدت الشيب وهو يقيم نعاته كما أنه يُفَضي إليه دون أن يستطيع رده وفي هذا ما يؤكد دور المشيب في حياة الإنسان ، على أساس أنه من دلائل وعلامات الفناء ونذير من نذر الموت .
- وفي البيت العاشر يأتي بعدة صور للموت في صور محسوسة لتكون أوقع في النفس وأقرب إلى الواقع الذي أضحى عليه بعد ما تقدمت به السن وأصبح قريباً من الآخرة ، ومن هذه الصور قوله: " رأيت الموت ، يبرق سيفه ، بيد المنية ، وهي صورة يتشخص فيها الموت وتتراءى بها المنية ، كما يبدو الموت بريقاً ولمعاناً ، وهذه استعارة مؤكدة بما لحقها من الاستعارات التي تآزرت جميعاً في إبراز وتصوير المعنوي في صورة محسوسة لتجسد ما في نفسه من انفعالات وعواطف صادقة .
- وفي البيت الحادي عشر ما يشير إلى اللوعة والأسى لما صار إليه من عجز وضعف بحيث لا يقدر على إبقاء سلامته أو صد ما تفعله الحياة بصحته . ويتمثل ذلك في قوله (ولقد رأيت عرا الحياة تخرمت) على سبيل الاستعارة المكنية .

- وفي الأبيات من ١٢: ١٧ ، نلحظ أنها جاءت في صور تغلب عليها الحقيقة بل إنها بعيدة عن الخيال ، فهي عظات وعبر يسوقها الشاعر في أسلوب رقيق وعاطفة صادقة لتنساب عبر الآذان إلى القلوب .
- وقد استطاع الشاعر أن يختار الألفاظ والعبارات التي تؤدي ذلك المعنى التي يعتمد على سرد الحقائق وتكرار النصح والإرشاد وتقديم خلاصة تجربته في الحياة ، والدعوى إلى الهدى .
- وقد استعان الشاعر على بيان ذلك بما التمسه في القرآن الكريم وبما اقتبسه من السنة النبوية ، ومن أقوال الشعراء السابقين .
- ففي البيت الرابع عشر نجد أنه أهتدي إليه من خلال قول الله عز وجل :

﴿ ...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ... ﴾ (١)

حيث عبر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :" وإذا تناسبت الرجال فما أرى نسباً يقاس بصالح الأعمال .

كما التمس المعنى نفسه من قول الحطيئة :

ونقوى الله خير الزاد ذخراً

وعند الله للأتقى مزيد

وفي البيت الخامس عشر نجد انه استعمل لفظ التقي بمعنى المؤمن وفي هذا دلالة على أن الإيمان والتقوى مترادفان – كما نراه يحدد مفهوم الإيمان مستعيناً بقول النبي ﷺ : " الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل ".

١- سورة الحجرات : من الآية ١٣.

كما أنه يتمثل معنى قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ (1)

وهذه المعاني استطاع الشاعر أن يصيغها في قوله :

وإذا بحثـــت عـــن التقـــي وجدتـــه

رجـــلاً يصـــدق قولـــه بفعـــال

وكأنـه يحـث علـى صـدق الإيمـان ومطابقـة الأقـوال للأفعـال حتـى يصـدق إيمانـه وإلا كـان مرائيـاً . وفي الشـعر العربـي مثـل هـذه النصـائح الـتي تكشـف زيـف بعض الناس ممن يراءون وتحثهم على الإخلاص ومن ذلك قول أبي الأسود الدؤلي:

يـــا أيهـــا الرجـــل المعلـــم غيـــره

هـــلا لنفســـك كـــان ذا التعلـــيم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضـــني

كيمـــا يصـــح بـــه وأنـــت ســـقيم

لا تنـــه عـــن خلـــق وتـــأتي مثلـــه

عـــار عليـــك إذا فعلـــت عظـــيم

وفي البيـت السـابع عشـر نجـد أن الشـاعر قـد وفـق في اختيـار كلمـة ترسـخ مضـعف العـين للدلالـة علـى التكـثير مـن عمـل التقـوى ، وتعميـق الإيمـان وزيـادة التحلـي بخير كساء وأحسن ملبس وفي ذلك معنى قوله تعالى :

﴿ ...وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ... ﴾ (2)

1- سورة الصـف : الآيـة 2،3.
2- سورة الأعراف : من الآيـة 26.

وقوله تعالى :

﴿ ...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ... ﴾ (1)

وفي القرآن الكريم آيات تدور في هذا الفلك الذي يدعو إلى ترسيخ الإيمان في القلوب .

✍ والأبيات في جملتها تمثل قطعة روحية لما أشاعه فيها من روح القرآن وهدي النبي ﷺ ، حيث اتجه بها إلى الإرشاد والنصح والتوجيه وفي هذا المقام لا يعتمد الشاعر على الخيال بل يعتمد على الحقيقة المجردة التي لا يصلح غيرها في هذا المقام ، لذا نرى التعانق بين الألفاظ وبين ما يريده الشاعر .

١- سورة الطلاق : من الآية ٢ ، ٣

تعقيب على القصيدة

لقد عبر أبو العتاهية في هذه القصيدة عن رأيه في الحياة ، وأكثر من التعبير طويلاً في هذا المضمار وكان أكثر ما يستغرق همه في نظرته إلى الحياة أنها ليست سوى آمال ضائعة وسراب خادع وأماني كاذبة .

ولعنا نستطيع أن نصل إلى خلاصة رأيه في الحياة في كثير من جوانبها كما رآها وتصورها شرا وبلاء وهموماً ، وعلى أساس ذلك عرض ما ينبغي أن يكون عليه سلوك من تعرف على حقيقة الدنيا ، كما عرض بعض الأسس المثالية التي تصح بها حياة المرء في الدنيا ، وتكون له ذخراً في آخرته .

وهو يبدو من خلال هذه القصيدة وكأنه أخذ على عاتقه ضرورة الأخذ بأيدي الضالين الذين جرفتهم الحياة بعيداً عن سبيل الهدى وسلم الفلاح، ومحاولة إرشادهم إلى طريق الهدى والنور.

ونلحظ كذلك أن الشاعر قد تهيأ له من الصفاء الروحي والخواطر الإيمانية ما جعله يصل إلى طريق الله ، بعد أن ضلّت به الأهواء وشغلته الحياة بغرورها وخداعها ، فكانت تلك العودة الصادقة الممزوجة بإيمان الخائف ويقين الراجي والحريص على لفت أنظار الطامعين في الحياة الراغبين فيها إلى خداعها وزيفها قبل أن تجرفهم تيارات الفساد وعواصف الأهواء .

والقصيدة بما أودعه الشاعر فيها من سلاسة المعاني ورقة الألفاظ وإحكام النسيج ، وبما رسمه فيها من الصور الفنية الرائعة من استعارات وكنايات وتشبيهات ومحسنات لفظية عفوية ، أصبحت لوحة فنية متناسقة الأجزاء ، كما أنها أبانت وأفصحت في جلاء عن غايته وقصده .

كما أن القصيدة تعد صورة حية للحياة في العصر العباسي ، وما كان يدور فيها من الترف واللهو والتكالب على الدنيا ، والانشغال ببهرجتها وسرابها الخادع ، فالقصيدة انعكاسة لكل هذه المظاهر .

ومن خلال هذه القصيدة وغيرها من شعر الزهد عند الشاعر نرى فضل ريادته لهذا اللون من الشعر ، واستحق أن يكون رائد نزعة خلقية وهنت في عصره. فكانت نزعة اللهو والفسق شائعة مألوفة في أدب العصر وبين شعرائه وأدبائه ، أما نزعة التأمل في الحياة والاتعاظ بالموت لم تكن ذات شأن في أدب هؤلاء الأدباء . إلى أن جاء أبو العتاهية فتولاها بشعره السهل وعبر عنها تعبيراً واضحاً . وأخذ يتعهد هذا الفن الشعري حتى أصبح فناً له أصوله وقواعده عند سائر الشعراء لينسجوا على منواله ، وأصبح أبو العتاهية علماً من أعلام أدب الزهد أو شعر الزهد .

ومع هذا فقد أبرز بعض النقاد بعض المآخذ الفنية إلا أنها لا تقلل من القيمة الفنية للقصيدة وذلك مثل ظاهرة التكرار لبعض الكلمات مثل تكراره لكلمة " الآن " في أوائل الأبيات ٦، ٧، ٨ ، وتكراره لكلمة (لقد) في أوائل الأبيات : ٩ ، ١٠، ١١، ١٢ وتكراره لكلمة : (إذا) في الأبيات ١٣ ، ١٤، ١٥، ١٦.

وهذا التكرار لا يعد عيباً كما ذكر النقاد إذ إن القصد منه محاولة إبراز الفكرة التي تدور في ذهن الشاعر ، فيحاول استغراق كل ما يسهم في إظهار تلك الفكرة ، وتكرار كل لفظ من هذه الألفاظ له دلالته التي أشرنا إليها في مواطنها .

وبهذا تعد القصيدة نموذجاً فنياً رائعاً في شعر الزهد .

من الفنون النثرية في العصر العباسي

كان النثر الفني في أوائل العصر العباسي مزيجاً من عدة ثقافات متباينة ، وألوان فكرية مختلفة ، وكان قوامه العلوم والمعارف والثقافات الفارسية والهندية واليونانية .

وقد استطاع النثر العربي بما يتحلى به من مرونة أن يحتوي كل هذه المعارف والعلوم ، ونتج من ذلك أن تعددت شعبه وفروعه العلمية والفلسفية والتاريخية والأدبية والاجتماعية ، فوجدنا كتب التفاسير وكتب الأحاديث وكتب الفلسفة والتاريخ والطب ، والصيدلة والهندسة إلى غير ذلك من العلوم والمعارف التي أنشأها العرب أو ترجمت من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية وعلى الرغم من ذلك فقد ظل النثر العربي محتفظاً بمقوماته الفنية وطابعه العربي الذي يتميز به.

هذا بالإضافة إلى الأنواع الأدبية التي ظهرت في العصر العباسي مثل:

- **فن الخطابة** التي كان لها دوافعها السياسية في أوائل العصر العباسي، حيث أنبروا يدافعون عن حقهم فيما تولوه من خلافة ، وأنهم أولى بها من غيرهم لقرابتهم من آل البيت .

كما كانت هناك الخطب المناوئة للعباسيين وبخاصة من العلويين الذين استقر في أذهانهم أنهم أولى بالخلافة من بني العباس وأنهم استولوا عليها دون وجه حق ، فكل هذه المعاني صيغت في فن الخطابة وكان كل فريق يتبارى في الدفاع عن موقفه من خلال مخاطبة الناس وحسن الإلقاء .

كما كانت هناك الخطابة الدينية التي نالت قدراً من الازدهار والتقدم في العصر العباسي ، وبخاصة في بيئة الوعاظ والنساك وأهل الدين. وكانت خطبهم تعتمد على الدقة في اختيار الألفاظ المعبرة ، وصياغتها وسبكها في عبارات فصيحة تدل على إحساس مرهف وذوق رفيع .

هذا بالإضافة إلى المحاورات والمناظرات التي كان يجريها المتكلمون من المعتزلة وغيرهم والتي كان لها أثر بارز في تطور النثر العربي ووضع أصول علم البلاغة العربية .

- **ومن الفنون النثرية** التي ظهرت في العصر العباسي ، وزاد نشاطها وازدهرت ازدهاراً واضحاً الرسائل الديوانية ، فقد كان لها دوافعها التي أدت إلى ازدهارها ومن أهم تلك الدوافع أنه من كان يُظهر براعة ومهارة في دواوين الخلافة تقبل عليه الدنيا والمنح والعطايا ، ويرقي إلى رئيس الديوان الذي يعمل فيه وقد يصبح رئيساً لمجموعة من الدواوين ، أو وزيراً للخليفة .

كما كان يشترط فيمن يتولى الكتابة : إحسان صناعة الكتابة بمعرفة مادتها اللغوية والأسلوبية المطلوبة ، وأن يكون على قدرة بلاغية تمكنه من الكتابة الرائعة وأن يكون على دراية بالمعارف والعلوم كعلم الفقه واللسان والحساب والطب والنجوم والكيمياء وعلوم الكلام من فلسفة ومنطق وسائر أنواع المعارف كي يرقي إلى الدرجات العليا والمناصب المرموقة .

وقد ظلت أساليب الرسائل مزدهرة في العصر العباسي ، رغبة من أربابها في الحياة الرغدة ، القائمة على العطايا الفائضة ، وكان من أبلغ الكتاب في

العصر العباسي وبخاصة الأول منه : طاهر بن الحسين قائد جيوش المأمون ضد أخيه الأمين .[1]

✍ **ومن الفنون النثرية** التي تنافس فيها الأدباء والشعراء والكُتّاب ، الرسائل الأخوانية والأدبية ، إذ كان لكل خليفة أو وزير أو وال كاتب هو لسان حاله إن لم يكن هو الكاتب نفسه ، وذلك لما أخذوا به أنفسهم من ضروب الثقافة وسعة الإدراك والإحاطة .

هذا وقد دارت في كتب الأدب خلال العصر العباسي رسائل إخوانية وأدبية دبجها كتاب الدواوين والشعراء والأدباء ، وكانت موضوعاتها تدور في محيط الاعتذار الشخصي ، أو سؤال الود ومواصلة المحبة ، ومنها ما كتب في مجال وصف الكتاب والقلم ، ومنها ما كتب في وصف الجنَّة والنار وهذه من قبيل الرسائل الأدبية مثل رسالة الغفران لأبي العلاء المعري .

لكن لا يفوتنا أن أساليب النثر في هذا العصر قد غلب عليها السجع حتى أصبح أبرز سماته آنذاك ، بالإضافة إلى البديع كالطباق والجناس والمشاكلة ، مع الالتزام بالصور والأخيلة والتشبيهات التي توافق روح العصر وذوقه .

---

١ - أنظر جزء من رسالة إلى ابنه عبد الله في تاريخ الطبري ج٧/١٦٠ وما بعدها .

من رسالة الغفران لأبي العلاء المعري

ترجمة أبي العلاء : . أصله ومولده :

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري وكنيته ابو العلاء . واسم بلده معرة النعمان . وهي قرية صغيرة في شمال سوريا بين حلب وحمص .

وقد ولد يوم الجمعة الثامن والعشرون من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة هجرية . وهي توافق سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ميلادية.

نشأته وثقافته :

في السنة الرابعة من عمره (٣٦٧ هـ) أصيب المعري بالجدري . فكاد يودي بحياته . ولم يغادره حتى ذهب بعينيه وأصيب بالعمى . وبهذه الحادثة تمت أول نكبه أعدها له القدر . فكان لها في حياته أكبر الأثر . ثم ذهب وهو على هذا الحال إلى الدراسة في " حلب " بعد أن أتم الدراسة على أبيه . وكانت حلب آنذاك مكتظة برجال العلم والأدب . الذين ملأوا حلب علماً وأدباً . فانتفع بعلمهم أبو العلاء . ثم سافر إلى أنطاكية وفيها اطلع على نفائس الكتب التي وجدها في مكتبتها الشهيرة . وكان بها كثير من الروم الذين شاهد أبو العلاء صولتهم واعتزازهم بها .

ثم سافر إلى طرابلس الشام . ومر باللاذقية ونزل بدير فيها . وأخذ عن راهب كثيراً من أرائه في الفلسفة وغيرها . وقويت الصلة بينه وبين النصارى واليهود . وتمكن من دراسة دينهم ومناقشتهم فيه . ثم عاد إلى بلده ومسقط رأسه معرة النعمان . ومات أبوه وهو في الرابعة عشرة من عمره سنة ٣٧٧هـ فرثاه بنونيته المعروفة في سقط الزند . وهي تمثل شعره في تلك الفترة .

وقد ظل في بلدته حتى سنة ٣٩٨ ، ثم رحل إلى بغداد وهناك ذاع صيته بعد أن أطلع على العلوم والمعارف التي كانت تذخر بها بغداد آنذاك ، واشترك في المجامع العلمية والأدبية العامة والخاصة ، ثم تحولت به الأقدار والأحوال فغادر بغداد وقد مرضت أمه وأصبح فقيراً ، على الرغم من أنه كان شاعراً وكان يمكنه أن يتكسب بشعره مثل كثير من الشعراء في عصره ، لكن أنفته منعته أن يتكسب بشعره وأدبه ، وقد حزن أهل بغداد على رحيله عنهم ، وكان ذلك سنة ٤٠٠هـ .

وهو في طريقه إلى المعرة إذ وافاه نعي أمه ، فتمت نقمته على الدنيا .

وكانت هذه الصدمات التي تلقاها في حياته ، سبباً في اعتزاله عن الناس . لكن الناس لم يتركوه لعزلته ، فالتف حوله الطلاب وأقبل عليه الكثير من المعجبين والمريدين له ليتلقوا العلم على يديه ، وكان له وقف يحصل منه كل عام على ثلاثين ديناراً يعطي خادمه نصفها وينفق على نفسه النصف الآخر ، فكان فقيراً زاهداً لم يتكسب بأدبه وعلمه .

وبعد ذلك يقتضينا المقام أن نذكر أنه أول من خط للشعر العربي طريقاً جدية فلسفية خاصة به وملأ شعره بأسمى المباديء الاجتماعية والأدبية والعالمية التي انفرد بها - دون سواه - من بين شعراء العربية .

يقول عنه الدكتور طه حسين : " فأبو العلاء فذ في الأدب العربي كله، وصَلَ من حقائق الأشياء إلى ما لم يصل إليه أديب عربي قبله أو بعده".

بل إنه يعده أحد الرواد العالميين القلائل فيقول : " فأبو العلاء فذ يعد من هذه القلة الضئيلة التي يمتاز بها الأدب العالمي الرفيع على اختلاف العصور وتباين أجيال الناس وتفاوت حظوظ هذه الأجيال من الحضارة ورقي الشعور . فإذا فخر الأدب اليوناني القديم بأبيقور ، وإذا فخر الأدب اللاتيني القديم

بلـوكـريس . وإذا فخـرت الحضـارة الأوربيـة الحديثـة بأدبائهـا وفلاسـفتها المتشائمين ، فمن حق الأدب العربي أن يفخر بأبي العلاء " .

ثـم يتنـاول صـفاته العلميـة فيقـول :" فقـد كـان أبـو العـلاء فيلسـوفاً عميـق الفلسـفة صـادق النظـر في أمـور الحيـاة والأحيـاء ، وكـان أبـو العـلاء شـاعراً رفيـع الشـعر نقيـه خلابـه يبلـغ بـه مـن الروعـة الهادئـة في كـثير مـن الأحيـان مـا لم يبلغـه الفحـول مـن شـعراء العربيـة في قـديمها وحـديثها ، وكـان أبـو العـلاء أديبـاً ، وعـي مـن الأدب مـالا نعـرف أن أحـداً مـن أدبـاء العـرب وعـي مثلـه . وكـان أبـو العـلاء صـاحب خيـال نفـاذ ، يصـعد إلى أرقـى مـا يسـتطيع الخيـال أن يبلـغ وينفـذ إلى أعمـق مـا يستطيع الخيال أن ينفذ إليه [1]

وقبـل شـهادة طـه حسـين هـذه ، فقـد بلـغ أبـو العـلاء منزلـة رفيعـة بـين مريديـه آنـذاك وإمـارة ذلـك أن وقـف علـى قـبره نيـف وثمـانون شـاعراً يرثونـه بُعيـد وفاتـه ، فكـان بـلاغ قـولهم مطلـع قصـيدة لأحـدهم - أبـي الفـتح الحسـن بـن عبـد الله بـن حصينة - حيث يقول :

العلـم بعـد أبـي العـلاء مضـيع

والأرض خاليـة الجوانـب بلقـع

هـذا مثـل مـن أمثلـة الإعجـاب الـذي اتفـق عليـه أولئـك الشـعراء ، وكـانوا فيـه ترجماناً لمئات أو ألوف المعجبين ، لم ينظموا الرثاء ، ولم يقفوا على ثراه . [2]

وكانـت وفاتـه يـوم العاشـر مـن ربيـع الأول سـنة تسـع وأربعـين وأربعمائـة هجرية ، عن عمر نيف على الثمانين عاماً .

١- صوت ابي العلاء ص٦ ، ٧ دار المعارف .
٢- أنظر رجعه أبو العلاء - ص ٤ ، عباس محمود العقاد .

آثـــاره :

كـان لأبـي العـلاء مؤلفـات عديـدة . لكـن أكثرهـا قـد فقـد لسـوء الحـظ . ولم يبـق للمكتبـة العربيـة منهـا إلا ديـوان سـقط الزنـد ويحتـوي شـعره في عهـد الشـباب - ولـيس فيـه إلا بضـع قصـائد بلغـت الـذروة في الإجـادة . أمـا البـاقي فـأكثره . متكلـف أفسدته المبالغات والتقليد . وقد اعترف بذلك في مقدمته لهذا الكتاب .

ومـن أثـاره كـذلك كتـاب اللزوميـات . ويعـد مـن أنفـس الـدواوين العربيـة ويحتـوي علـى منهجـه الفلسـفي في الشـعر علـى الـرغم مـن هـذا القيـد الـذي أخـذ بـه نفسـه وهـو مضـاعفة القافيـة . ولـه كـذلك ديـوان الـدرعيات ، واعـتني فيـه بوصـف الـدروع ولـه رسـائله الـتي طبعهـا مرجليـوث ، ورسـالتا الغفـران والملائكـة . وكتـاب الأيـك والغصـون وقـد بلغـت أجـزاؤه أكثـر مـن مائـة جـزء وعلـى الـرغم مـن ذلـك فقـد فُقد كله .

هـذا وقـد كـان أبـو العـلاء محبـاً لـلأدب (شـعره ونثـره) وكـان لـه في كـل منهمـا بعض المأثور . ومن أشعاره في فلسفته عن الموت يقول :

يمـوت قـوم وراء قـوم
ويثبـت الأول العزيـز
كـم هلكـت غـادة وكعـاب
وعمـرت أمهـا العجـوز
أحرزهـا الولـدان خوفـاً
والقبـر حـرز لهـا حريـز
يجـوز أن تبطـيء المنايـا
والخلـد فـي الـدهر لا يجـوز

ومن اشعاره كذلك :

أولو الفضـــل فـــي أوطانهـــا غربـــاء
تشـــذ وتنـــأى عـــنهم القربـــاء
فمـــا ســـبئوا الـــراح الكميـــت للـــذة
ولا كـــان مـــنهم للخـــراد ســـباء
وحسب الفتى من ذلـــة العـــيش أنـــه
يروح بأدنى القـــوت وهـــو حبـــاء

التعريف برسالة الغفران :

رسالة الغفران هي عمل أدبي رائع غاية في الدقة والإبداع والخيال السامق. كما أنها آية في البلاغة والفصاحة اللفظية ، وآية للتفكير العربي ، وآية الخيال العربي ، وآية السخرية العربية .

وهي في مضمونها ، تصور مقابلة الشاعر لبعض الأشخاص في العالم الأخر ممن نعموا بالغفران أو حرموا منه - في تصوره وخياله - وفيها يناقش كل واحد منهم فيسأل أصحاب الفريق الناجي " بم غفر لك "؟ فيجيب كل واحد منهم بما نجاه من العذاب ، ويشرح له السبب في دخوله الفردوس ، ويصف له كيف يتمتع به ، كما يسأل بعض أفراد الفريق الثاني ممن حقت عليهم اللعنة وكتب عليهم الشقاء في تصوره " لم لم يغفر لك قولك كذا ؟ فيجيبه أكثرهم عن السبب ، ويشرحون له ما يقاسون من ألم وعذاب ، ويصمت بعضهم لانشغالهم بما هم فيه من نكال وغصص.

وهذا معناه أن الرسالة تقوم على الحوارات التي تجري في عالم الآخرة . كما يتمثلها ويصدرها خيال الشاعر أو الأديب . ومما دفعه إلى كتابة هذا العمل أنها جاءت رداً على رسالة ابن القارح . وهو على ابن منصور " الملقب بدوخلة . والمشهور بابن القارح وكان قد أرسلها إلى أبي العلاء طالباً الرد عليها . وهذا ما دفعه إلى هذا الإبداع الأدبي لذا فقد أثنى أبو العلاء على رسالة ابن القارح وأطرى كلماتها لكي يتوصل إلى غايته التي رمى إليها من إبداع رسالته . فقد تمثل أبو العلاء الملائكة ترفع كلمات رسالة ابن القارح إلى السماء متخذاً من قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ... ﴾[1]

وسيلة إلى تمثل الأشجار وقد غرست في جنة الفردوس . بعدد كلمات رسالة ابن القارح لأنها جميعها مما ينطبق عليه معنى الآية الكريمة .

وقد استدعى ذكر أشجار الجنة ذكر أنهارها وما فيها من خمر . وتنزه ابن القارح فيها وتمتعه بنعيمها وتعرفه بأهلها . ثم جره ذلك إلى وصف دخوله الجنة مع من غفر لهم وعلى الوجه المقابل ذكر أهل النار وزيارته لهم وسؤالهم عما جرهم إلى هذا المصير المؤلم . وهكذا تسير الرسالة في هذا المضمون .

وفي تعريفها ووصفها يقول الكاتب محمد فريد وجدي : " إن أجمل ما كتبه - أي أبو العلاء - وأجمعه لآرائه في الدين والعلم والأخلاق وفي أساليب الشعر وفنونه . ورجاله وعيونه . آيته الموسومة برسالة الغفران . فقد صورت من نفسه ما لم يصوره شعره للدهماء ففي الشعر حوائل من الأوزان والقوافي . لكن النثر - لخلوه من هذه الحوائل - تتجلى فيه روح صاحبه بأحلى مظاهرها ..."

١- سورة ابراهيم : من الآية ٢٤، ٢٥.

" من رسالة الغفران "

يقول أبو العلاء المعري في وصف رسالة ابن القارح :

وصلت الرسالة [١] التي بحرها بالحكم مسجور [٢] ومن قرأها لاشك مأجور [٣] إذ كانت تأمر بتقبل الشرع [٤] وتعيب من ترك أصلاً إلى فرع ، وغرقت في أمواج بدعها الزخرة ، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة ، ومثلها من شفع ونفع وقرب عند الله ، وفي قدرة ربنا - جلت عظمته - أن يجعل كل حرف منها شبح نور لا يمتزج بمقال الزور ، ولعله - سبحانه - قد نصب لسطورها المنجية من اللهب ، معاريج [٥] من الفضة أو الذهب ، تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء بدليل الآية :

﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ...﴾[٦]

وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا..﴾[٧]

وفي تلك السطور كلم كثير ، كله عند الباريء - تقدس - أثير . [٨]

١- يعني رسالة ابن القارح .
٢- مملوء.
٣- مثاب .
٤- التزامه أو العمل على إتباعه والتمسك به .
٥- جمع معراج وهو السلم أو المصعد (بكسر الميم وفتحها).
٦- سورة فاطر : من الآية ١٠.
٧- سورة إبراهيم: من الآية ٢٤، ٢٥.
٨- مأثور : محبوب.

ويقول في وصف الفردوس :

وقد غرس لمولاي الشيخ الجليل إن شاء الله - بذلك الثناء - شجر في الجنة لذيذ إجتناء ، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظل غاط [١] والولدان المخلدون في ظلال تلك الشجرة قيام وقعود ، يقولون - والله القادر على كل شيء عزيز" نحن وهذه الشجرة صلة من الله لعلي ابن منصور [٢] فخبأ له إلى نفخ الصور وتجري في أصول ذلك الشجرة أنهار تختلج [٣] من ماء الحيوان [٤] والكوثر يمدها في كل أوان ، من شرب منها النغبة [٥] فلا موت ، قد أمن هنالك الفوت [٦] وسعد من اللبن متخرفات لا تغير بأن تطول الأوقات ، وجعافر [٧] من الرحيق [٨] المختوم كما قال علقمة [٩] :

تشفي الصداع ولا يؤذيه صاليها
ولا يخالط منها الرأس تدويم [١٠]

ويعمد إليها المغترف بكؤوس من العسجد [١١] وأباريق خلقت من الزبرجد، لو رآها أبو زيد [١٢] لعلم أنه ما تشبب بخير، وهزيء بقوله :

١- ظليل .
٢- هو ابن القارح.
٣- تنتزع ، تحرك، تطير.
٤- الحياة.
٥- النبغة : الجرعة .
٦- الضياع
٧- أنهار كبيرة .
٨- أطيب وأفضل أنواع الخمر .
٩- علقمة الفحل توفي سنة ٥٦١ شاعر جاهلي عمر طويلا اسمه علقمة ، وكنيته ابن عبده ، ولقبه الفحل ، وموطنه نجد، وعشيرته تميم - وهو من سادتها .
١٠- لا يخامر . تدويم : الدوار يعقب السكر .
١١- الذهب .
١٢- ابو زيد لعله يعني ابا زيد الأنصاري المتوفي سنة ٢١٥هـ الثقة في النحو واللغة ، وأمام كثير من علماء البصرة ، ومؤلف كتاب النوادر في اللغة المطبوع في بيروت سنة ١٨٩٤ ، وكتاب القوس والترس ، وكتاب (الإبل) وكتاب (خلق الإنسان) وكتاب (المطر) وكتاب (المياه) وكتاب (بيوتات العرب) وكتب أخرى .

وأباريق ، مثـل أعنـاق طيـر الـ

ماء قـد جيـب فـوقهن خنيـف[١]

ولـو نظـر إليهـا علقمـة لـبرق[٢] وفـرق[٣] وعلـم أنـه قـد طـرق [٤] ، مـا ابـن عبـدة [٥] ومـا فريقـه ؟ قـد خسـر ، وكسـر إبريقـه . نظـرة إلى تلـك الأبـاريق خـير مـن نبـت الكرمـة العاجلية ومن كل ريق ضمنته هذه الدار الخادعة .

ولـو بصـر بهـا عـدي بـن زيـد [٦] لشـغل عـن المدام والصيد واعـتراف بـأن أبـاريق مدامـه أمـر هـين لا يعـدل بنـا بـت مـن حمصـيص [٧] أو مـا حقـر مـن خـر بصـيص [٨] فأما الأقشير السعدي [٩] فإنه قال - ولعله - سيندم :-

أفنى تلادي وما جمعـت مـن نشـب

قرع القـوازيز أفـواه الأبـاريق[١٠]

مـا هـو ومـا شـرابه ؟ تقضـت في الخائنـة آرا بـه ! لـو عـاين تلـك الأبـاريق لأيقـن أنـه فـتى بـالغرور وسـر بغـير موجـب للسـرور ، وكـم علـى تلـك الأنهـار مـن آنيـة زبرجـد وياقوت بين أصفر وأحمر وأزرق يخال أن لمس أحرق ، كما قال الصنبوري :

١- جيب : شق أوقد ، خنيف : ثوب غليظ أبيض من الكتان.
٢- برق : تحير . وهش .
٣- فرق : اشتد فزعه .
٤- طرق: ضعف عقله.
٥- كنيته علقمة الفحل .
٦- عدي بن زيد العبادي شاعر جاهلي نصراني . قبيلته تميم ، وموطنه الحيرة دخل الأرياف فثقل لسانه .
٧- بقلة رملية حامضة .
٨- نبات له حب يتخذ منه طعام والغرض هنا التحقير .
٩- الأقشير كنيته أبو معرض . موطنه الكوفة ، كان أحمر الوجه فسمي الأقيشر ، وكان خليعا ماجنا سكيرا ، وهجاء مقنعا . يغضب اذا قيل له " يا أقيشر ".
١٠- تلادي : قديمي ، نشب : مال ، القوارير : جمع قازوزه وهي قدح الشرب - والمعنى أذهب ثروتي قديمها وحديثها - ادماني معاقر الخمر .

تخيلـــــه ســــــاطعاً وهجـــــه

فتـــأبي الـــدنو إلـــى وهجـــه

وفي تلـك الأنهـار أوان علـى هيئـة الطـير السـابحة [١] والغانيـة عـن السـائحة[٢] فمنهـا مـا هـو علـى صـور الكراكي وآخـر تشـاكل المكـاكي ، وعلـى خلـق طـواويس وبـط ، فـبعض في الجاريـة وبعـض في الشـط ، ينبـع مـن أفواههـا شـراب كأنـه مـن الرقـة السـراب ، لـو جـرع منـه جرعـة الحكمـي [٣] يحكـم بأنـه الفـوز ، وشـهد لـه كـل وصـاف للخمـر - مـن محـدث وعتيـق أن أصـناف الأشـربة المنسـوبة إلى الـدار الفانيـة كخمـر عانـه وأذرعـات وغـزو وبيـت رأس ، وجلـب مـن بصـرى ومـا اعتصـر بصـرخة أو أرض شـام . ويعـارض تلـك المدامـة أنهـار مـن عسـل مصـفى مـا كسـبته ، النحـل الغاديـة إلى الأنـوار ، ولا هـو في مـوم [٤] متـوار . ولكـن قـال لـه العزيـز القـادر " كـن " فكـان واهـاً لذلك عسـلاً لـو جعلـه الشـارب المحـرور غذاءه طـول الأبـد مـا قـدر لـه عـارض مـوم [٥] ولا لبس ثوب المحموم وذلك كله بدليل الآية :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ .... ﴾[٦]

١- المانية .
٢- البرية.
٣- الحكمي : هو الحسن بن هانيء الحكمي ويكنى أبا نواس ١٤٥-١٩٩ هـ ولد بالأهواز ونشأ بالبصرة ثم انتقل إلى بغداد وهو في الثلاثين من عمره وهناك طار صيته ، واتصل بالرشيد ثم بابنه المأمون .
٤- موم : شمع.
٥- موم مرض شديد الوطأة .
٦- سورة محمد : من الآية ١٥

ولو خالط من [1] عسل الجنان وما خلقه الله سبحانه في هذه الدار الخادعة كالصاب والمقز [2] لعدمن اللذائذ المرتقيات .

فأما الأنهار الخمرية فتلعب فيها أسماك هي على صور السمك بحرية ونهرية ، فإذا أمد المؤمن يده إلى واحدة من ذلك السمك شرب من فيها عذباً لوقعت الجرعة منه في البحر - الذي لا يستطيع ماءه الشارب لحلت منه أسافل وغوارب [3]

١- المن كل ظل ينزل من السماء على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلا ويجف جفاف الصمغ ، والمن كيل أوميزان يبلغ رطلين وقيل المن شرعا مائة وثمانون متقالاً ، وعرفا مائتان وثمانون أو المقصود مكيال صغير .
٢- المقز : المر .
٣- المغارب هو الكاهل أو ما بن السنام إلى العنق والمقصود به هنا سطح البحر .

تحليل وتعليق

تناول أبو العلاء في رسالته موضوعاً مهماً في حياة البشرية وبخاصة المؤمنين الذين يأملون من الله المغفرة والرضوان، يوم القيامة، والفوز بجنات الفردوس بما فيها من نعيم مقيم لا يقطع ولا يمنح.

وقد عالج أبو العلاء هذه القضية علاجاً ينم عن اقتداره ويشهد على اتساع ثقافته واتقاد ذهنه، ونبوغه الفطري السليم، ويكشف عن مدى تعلقه بالدار الآخرة وعزوفه عن الدنيا وبغضه لها.

والحق أنه بدأ رسالته بوصف رسالة ابن القارح التي كانت باعثاً حقيقياً له في كتابة هذه الرسالة الموسومة " برسالة الغفران " فبين أنها أي رسالة إبن القارح مملوءة بالدرر واللآلأ، إذ إنها تأمر بالإقبال على الشرع والتمسك بآدابه وتعاليمه السمحة كما أنها تعيب الذين ينأون بأنفسهم عن نور الهداية والحق، ومن منطلق قول الله تعالى:

﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ...﴾[1]

وقوله جلت قدرته:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا..﴾[2]

من منطلق هذا القول الكريم، تخيل الكاتب أن هذه الرسالة بما تشتمل عليه من معان قيمة وحكم بالغة، قد رفعتها الملائكة على سلم من ذهب وفضة لتستقر عند الله جلت عظمته.

١- سورة فاطر: من الآية ١٠.
٢- سورة إبراهيم: من الآية ٢٤، ٢٥.

ثـم انتقـل الكاتـب إلى مـا يرغـب بـه نفـس المـؤمن ، ويحفـزه إلى عمـل الصـالحات والاجتهـاد في طاعـة ربـه ، لينـال الـدرجات العـلا وجنـات الفـردوس الـتي فيهـا مـالا عـين رأت ولا أذن سمعـت ولا خطـر علـى قلـب بشـر ، فوصـف الفـردوس ومـا فيهـا متخـذاً مـن القـرآن والسـنة دلـيلاً علـى صـدق مـا يقـول ففـي الفـردوس أنهـار الخمـر وأنهـار اللـبن ، وأنهـار العسـل المصـفي وأنهـار تجـري فيهـا ميـاه رائقـة عذبـة مـن شرب منها جرعة يأمن من الضياع والموت .

ويتطـرق الكاتـب إلى وصـف أوانـي الجنـة مـن الكـؤوس الذهبيـة والأبـاريق الفضـية والزبرجديـة وهـي أوانـي لا تضـاهيها أوانـي الـدنيا ولـو كانـت علـى قـدر مـن الأبهة والعظمة .

وقد استعان الكاتب على إيراد هذه الأوصاف بعدة طرق فنية منها :

- أنـه أعتمـد في إيـراد هـذه الأوصـاف علـى ثقافتـه الإسـلامية الـتي اسـتقاها مـن القـرآن الكـريم والسـنة النبويـة ، ممـا يـدل علـى أن الكاتـب كـان ذا ثقافـة إسـلامية ملمـة بـالقرآن والسـنة فيمـا يتعلـق بوصـف الجنـة ونعيمهـا. ومظهـر ذلـك الآيـات القرآنيـة الـتي أوردهـا في ثنايـا الرسـالة مثـل قولـه تعالى في وصف الكلام الطيب والعمل الصالح وجزائه :

﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ...﴾[1]

وفي وصف الجنة وما فيها من نعيم للمتقين يورد الكاتب .

١- سورة فاطر : من الآية ١٠.

قول الله تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ .... ﴾[1]

هذا بالإضافة إلى الألفاظ الموحية المعبرة عما يتحدث عنه في وصف الجنة وأهلها مثل : الكوثر ، الرحيق المختوم - كؤوس طير ، أباريق - آنية - ياقوت - خمر - نخيل - ثمرات - وكلها كلمات تتناسب مع وصف الجنة التي أعدها الله للذين منّ عليهم بالمغفرة .

- ومن طرائق التعبير كذلك والتي دلت على ثقافته العربية بالإضافة إلى ثقافته الإسلامية ما أورده الكاتب من أسماء لفحول الشعراء في العصر الجاهلي وما تلاه من عصور مثل علقمة الفحل في العصر الجاهلي ، وعدي بن زيد ، ومن شعراء عصره أبو نواس ، وجاء ذكرهم في معرض أنهم لو علموا حقائق ما أعد الله للمؤمنين من النعيم لأقلعوا عن غيهم .
- كما كان من طرائق تعبيره أنه استخدم السجع الذي جاء بمثابة جرس موسيقي أعطى للرسالة رونقاً وبهاء وإن جاء في بعض الأحيان متكلفاً متصنعاً . هذا بالإضافة إلى بعض الألفاظ الغريبة التي لا يستطيع فهمها مثل القوازيز ، خربصيص خمصيص - جعافر - موم إلى غير ذلك من الكلمات التي يندر استعمالها ، كما أطال في سرد عبارات غامضة أو ضرب أمثال شارده أو ذكر مالا يعني إلا العربي القح في ذلك العهد .

١- سورة محمد : من الآية ١٥ .

✍ استطاع الكاتب في هذه الرسالة أن يوظف خياله توظيفاً رائعاً ، انفرد به انفراداً تاماً ، وبخاصة في هذا الفن النثري ، فلم يسبق إلى هذا الأسلوب الفني الذي يعتمد على الخيال وحسن الفهم ، مما أعطى لها الصبغة الفنية التي خلدتها في سجل الفن الأصيل .

والناظر في هذا النص يجد فيه من الوحدة والتمازج ما يبعث على الإعجاب بعقلية هذا الكاتب وموهبته الفذة ، وقدرته الفنية ، التي أسهمت في صياغة هذا الفكر والتعبير عن ذلك الخيال المبهر ، في قالب فني رائع علا سجعه وانسجم نظمه وكثرت غرائبه وأوحت كلماته ، وسلمت معانيه .

كما تمثل الرسالة تقدم النثر ورقيه في العصر العباسي ومدى ما وصل إليه من ازدهار وتطور على يد هذا الكاتب الذي تأثر بعلمه وهذا بعض الكتاب العالميين في بعض أعمالهم الإبداعية مثل تأثر " دانت " في الكوميديا الإلهية .

نونية العقاد

يقول العقاد في سبب نظم هذه القصيدة :" كنا نقرأ أنا وصديقاى الشاعران النابغان " المازني " و" على شوقي " قصيدة " ابن الرومي " النونية التي يمدح بها " أبا الصقر " فلما فرغنا من تلاوتها وقضينا حق إطرائها ونقدها خطر لنا أن يعارضها كل منا بقصيدة من بحرها وقافيتها فنظم المازني قصيدته في مناجاة الهاجر، ونظم " شوقي " قصيدة في هذا المعنى، ونظمت أنا هذه القصيدة . فأهديتها إلى روح " ابن الرومي " وفيها يقول العقاد :

يُهنيكَ يا زهرُ أطيارٌ وأفنان
الطَّير يَنْشُد والأفنانُ عيدانُ
طُوباكَ لستَ بإنسان فتشبهني
إني ظَمِئتُ وأنتَ اليومَ رَيان
هذا الربيعُ تجلَى في مَواكبهِ
وهَكذا الدَهر آن بَعدَها آنُ
تَفَتَحتْ عنه أكمامُ السماءِ رِضَى
وزفهُ من نَعيم الخُلدِ رضوانُ
وشائعُ النَورِ في البُستان باسمةٌ
والأرضُ حَاليةٌ ، والماءُ جَذْلانُ
الشمسُ تَضْحكُ والآفاقُ صافيةٌ
جلْواء والرَّوضُ بالأثمارِ فَيْنانُ

وللنَّســـيم خُفــوقٌ فـــي جوانبـــه
وللطُيـــورِ تَـــرانيمٌ وألحـــانُ

في كلِّ رَوْضِ قُرى للزَّهـر يَغمُرهَـا
يـا حَبـذا هــي أبيــاتٌ وسُــكانُ

مُستَأنسَاتٌ سَـرى مـا بيْنهـا عَبـق
كمـا تَراسَـلَ بالأشْـواقِ حبّـان

الــوَردُ يحمــرّ عُجْبــاً فــي كمَائِمــه
والياسمِينُ على الأغْصَـان مِيسَـانُ

وللقُرنفُــلِ أثْــوابٌ ينوِّعهـــا
عن البلـور صـنَاعُ الكَـف رِقَـانُ

وللبنَفْســجِ أمْســاحٌ ممسَّــكةٌ
كأنــه رَاهِــبٌ فــي الــدَّير

وحبــذا زَهْــرُ الليمــونِ يُسْــكِرنُا
منهن جَام خَلا مـن مثِلـه ألحـانُ

واللَيــلُ يُحييــه والأُطيــارُ هَاجِعــةٌ
بَلابِــلُ وشَــحَارِير وكِــرْوانُ

مؤذن الطَيــر يَـدْعُو فيــه محتسـباً
فَيسْــتَجيبُ لــهُ بــرٌ وغيَــانُ

والصبحُ فـي حُلـلِ الأنْـوارِ طـرزه
في الشرقِ والغربِ أسْحَارٌ وأصلانُ

كأنما الأرضُ في الفــردوسِ سَــابحةٌ
يحدُو خُطاها مــن الأمــلاكِ ربَــانُ
ضاقَ الفَضاءُ بما يحويْــه مــن فــرحٍ
فكلّ مَــا فــي فَضــاء الله فرْحَــانُ
إلا المحـــبَّ الـــذّي لا حُبُــه دَنــس
ولا مَودتُـــهُ خِـــبٌ وإدّهَـــانُ
نَفَــاه عــن غُــرس الــدُّنيا شَــواغلهُ
إنّ الحِدادَ عــن الأعْــراسِ شُــغلان

* * *

مَــا للطبيعــةِ تَجلُــو حَفْــلَ زينَتهَــا
حتى لكــاثر منهــا اللّمــحَ ألْــوانُ
كأنَما مرنَت من طُــولِ مــا صَــنَعتْ
فليس يُخْطِئها فــي الصــنع إتقــانُ
رُحْمَاك يَارب إنّ النّــاس قَــدْ غُلبــوا
على الوقــارِ ، وللأهْــواءِ شــيْطانُ
لَقَــدْ علمــتَ بأنَــا لا قــرارَ لَنــا
مَع الجمالِ ، وأنَّ الصــبرَ وهنــانُ
فَمــا لَنــا كلَمَــا دَارتْ نَواظرُنَــا
مُــدَّت إلــيهن أوْهَــاقٌ وأشْــطَانُ
مــن كــلّ ألأقــهِ بالْحســن طَلعتــهُ
مُسْتَملح التّيهِ ، يغطُو وهو خَجْــلانُ

تَنْصَاحُ طرَّتـــه عـــن صُـــبحِ غرَّتـــهِ
فيَفْضَحُ الصُّبحَ وجهٌ منـــه ضَـــحْيانُ
إذا النَّهـــارُ تجلّـــى مـــن أســـرَّته
صـــحتْ قلـــوبٌ تحييـــه وأجْفـــانُ
تَرنح اللـــين فـــي عِطْفَيـــهِ واتَّســـقَتْ
فيه الحُلَي ، فهو للأبْصَـــارِ ميـــدانُ
ويســـتهلُّ بـــروضٍ مـــن ملاحتـــه
كما استهلُّ بروض الزَّهـــرِ نَيسَـــانُ
بالغصن شَـــبهُهُ مـــن لـــيسَ يعرفـــهُ
وإنَّمـــا هـــو للـــرائينَ بُسْـــتانُ
وهلْ نماقط في غصـــن علـــى شَـــجَرٍ
آسٌ وورْدٌ ونســـــرينٌ وسَوْســـــانُ

* * *

يَا مَنْ يَرانـــي غَرِيْقـــاً فـــي مَحبتـــهِ
وجداً ، وَيسْألني هَلْ أنـــتَ غَصَـــانُ
واضـــيعةَ الحـــب أبديـــةِ وأكتمـــهُ
ومن عُنَيْتُ بـــه عَـــنْ ذَاكَ غفْـــلاَنُ
لي في مَـــدِيْحِكَ أشْـــعَارٌ أضـــنُ بهـــا
على امرئٍ فَخْرُهُ عَـــرشٌ وإيـــوانُ
على محَيَّاكَ من وشْـــى الصـــبا روَع
وللمُحبـــينَ أحـــداقٌ وأعْيـــانُ

ففِـــيم تعـــذلُهم إن راحَ نَـــاظِرُهم
بِحُسنِ وجْهِك يهــذي وهَــو ولهــانْ
ما الحُسن ذنباً ، فَمــا للحــب تحسِــبهُ
ذنباً من النَّــاسِ لا يَمْحُــوه غُفْــرَانْ
همــا شَــقيقان فــارفقْ أنْ تحيلهُمــا
ضِــدَّين بينهَمــا نــأىٌ وهُجــرانْ
من علُــم النَّــاس أنَّ الحــبُ مأثمــةٌ
حتى كأنْ ليسَ غَير البُغضِ إحْسَــانْ
هَبهــا جنَايــةَ جَــان أنــت آثمُهــا
مَا كَانَ يُعصــم لا إنــسٌ ولا جَــانْ
إن الجســـومَ مثنـــاةٌ جَوارحُهـــا
إلا القلوب فَصــيغتْ وهــي أحْــدانْ
لكـــل قَلــبٍ قَــرينٌ يُســـتتمُ بــــهِ
خَلق وخُلُق فهل يُرضِــيكَ نقْصَــانْ
إنَّ التَعـــاطُف بـــالأرْواح بُغيَتُنـــا
وفي الوجوه علــى الأرْواحِ عِنْــوانْ
تمثالُك الصَّخر أحْظَى منكَ إنْ نَفَــرَتْ
عنْك العيونُ ، ولم يشْــمَلْك وجــدانْ
إنا لمن مَعْشــر حــبُ الجَمــال لهــم
حب لمَا كانَ في الدُّنيا ومَــنْ كَــانُوا

ليـــأمن الطيـــر أنـــا لا تكيـــد لـــه
ولا نخف مَكْرَنـــا وحـــشٌ وعقبـــانُ
لو تسَمع الوُرْقُ نَجوانـــا لكـــانَ لَهـــا
منَّا غصـــونٌ نَضِـــيراتُ وأحضَـــانُ
أو كانَ يـــدْرِي حَيـــيُ النَّبـــت عِفَّتَنـــا
لم تُغـــض منّـــه بأيْـــدِينَا أغْيْصـــانْ
أو يَنظـــرُ السَّـــائمُ النَّـــابي طَوِيَّتنـــا
لـــم تـــألف القفـــر آرم وغِـــزْلانُ
ولا اتقى الحوتُ شرَاً حـــينَ يُبْصـــرنَا
إذا وقتـــهُ شـــباكَ الإنـــس قيعـــانُ
يـــا ليـــتَ أنَ لَنـــا كَهْفـــاً تَعـــوذُ بـــه
إنْ رَاحَ يُفْزعهَـــا بَغـــيُ وعـــدوانُ
ما ضـــرَ قانصـــها أن لا يكـــونَ لَهـــا
غيرُ الفَلا وحجـــازُ الأفـــقِ قُضْـــبانُ
أيـــن الحَمَـــائمُ تَشْـــدُو فـــي أرائكَهـــا
مِـــن الحمـــائم يشْـــويهنَ منطَـــانُ
أو الطُيـــور علـــى السـفَودِ نَاضِـــجةً
مِـــن الطيـــور تهـــاداهُنَ أفنـــانُ
لو أطْلَقُوهَا كَمـــا شَـــاءتْ لكـــانَ لَهـــم
منهـــا قِيـــان كَمـــا شَـــاؤا ونـــدمانُ

* * *

هَلْ يَعرِفُ البيضُ أنَ الحسنَ جَزهــرةٌ
لها الثَراءُ ، شَــراءُ الــنفْسِ ، أثْمــانُ
يَقْنَــوْ نفائسَـــه مـــن لا يســـومُه
وقـــد يَعِـــز علـــى الــلآل قنيـــان
يا جـــوهراً بـــتُ أرعـــاه علـــى أمَـــمٍ
رَعْيَ الشَحْيح ، ومالي فيهِ سُــلْطَانُ
ما في يَـــدِي مِنـــه لا عـــين ولا أثـــر
ولـــى عليـــهِ مَغَـــاليْقُ وأعْيَـــانُ
قد نِلتُ ما نِلتُ من حظٍ بـــهِ غرَضـــاً
وقَدْ تَـــولى ، فَحظـــى منـــه فُقْـــدَانُ
إني إلى الرعَى مـــن عيْنَيـــك مُفْتَقـــرُ
يا ضوء قلبي ، فإنَ القَلـــبَ مُـــدجَانُ
مَنْ لـــي بِمهـــدكَ تَرعَـــاني لَواحِظُـــةُ
ورب مُسْـــتقيظٍ يَرْعَـــاهُ نَعْســـانُ
لـــو أسَـــتَطَيعُ لوقَـــاهُ وظَلَلْـــةُ
قلبٌ تَنام الدارارِى ، وهـــو جَـــوْلانُ
أبيْـــتُ أُزجـــي إليـــهِ كـــلُ ضـــاحِكَةٍ
مـــن الأمـــاني يُـــوحهينَ فتَـــانُ
أزجـــي عـــرائس أحـــلامٍ تَيَمَـــة
في زَبرج بالحيـــاءِ الغـــضّ يـــزْدانُ

تَمضِي بــه بــين جَنَّــاتٍ مَزْخَرَفَــةٍ
فــيهنَّ حُــورٌ وأمَــلاكُ وولْــدَانُ
وسَــاجعاتٌ ناغيــه علــى كُثُــب
حتَّــى يُنبهــه مــنهنَّ إرنــانُ
إذا تنَقــل أو أسَــرى فَمَبهطُــهُ
من خَالصِ العَسْجدِ الوَهَــاجِ أفْــدانُ
مســتمريٌ طيــبَ مجناهَــا وبَهْجتِهــا
قَلبٌ غريــزٌ ولَحــظٌ منــه سَــكْرانُ
وباتَ للقلب في جــنح الظَّــلام إلــى
دَبيــبِ أحْلامــهِ صَــغْو وإرغــانُ
حَسبي الســهادُ إذا مَــا بِــتٌّ أذكــرهُ
وطرفهُ الأكْحــل الوَسْــنانُ وسْــنانُ
إنــي لأغْــنُم وصــلاً فــي تَمنعِــهِ
وَعطْفِه ، وكــلا الوَصْــلين مفِتَــانُ

* * *

ما ضرّ من نَالَ فــي حــين سَــعادتَه
إن فاتهُ في طَوِيــل الــدَّهر أحْيــانُ
إذا جنيــتَ مِــنَ الأيــامِ زَهْرتَهــا
فَــأقْنَعْ فَسَــائِرُهَا شَــوكٌ وعبــدَانُ
ولا وَرَبِــكَ مَــا بــالنَّفسِ مقتنِــعٌ
أكانَ نُجــحٌ لهــا أمْ كَــان حرمــانُ

فإن رَوِينا ، فبعضُ الرَّي مَظْمأةٌ
وأن ظَمِئنا ، فَما يرتَاحُ ظمآنُ
أيُّ الفَريقين أحْمَى لهفةً ووجيً ؟
من ذَاقَ أو لَمْ يَذقْ ، فالكلُ لهفانُ
يا ليلةً حُطمت أنوالُ حائكِها
فلا يُحاك لَها في الدَّهر ثنيانُ
العيشُ من قبلَها شَوقٌ نعمتُ به
والعيشُ من بَعْدِها ذكر وتحنانُ
طالتْ ولا غرو فالجنَّاتُ خالدةٌ
وفي الوصَالِ من الجنَّات ألوانُ
أصبحتُ واللهِ لا أدري لبَهْجَتِها
أليلةٌ سَلَفتْ أمْ تِلك أزمانُ
وكيفَ لا وهي شطرٌ حينَ أحسبُها
والعمْرُ شطرٌ ، وفيها عنهُ رجحَانُ
لقد سَقَانا الهوى خَمراً معتَقةً
صَبابها قَبْلَنا شِيبٌ وشبَانُ
هيهاتَ لا تبلغُ الصَّهباءُ نشوتَها
ولو تناولَ منها وراءِ البحر نشْوانُ
فاضَ الهيامُ على قلبي فَفَاضَ به
نبغٌ لهُ وراءِ الدَمع شطآنُ

وددتُ والـدّمع فـي عينـيَّ محتجـزٌ
لو سَال منه علـى خـدىُ غـدرانُ
أمسيتُ أرشفُ شَـهداً مـن مَراشِـفهِ
والسلْسَـبيلُ بعليـين غيْـرانُ
والنِّيل تجْرى لَـهُ فـي كـل ناحيـة
جـداولٌ لؤلؤيـاتٌ وثغْبـانُ
يَقُودنا حيثُ شَـاء المـوجُ واطـردَّتْ
أمواهـه ، فكـأنَ الفُلـكَ وسْـنَانُ
حتى تصـرَّم جـنح اللَّيـلِ وانبثقـتْ
من كـلِّ مطلـع للصـبح عمُـدانُ
فمَـا أفقنَـا وعـيْنَ الصُّـبح شَـارقة
وما هَجَدْنَا وغُـول اللَّيـلِ سـهْرانُ
بنا سِوى الشَمس والشُّبهان نَرصُـدُها
شموس أنـس مُضِـيئات وشُـهبانُ
سَمِعتُ أعـذب مـا يفتـر عنـه فـمُ
مـن الحـديث ومـا سـاغته آذان
فصـاحةٌ لَثَمـتْ رُوحـي بهـا شـفةٌ
لو ذَاقَها النَّحل لـم يَمـرأه ريحَـانُ
أنفي لرَين النُّهي من كلِّ مـا نَقَشَـتْ
على الصَـحَائف أعـرابُ ويونـانُ

تهتــزُّ بــين طَوايــا الـنَّفس نَبْرتُهــا
كَما يَموجُ لضوءِ الشَّــمس خَيْطَــانُ
ذر الدساتين تحــدوْ وهــي ضــاربة
من ليسَ تحــدوهُ أشــواقٌ وأحَــزانُ
وأطرب لصـــوت تَعــالى أن يُحاكيــه
حاكٍ ، وتُعربَ عــن فَحْــواه أفنَــانُ
ما أنشــد النَّــاسُ إلا كــي تُـذكرَهُم
صــوتَ الحبيــب أناشــيدٌ وألحــانُ
ولا تعَلَــم وزنَ القــولِ شَــاعرُهم
إلاَ وكَــانَ لَــهُ بــالنَّبضِ ميــزَانُ
يا أملحَ النَّــاسِ هــلاَ كنــتَ أكبــرهُم
روحــاً ، فيتفِقَــا رَوحَ وجثمـــانُ
صــدّقتَ بَاطِــلَ مــا قــالوا كــأنهمو
لا يكـــذبونَ ، أو أن العـــذْلَ قــرآنْ
أمـــا علمـــتَ بــأنَ النَّــاس ألســنةٌ
سودٌ لهَا غيــر مــا تُبْدِيــهِ إبطَــانُ
أحــرى مــزاعِمهم بالشَّــك أسـيرُها
فــالحقُ متئــد والإفــكُ عَجْــلانُ
وربَّ قولـــة زورٍ قَالهـــا رجـــلٌ
منهم فَطافَ بها في الأرضِ ركيـــان

تَـــداولوهَا فراحـــتْ فـــي مَـــذاهبهِم
شـــريعةٌ نَقْضُـــهَا كُفــرٌ وعِصـــيْانُ
مـــا كثـــرةُ المثبتـــينَ الأمـــرَ تُثبتـــهُ
ولا بِقلـــــتِهم للحـــــقِّ إيهـــــانُ
فـــإنْ ألـــفَ ضـــريرٍ لـــيس يَعـــدِلُهم
بالمبْصِرِ الفَردِ يومَ الشّـك ميـــزانُ
فاضـــربْ بنعلـــكَ دعـــواهُم فكلهمـــو
خُوَّاض لَيلٍ ، وهم في الصُّبح عميانُ
يا واهبَ اللّيلِ بَـــدْراً هَـــبْ لمشـــبههِ
بَدْراً يضـــيءُ لَـــهُ والقلـــبُ غَيْمَـــانُ
أنا الغريبُ ولي بـــينَ الـــورَى رَحِـــمٌ
بالرَّغمِ مني ، وأصْـــحَابٌ وجِيـــرَانُ
وابعثْ لَنَا الحورَ فالإنسانُ لـــيس لنَـــا
بخـــالصٍ منـــهُ أحبـــابٌ وأخْـــدَانُ
أو الكواكـــبَ سِـــرباً بَيْنَنـــا غـــزلاً
إنَّ الفَضـــاءَ بِـــذَاكَ الســـرب مـــلآنُ

أولا : لمحات من حياة العقاد

إنه من الضروري عند دراسة أي نص أدبي ، التعرف إلى صاحبه ، والوقوف على أهم ملامح حياته ، ومظاهر بيئته ؛ حتى يمكن التعرف إلى ظروف النص وملابساته ، وإمكانية نقده نقداً صحيحاً .

و" العقاد " قد أقرّ هذا المبدأ أو هذه الحقيقة ، إذ رأى أن معرفة البيئة ضرورية في نقد الشعر في أي أمة وفي كل جيل (١) .

ومن ثم فإننا عند دراسة نونية " العقاد " أو " الحب الأول " يكون من الضروري التعرف - دون استقصاء - إلى أهم ملامح شخصية " العقاد " كي تكون الدارسة مكتملة الجوانب على الرغم من أن حياة " العقاد " وسيرته مسطورة في كتب كثيرة ، لكن الدراسة تقتضي الوقوف على أهم هذه الملامح في إجمال يغني عن التفصيل .

ففي وقت رزئت مصر بكارثة الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢م، وتعددت سوءات هذا المحتل وتعاقبت أرزاؤه وخطوبه على الشعب المصري- وتدخل بريطانيا في كل أمور مصر وإخضاعها لنفوذها وسلطانها، وإلغائها للدستور ومجلس الشيوخ وتجريدها من كل سلطان، وتجريد الشعب من جيشه الوطني في ظل هذه الظروف وبُعيد هذا الاحتلال وتلك النكبات ولد الشاعر " عباس محمود العقاد "وبالتحديد في ٢٨ من يونية سنة١٨٩٨ بمدينة أسوان التي تزخر بمعالم الحضارة المصرية القديمة،والتي أسهمت في تكوين وتشكيل شخصية "العقاد" وصفاته وطباعه (٢).

١- انظر شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي - عباس محمود العقاد ص٣ - نهضة مصر - الفجالة ١٩٦٣ .
٢- انظر مولده ونشأته في هذه الكتب : ابداع الشبان وابداع الشيوخ في دنيا الأدب ، والمقالة في أدب العقاد ومع العقاد ، والمفكرون والسياسة في مصر المعاصره ، وأدباء في صور صحفية . وشاعرية العقاد في ميزان النقد ، وجماليات القصيدة المعاصرة ، ومجلة الهلال عدد أبريل ١٩٧٦ والعقاد الرجل والقلم . إلى غير ذلك من الكتب .

وفي هذه المدينة حصل العقاد على الشهادة الابتدائية، التي لم يتجاوزها في تعليمه الرسمي، وأصبح أستاذاً لنفسه في مراحل حياته المختلفة. فاستطاع أن يتقن اللغة العربية إتقانا ساعده على قراءة عيون التراث العربي الأدبي والديني واللغوي ثم تمكن من اللغة الإنجليزية التي كان يتلقى بها دروسه في المدرسة [1] الأمر الذي أتاح له - فيما بعد - قراءة أصول الثقافات الغربية والنظريات الأدبية والفلسفية وساعده ذلك في الاطلاع على أعمال بعض الكتاب والشعراء العالميين أمثال " كارليل " و " هازلت " و " لي هنت " و " أرنولد " هذا بالإضافة على عمله بالصحافة ومشاركته في الحياة السياسية والأدبية - بعد انتقاله إلى القاهرة - وقد غلبت عليه في كل ذلك النزعة النقدية.

كما أنه كان في بواكيره الأدبية ينظم الشعر الوصفي والعاطفي، ولم يتجه في شعره إلى المدح وتملق أصحاب السلطان، بل غلبت عليه النزعة العاطفية وبخاصة في الجزء الأول والثاني من شعره تقريباً - ولا أدل على ذلك من تلك القصائد، لسان الجمال، ومناجاة، ومتى، وليلة الوداع، وخواطر الأرق، والحب الأول التي هي موضوع الدارسة [2].

وقد عمد هو وزميلاه " شكرى " و " المازني " إلى نزعة تجديدية في القيم والمعاني الشعرية بعيداً عن المحاكاة والتقليد.

وهذه النزعة لم تكن فردية بحيث تبرز في الحياة ثم تتلاشى لكنها كانت طليعة جيل جديد غير " شوقي " و " حافظ " و " مطران "، وقد ساعد هذا الجيل أنه كان متسلحاً بالثقافة العربية الواسعة، بالإضافة إلى بعض الثقافات

١- حياة قلم العقاد ص ٦٢ ، كتاب الهلال ١٩٦٢ .
٢- انظر العقاد والتجديد في الشعر ، العوضي الوكيل ص ٨٠ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١ .

الأجنبية . وقد أطلق على هذا الجيل " جماعة الديوان " نسبة إلى هذا الكتاب النقدي الذي أصدره " العقاد " و" المازني " عام ١٩٢١ ، وأودعوه خلاصة فكرهم ونقدهم للتيار المحافظ وشعرائه أمثال " شوقي " و " حافظ " و" عبد المطلب " وغيرهم . وإن لم يخل الكتاب (الديوان) من بعض التحامل على " شوقي " وبخاصة من جانب " العقاد " لكننا نستطيع القول بأنهم قادوا حركة التجديد وأثروا تأثيراً مباشراً أو غير مباشر فيمن أتى عدهم من الشعراء أو عاصرهم [1] وأسهموا في توجيه الشعر العربي الحديث الوجهة الوجدانية التي لا تزال تلازمه حتى اليوم على الرغم من تطور الوجدان من الفردية إلى الجماعية [2]

وإذا ما جاوزنا هذه الجماعة إلى قطب من أقطابها وهو " العقاد " والتعرف إلى مفهومه للشعر نرى أولاً أن شعره صورة لحياته بكل ما اتسعت له هذه الحياة من ألوان المشاعر وضروب الأحاسيس ، وهذه هي النقطة التي قامت عليها فلسفات " العقاد " ودراساته الطويلة في تحديد نظرته للشعر .

فالشعر عنده صورة من التعبير عن الحياة الإنسانية من خلال الذات وبوحي من الإحساس الصادق ، كما أنه امتزاج مستمر بين عالم النفس وعالم الحس ، وتلك هي الصورة التي تلتقي فيها حقيقة الإنسان إنساناً وحقيقته شاعراً ، كما يرى أن الشعر هو المحك الذي يلتقي فيه الفكر بالوجدان ، فلا يمكن أن يكتمل عمل شعري جيد دون أن تجتمع فيه عناصر الفكر وخلجات الأحاسيس والوجدان .

١- أنظر جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث د. عبد العزيز الدسوقي صـ١٦٨ ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١م

٢- أنظر فن الشعر د. محمد مندور صـ١٤٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥

كما أنه يرى أن الشاعر هو ذلك الذي أتخذ من حياته موضوعاً لشعره، يعبر فيه عن ذاته وخصائص شخصيته تعبيراً يفصح عنها من حيث صلتها بموضوعات الحياة ومعانيها ، وهذا يعني أن كل شيء في هذه الحياة يصلح أن يكون موضوعاً أو مجالاً للشعر مهما كان معروفاً أو منكوراً . مادام يضفي على الحياة والأشياء معانيها الحقيقية .

لذا يرى " العقاد " أنه لولا الشعر لما أشرقت على الحياة صورة من صور الحسن ولظلت على جمالها وفتنتها خرساء جامدة ما لم يصورها الشعر . وعن هذه النظرية يقول العقاد [1] :

والشّعرُ ألسنةٌ تُفضِي الحياة بهَا
إلى الحياةِ بما يَطْوِيه كتمانُ
لولا القريض لكانتْ وهي فاتنة
خَرسَاء ليسَ لَها بالقولِ تبيَانُ
ما دَام في الكونِ رُكنٌ للحياةِ يُرى
فَفِي صَحَائفه للشّعرِ ديوَانُ

وهذا معناه أن الشعر يحول ما في النفس إلى أناشيد فياضة بالأحاسيس والمشاعر ، يعبر فيها الشاعر عن الحياة وما فيها من مكنونات وبواعث . وهذا ما أكده " العقاد " في مقدمة الجزء الأول لديوانه إذ يقول [2] :" الشعر يعمق الحياة فيجعل الساعة من العمر ساعات ، عش ساعة مفتوح النفس لمؤثرات الكون التي يعرض عنها سواك ، ممتزجة طويتك بطويته الكبيرة تكن قد عشت ما في وسع الإنسان أن يعيش ، وملأت حقيبتك من أجود صنف من الوقت " .

١- ديوان العقاد . المجلد الأول صـ ٧٣ منشورات المكتبة العصرية - بيروت - لبنان .
٢- مقدمة الجزء الأول من الديوان .

ومن ثم فقد تناول " العقاد " في شعره كل الأغراض ومظاهر الحياة . فتناول الطبيعة بكل ما فيها من عناصر الجمال والفتنة وكل ما يحرك خوالج قلبه ويثير أحاسيسه . كما تحدث عن الحب والغزل الذي اهتم فيه بوصف الروح والشمائل بعيداً عن الوصف المادي الذي أعده تعبيراً عن الغريزة الحيوانية الذي ينبغي أن يرتفع عنه الشاعر حين يصف علاقته بالمرأة . وفي القصيدة التي بين أيدينا تجسد هذا المعنى . ويظهر من خلالها أن " العقاد " يوحد في غزله بين متعة الحس ومتعة النفس مما يدل على صدقه الشعوري ويظهر خصائص نفسه ، وخصائص من يحبه بحيث يتألف من ذلك كله غزل نضج فريد يعجب بالجمال ويتجاوزه إلى الإعجاب باغترار الصبا والإدلال على الأيام إدلال ظافر .

كما أنه من خلال غزله يصلنا بالطبيعة وأبنائها صلة الود والرحمة والتعاطف حيث يقوم له جميع أبنائها بوظيفة الرسول الأمين بينه وبين حبيبه، وحيث يتسق الجميع في لحن واحد جميل ، بحيث ينقلنا من خلال تعبيره إلى عالمه لنشاركه مشاعره في الإحساس الكلي بصلتنا بالحياة قوية دفاقة تسري في شعورنا [1].

كما أنه استخدم الطبيعة استخداماً رائعاً حينما تغزلَ كما سنرى في قصيدة " الحب الأول ".

الجدير بالذكر أن حياة " العقاد "مليئة بالملامح المتعددة . لكننا اقتصرنا على أهم الملامح التي تبرز منهجه الفني واتجاهه الشعري ونهجه في غزله وهذا ما يعنينا في هذه الدراسة .

١- أنظر شاعريه العقاد في ميزان النقد الحديث .د. عبد الحي دياب صـ ١٢٦ .

ثانيا : دراسة النونية (الحب الأول)

يقول العقاد :

يُهْنِيكَ يا زهر أطيارٌ وأُفْنان
الطَّير يَنْشُد والأُفنَانُ عِيدانُ(١)

طُوباكَ لستَ بإنسان فَتشبهني
إني ظَمِئتُ وأنتَ اليومَ ريَّانُ(٢)

هذا الربيعُ تجلَّى في مَواكبِهِ
وهَكذا الدَّهر آن بَعْدَها آنُ

تفتحتْ عنه أكمامُ السماء رضَى
وزفهُ من نَعيم الخُلْدِ رضوانُ (٣)

وشَائعُ النَّورِ في البُستان باسمةٌ
والأرضُ حَاليةٌ ، والماءُ جَذْلانُ(٤)

الشمسُ تَضْحَكُ والآفاقُ صَافيةٌ
جَلْواء والرَّوضُ بالأثْمارِ فَيْنانُ(٥)

١- أطيار : جمع طائر - أفنان الأولى : أنواع ، والأفنان : الأغصان . عيدان : جمع عود وهو ما جرى فيه الماء من الشجر وتجمع على عيدان وأعواد .

٢- طوباك : طوبى فعلى من الطيب ؛ كان أصله طيبي ، فقلبوا الياء واوا للضمة قبلها ، ويقال طوبى لك وطوباك بالإضافة لكن العرب لا تقول طوباك على رأي أكثر النحويين إذ إن الصواب أن نقول طوبى لك إن فعلت كذا وكذا، ومنه قول الله تعالى : ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ أي حسنى لهم ويقال أن طوبى شجرة في الجنة - ريان: ضد العطش ، ونبت ريان أي تروى وتنعم .

٣- زف : الزفيف سرعة المشي مع تقارب خطو وسكون ، وزفت الريح زفيفا وزفزفت هبت هبوبا لينا ودامت . والمعنى أن الزهر قد تفتح وأصبح في صورة جميلة رائعة يتمايل مع الريح الذي مبعثه الجنة .

٤- وشائع النور : وشائع الثوب طرائق نسجه ويعني طرائق نسج الورد في البستان توحي بالفرح والسرور : الأرض حالية : حليت أي صارت ذات حلي . وتحلت : ليست حليا ويقال للشجرة إذا أورقت وأثمرت حالية - جذلان : الجذل بالفتح الفرح . وجذل بالكسر ، بالشيء يجذل جذلا ، فهو جذل وجذلان : فرح والجمع جذلى والأنثى جذلانه ، والمعنى أن الماء يترقرق فرحا وسرورا .

٥- جلواء : يقال جهة جلواء : واسعة .والسماء جلواء أي مُضحية . وليلة جلواء أي مضحية مضيئة - فينان : مثمر .

وللنَّسيم خُفوقٌ في جَوانبِه
وللطُّيور ترانيمٌ وألحانُ [1]

في كل رَوْضٍ قرى للزَّهر يَعْمُرهَا
يا حَبّذا هي أبياتٌ وسُكانُ

مُسْتَأنساتٌ سَرى ما بَيْنها عَبق
كَما تَراسَلَ بالأشْواقِ حِبّان [2]

الوَرْدُ يحمرَ عُجْباً في كَمائِمه
والياسمِينُ على الأغْصَانِ مِيْسَانُ [3]

يستهل " العقاد" معارضته (الحب الأول) بوصف الطبيعة وصفاً ينم عن مقدرة فائقة في الإحساس بما يحيط حوله من مظاهر الجمال والسحر.

فقد فض عنها عقالها الحسي الظاهر، وأحاطها بهالات من خواطره وأخيلته السامقة، وسوانحه النفسية، التي تنظر بعمق إلى الكون والوجود والتغني بالطبيعة والحب. وتصوير أشواق الهوى. ونبض قلبه مع نبضات الطبيعة وخفقات أحاسيسه نحو عناصر الطبيعة والكون، والامتزاج مع الروح المستكنة للوجود.

١- خفوق : خفق : اضطراب ، وقيل خفق الرجل برأسه من النعاس : أماله ، وقيل إذا نعس نعسة ثم تنبه ، وخفق النجم: إذا تلألأ وأضاء ، وريح خفيفة سريعة . والمعنى : أن النسيم يضرب جنبات الروض فيختال فرحا وسرورا - ترانيم : الرنيم والترنيم : تطريب الصوت ، والترنم : التطريب والتغني وتحسين الصوت ، ويطلق على الحيوان والحمام .

٢- عبق : عَبِقَ : بقى ولازم ، وعبقت الرائحة أو الطيب في الشيء تعلق به فلا يذهب عنه - حبان : الحب بالكسر : المحبوب والأنثى حبة وجمع الحب أحباب وحِبان وحبُوب .

٣- كمائم : من الفعل كمم أي ستر يقال كمم الشيء ستره ، والكم برعوم الثمرة أو غلاف الثمرة وهو ما يسترها ، والجمع كمائم وأكمام - ميسان : نائم ، وقيل الوسن أول النوم ، يقال ومن فلان إذا أخذته سنة النعاس ، وميسان تطلق على الرجل والمرأة .

فقد بدأ برسم صورة رائعة مكتملة الجوانب متناسقة الألوان . كأنها صورة حية ناطقة مغنية تفوح بالرائحة الطيبة . فقد ساعده إحساسه الرهيف في تصوره الطبيعة وقد ازدهرت بالأزهار والأطيار . وتجلي الربيع في أزهى صورة بعد أن أقفرت الحياة من مظاهره الخلابة . بالإضافة إلى الأثمار وقد أينعت . وسرت الرياح المحملة بعطور الأزهار والورود . فأصبحت الأرض وكأنها بستان متناسق الألوان والظلال يترقرق الماء بين جنباته .

ويأبى الشاعر إلا أن يضيء لنا هذا المنظر البديع بالشمس ذات النور والضياء الساطع في الأجواء الصافية . ويطل على الأرض وقد امتلأت بالبساتين المحملة بالأثمار التي تتلألأ في هذا الضوء كالذهب .

ويكمل الشاعر الصورة بإحساسه المرهف بامتزاجه بالطبيعة . فيرى النسيم وقد سري بعبق الأزهار وترنيمات الطيور التي تشدو بأصواتها أعذب الألحان وهي تتمايل مع الأغصان .

ويتجاوبُ الشاعر مع أصداء نفسه الحالمة . فيرى الأرض وكأنها قرية عمرت بالزهور المتعددة الأنواع والألوان التي يفوح شذاها طيباً ومسكاً وهذه المناظر الخلابة وتلك اللوحة الرائعة حركت في نفس الشاعر كثيراً من الأحاسيس الحية النابضة والتي أذاعها في بقية القصيدة كما سنرى:

وللقُرنفُلِ أثْوابٌ ينوِّعها
عن البلور صنّاعُ الكفِ رقّانُ[1]
وللبنفسج أمْسَاحٌ ممسَّكةٌ
كأنه رَاهِبٌ في الدَّير محزانُ[2]

١- رقان : مزركش بكسر الكاف

٢- أمساح :المسح : الكساء من الشعر والجمع أمساح - محزان يقال رجل حزنان ومحزان : شديد الحزن . وحزنه الأمر يحزنه حزنا وأحزانه ، فهو محزون .

وحبـــذا زَهْـــرُ الليمـــونِ يُسْـــكِرنا
منهن جَام خَلا من مِثْلــه ألحــانُ[١]

واللّيـــلُ يُحييــه والأطيــار هَاجِعــةٌ
بَلابِــل وشَـــحَارِير وكِـــروانُ [٢]

مؤذن الطَيــر يَــدْعُو فيــه محتسِــباً
فيسْـــتَجيبُ لَـــهُ بـــرٌ وغيـــانُ

والصبحُ فـــي حُلـــلِ الأنْــوارِ طَــرَّزه
في الشرقِ والغربِ أسْحارٌ وأصلانُ[٣]

كأنما الأرضُ في الفــردوسِ سَــابِحةٌ
يَحدُو خُطَاها من الأمْــلاكِ رَبَــانُ[٤]

ضَــاقَ الفَضــاءُ بِمَــا يحوِيْــهِ فَــرِحٍ
فكلُ مـــا فـــي فَضـــاءِ اللهِ فرْحَــانُ

إلا المحـــب الـــذي لا حبـــه دنـــس
ولا مودتـــــه خـــــب وإدهـــــان [٥]

نفـــاه عـــن عـــرس الـــدنيا شـــواغله
إن الحداد عن الأعـــراس شـــغلان[٦]

١- الجام : إناء للشراب والطعام من فضة ونحوها وقد غلب استعماله في قدح الشرب والجمع جامات وأجوام .
٢- البلبل طائر حسن الصوت يألف الحرم ويدعوه أهل الحجاز النفر كِروان : جمع كروان ، وهو طائر صغير لا ينام بالليل - الشحارير جمع شحرور طائر أسود فريق العصفور .
٣- أصلان : جميع أصيل : وهو الوقت بعد العصر إلى المغرب - أسحار جمع السحر : وهو آخر الليل قبيل الصبح ، وقيل : هو من ثلث الليل الأخر إلى طلوع الفجر .
٤- حدا يحدو حدوا وحداء ، زجر الأبل خلفها وساقها ، وتحادت هي : حدا بعضها بعضا ، والحدو سوق الإبل والغناء لها - ربان : الربان بفتح الراء وضمها : الجماعة .
٥- الخب الخداع والخبث والغش والفعل خب - ادهان : الادهان والمداهنة : المصادفة واللين وقيل المداهنة اظهار خلاف ما يضمر والإدهان الغش والملق والنفاق .
٦- الحداد : ثياب المأتم الأسود ، والحاد والمحد من النساء التي تترك الزينة والطيب بعد زوجها .

وبعد أن وصف الشاعر بحسه المرهف وذوقه الرفيع جانباً من الطبيعة بما فيه من مظاهر الجمال من أزهار وأطيار وأشجار ذات أفنان وعيدان وشمس مضيئة وآفاق صافية، وطيور تشدو بأعذب الألحان والترانيم. بعد هذه الصورة الرائعة المتناسقة، أخذ الشاعر في وصف الزهور والورود بأنواعها وألوانها ورائحتها، مما يدل على رقة مشاعره ودقة ملاحظته ورفاهة إحساسه وحبه للجمال وللطبيعة، فالقرنفل قد اكتسى من الحلل أنواعاً مزركشة الألوان، والبنفسج قد لبس أثواباً تفوح مسكاً وعطراً، وهو في لونه الهادي يشبه راهباً انقطع للعبادة في تبتل وخشوع، وزهر الليمون الذي يخلب الأنظار ويسكرها.

وإذا كان النهار قد جمع هذه المظاهر الخلابة والفواحة بالطيب، فالشاعر لا ينسى الليل بما فيه من مظاهر جمالية، فالبلابل والشحارير والكروان تغرد بأصواتها العذبة في جنبات الليل، وقد هجعت الأطيار الأخرى إلى النوم والراحة، وفي الصباح تغدو الطيور من وكناتها تسبح في الفضاء فرحة مسرورة ثم يعود الشاعر إلى النهار والنور الذي كان يعشقه ويقول فيه [1]:

" أحبه صافياً وأحبه مزيجاً، وأحبه مجتمعاً وأحبه موزعاً وأحبه مخزوناً كما يخزن في الجواهر، احبه مباحاً كما يباح على الأزاهر. وأحبه في العيون، وأحبه من العيون، وأحبه إلى العيون .. والحق أنه لا فضاء حيث يكون النور وكيف يكون فضاء ما يملأ العينين، ويملأ الروح، ويصل الأرض بالسماء ".

وهذا يعطينا إشارة إلى أن العقاد كان شغفا يحب النور حتى أصبح ظاهرة في تراثه. وهذا ما نلحظه في قوله :

١- في بيتي - العقاد صـ ٥ .

والصبحُ في حُلل الأنوارِ طرَّزه

في الشرقِ والغربِ أسحارٌ وأصلانُ

فالنهار قد تشكل بهذين الوقتين وقت السحر الذي هو بداية النهار ووقت الأصيل الذي يعطي لوناً ذهبياً ، والأرض قد ازينت بهذه الألوان وتلك الحلل فكأنها سابحة في الفردوس تسوقها جماعة من الملائكة في موكب مهيب يوحي بالفرح والسرور للكون كله إلا ذلك المحب الذي أخلص في حبه ، ولم يدنسه بخداع أو مكر أو نفاق . فلم يعدّله مكان في عرس الدنيا ، إذ إنه انصرف عنها بشواغله وحبه ، فلم يعد همه تلك المناظر وهذه المباهج بقدر ما يهيم بحبه وتباريحه . وهذه إشارة إلى ما في نفس الشاعر من حب وهوى شغله عن مظاهر الجمال في الطبيعة، ولم يعدله بها اهتمام فهو في شغل شاغل بهذا الحب .

وبهذا نرى الشاعر وقد اتسعت مادة شعره في هذه الأبيات ، إذ استوعبت الحياة بكل ما فيها من مناظر طبيعية تخلب الأنظار وتبتهج لها الأسارير مما يدل على نسيج نفسي موزون تجاه الطبيعة بما فيها ، والتي حركت لديه تلك المشاعر . وقد شرح الشاعر مدى ارتباطه بالطبيعة وغيرها من مظاهر الكون فيقول [1] :

" فليست الرياض وحدها ولا البحار ولا الكواكب هي موضوعات الشعر الصالحة لتنبيه القريحة واستجاشة الخيال .. كل ما نخلع عليه من إحساسنا ونفيض عليه من خيالنا ونتخلله بوعينا ونبث فيه هواجسنا وأحلامنا ومخاوفنا هو شعر وموضوع للشعر لأنه حياة موضوع للحياة . وإن التصور لهو خير معوان للإحساس وشاحذ للرغبة أو للنفور ".

١- مقدمة ديوان عابر سبيل صـ ٥٤٨ ،منشورات المكتبة العصرية .

ومـن هـذا المنطلـق مضـى " العقـاد " يلـتقط مـن مرئيـات الحيـاة وبخاصـة الطبيعة ومشاهدها ما يحيله صوراً رائعة التشكيل والتنسيق.

مَـا للطبيعــةِ تَجلّـو حَفْـلَ زِينَتِهَـا
حتى لكـائرٍ منهـا اللَمـحَ ألْـوانُ
كأنما مرنَت من طُـولِ مـا صَـنَعتْ
فليس يُخْطِئها فـي الصـنع إتْقَـانُ
رُحْمَاك يَارب إنَ النَّـاس قَـدْ غُلِبـوا
على الوَقـارِ ، وللأهْـواءِ شَـيْطانُ
لَقَـدْ علمـتَ بأنـا لا قَـرارَ لَنـا
مَع الجمالِ ، وأن الصبرَ وهَنَـانُ[1]
فمـا لَنـا كلمـا دَارتْ نواظِرُنَـا
مُدَّت إلـيهن أوْهَـاقٌ وأشْـطَانُ [2]
مـن كـل ألاقَـهِ بالحُسـن طَلعتـهُ
مُستملح التَّيه ، يغطُو وهو خَجْلانُ[3]
تَنصاحُ طرتـه عـن صُـبحِ غرتـهِ
فَيَفضَحُ الصُبحَ وجهٌ منه ضَـحْيانُ[4]

١- وهنان : الوهن الضعف في العمل والأمر ، ويقال رجل واهن وامرأة وهنانة.
٢- أوهاق : الوهق الحبل تشد به الإبل والخيل لئلا تند - أشطان - الشطنُ : الحبل الطويل الشديد الفتل يستقي به وتشد به الخيل .
٣- ألاقة : متألقة ، والألق والألاق الأولق : الجنون ، وألق البرق يألق ألقا وتألق وائتلق يأتلق ائتلاقا : لمع وأضاء وبرق ألاق : لا مطر فيه . والمعنى على ذلك إما أن يكون من مجنونة بالحب أو من كل براقة بالحب أو مضيئة والثاني أرجح - يعطو : يتطاول إلى الشيء ليتناوله ، والمعنى هنا : يمد جيده كي يراه المحبوب - طلعته : رؤيته ، يقال حيا الله طلعتك ، وطلعة الرجل شخصه وما طلع منه - التيه : الصلف والكبر ، وقد تاه يته تيها : تكبر ويريد هنا الاعتزاز بالنفس والتدلل بالجمال.
٤- تنصاح : انصاح : استنار وانصاح الفجر انصياحا إذا استنار وأضاء واتجلى - طر : الطراة الهيئة الحسنة والجمال.

إذا النَّهارُ تجلَّى من أسرَّته
صحتْ قلوبٌ تحييه وأجْفَانُ[1]
ترنَّح اللين في عِطْفَيه واتَّسقَتْ
فيه الحُلَي ، فهو للأبْصَارَ ميدانُ[2]
ويستهلْ بروضٍ من مُلاَحتِه
كما استهلَّ بروض الزَّهرِ نَيْسَانُ
بالغصن شَبهُ من ليسَ يعرفهُ
وإنَّما هو للرائينَ بُسْتانُ
وهلْ نَماقَط في غصن على شجَر
آس وورْدٌ ونسرينٌ وسَوْسانُ[3]

بعد أن وصف الشاعر بعض ملامح الجمال في الطبيعة في صورة مفصلة ، اعتمد فيها على الألوان المتناسقة بين الزهور والورود ، والتناغم بين الأطيار ، ووصف الليل بما فه من مظاهر الحياة والنهار بأنواره ، فكأنه أحس بعد ذلك أنه لن يستطيع حصر كل ما في الطبيعة من مظاهر جمالية أخذ يصفها وصفاً مجملاً متسائلاً ما الذي دعا الطبيعة إلى إظهار هذا الجمال وتلك الزينة والتي أصبحت في حكم العادة الثابتة التي لا تخطي مكانها ، لكن الشاعر بعد ذلك التساؤل يدرك أن وراء هذه الزينة المغرية وهذا الجمال الصارخ صانع متقن هو الله سبحانه وتعالى ، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، فلا يملك الإنسان تجاه هذا الصنع

١- أسرته : الأسر : القوة والحبس - والمعنى أنه كما تصحو العيون لمطلع النهار كذلك تنتبه القلوب لمطلع وجهه.
٢- ترنح : تمايل من السكر وغيره والمعنى هنا اهتز ومال - عطفيه : العطف : المنكب عطفيه شقاه من لدن رأسه الى وركه والجمع أعطاف .
٣- السوسن : نبت أعجمي معرب ، وهو معروف وأجناسه كثيرة . وأطيبه الأبيض . آس : الأسية البناء المحكم .

البديع المحكم الذي يلف جنبات الكون كله ، ويشد الأنظار ويحرك المشاعر والأحاسيس إلا أن يرجع الأمر لله خالق الكون ومبدعه ، ذلك لأن بعض النفوس ليست لديها قدرة على الصبر تجاه الجمال فيكون إغراءً وفتنة لها . ولم لا وكل ما تقع عليه الأنظار يوحي بالجمال ويأسر اللب ويثير المشاعر .

ولعل الشاعر يقصد بالصنعة المحكمة هنا محبوبته تلك التي أجتمعت فيها كل مظاهر الجمال والبهاء حتى لكأنها أصبحت الطبيعة نفسها بكل ما فيها من مظاهر الفتنة والإغراء ولفت الأنظار وتحريك المشاعر والأحاسيس وهذا ما نلمحه في قوله :

فَمَا لَنَا كلما دَارتْ نواظِرُنَا
مُدَّت إليهن أوْهَاقٌ وأشْطَانُ
من كل ألاقَهِ بالحُسن طَلعتُهُ
مُستمْلح التِّيه ، يغطُو وهو خَجْلانُ

فمحبوبته هذه تلمع وتتلألأ جمالاً وحسناً يبهر العيون ويسكرها ، ومن دلائل هذا الجمال أدبها وحياؤها ؛ فهي تمد جيدها في حياء وخجل لتنظر إليه ، كما أنها تتمتع بطلعة نورانية ووجه منير تصحو له القلوب وتتحرك المشاعر والأحاسيس كما تصحو العيون لمطلع النهار .

وبجانب ذلك فإنها تتمتع بقوام وقدٍ يختال ليناً ورقة كالغصن تهفو به الريح يمنة ويسرة من طراوته ولينه .

كما يزيد من جمالها وبهائها تلك الحلى التي اتسقت عليها ، فصارت محطاً للأنظار وميداناً يجتمع حوله محبو الجمال والبهاء .

ويتجاوب الشاعر مع نفسه الحالة المحبة للجمال الطبيعي الذي لا تكلف فيه ولا تصنع ، فيراها وقد جملت في عينيه ، حتى صارت بستاناً يتألق بالأزهار النضرة ، والورود المعطرة والثمار المتنوعة والمناظر الخلابة التي تلفت الأنظار وتهفو إليها القلوب ، وليس غصناً كما يراه غيره.

ونلحظ من هذا كله أن الشاعر قد جمع لمحبوبته جمال الروح بحيائها وأدبها ، وجمال المظهر بوجهها الصبوح وقدها الجميل الرائع .

ولعل السر في لجوء الشاعر إلى الطبيعة يصف بها محبوبته أن الطبيعة مجبولة على هذا الجمال الرباني الذي لا تكلف فيه ولا تصنع ، والشاعر ولع بهذا الجمال الطبيعي ؛ لذا فقد خلع على محبوته من هذا الجمال بل إنه أختار أجمل ما في الطبيعة وهو البستان بنضرته وخضرته وثماره وحيويته ، ليجتمع لها صفات الحسن والكمال والحيوية والرشاقة .

هذا بالإضافة إلى أن " العقاد " كان يعتبر جمال المرأة أسمى مراتب الجمال ؛ لذا فقد استلهم من الطبيعة أجمل ما فيها وخلعها على محبوبته ، وقد جاءت كل هذه المعاني في أسلوب قوي رصين .

يا مَنْ يراني غَرِيقاً في مَحبتهِ
وجداً ، ويسألني هَلْ أنتَ غصّانُ[(١)]

واضيعةَ الحبِّ أبْدِيهِ وأكتمهُ
ومن عُنِيتُ بهِ عَنْ ذاكَ غفْلانُ

لي في مَديْحكَ أشْعَارٌ أضنُ بها
على امريءٍ فَخرهُ عَرشٌ وإيوانُ[(٢)]

١- الوجد : شدة الحب ، غصان : الغصص بالماء إذا شرقت به أو وقف في الحلق ولم يكد يساغ ، ورجل غصان : غاص .
٢- أضن بها : أبخل بها .

على محيَّاكَ من وشْـــي الصـــبا روَع
وللمُحبـــينَ أحـــداقٌ وأغيـــانُ [1]
فَفـــيمَ تعـــذلُهم إن رَاحَ نَـــاظِرُهم
بحُسنِ وجْهِكَ يهذي وهو ولهَـــانُ [2]
ما الحُسن ذنباً ، فمـــا للحـــب تَحســبهُ
ذنباً من النَّاسِ لا يَمْحُـــوه غُفْـــرَانُ.
همـــا شَـــقِيقَان فـــارفقْ أنْ تحيلَهُمـــا
ضِـــدَّين بينَهمـــا نـــأيٌ وهُجـــرانُ
من علـــم النَّـــاس أنَّ الحـــبَّ مأثمـــةٌ
حتى كأنْ ليسَ غيرَ البُغضِ إحْسَـــانُ
هَبهَـــا جِنَايـــةَ جَـــان أنـــت آثمُهـــا
مَا كَانَ يُعصـــم لا إنـــسٌ ولا جَـــانُ
إنَّ الجســـومَ مثنّـــاةٌ جَوارحُهـــا
إلا القلوب فَصـــيغتْ وهـــي أحْـــدَانُ
لكـــلَ قَلـــبِ قَـــرينٌ يُســـتَتمُ بـــه
خَلَق وخلْق فهل يُرضِـــيكَ نقْصَـــانُ
إنَّ التَعـــاطُفَ بـــالأرْواحِ بُغْيَتُـــا
وفي الوجوهِ علـــى الأرْواحِ عِنْـــوانُ

١- روع : صباحة وجمال - أحداق : الحدقة السواد المستدير وسط العين ويجمع على حدق وأحداق - أعيان : عيون .
٢- تعذلهم : العذل اللوم ، والعواذل من النساء جمع عاذلة أي لائمة .

تمثالكَ الصَّخرُ أحظى منك إنْ نفَـرتْ

عنكَ العيونُ ، ولم يشْـملْك وجـدانُ

ولما كانت هذه صفات محبوبته المعنوية والحسية ، فقد أراد الشاعر أن يظهر ولعه بها ومعاناته من حبه لها ، ذلك الحب الذي اشتد به وأضناه وتحير به ، فمرة يبديه ويظهره وأخرى يخفيه ويكتمه أملاً في إرضاء أو رضا محبوبته لكنه لا يلقي منها إلا الصد والهجران والتغافل ؛ على الرغم من كثرة مدحه لها بأشعاره التي هي خلاصة فكره ونبض مشاعره وأحاسيسه .

ثم يتساءل الشاعر إذا كان هذا هو جمال محبوبته فَلِمَ اللوم على حبه لها مع أن الحب ليس ذنباً كما يتصوره كثير من الناس ؟ كما أن الحب قرين الحسن والجمال بل هما شقيقان لا ينفصلان بل بينهما تلازم وترابط ، وأنه لا يعصم إنس ولا جان من الوقوع في شرك حب الجمال وبخاصة المرأة الجميلة ، ولا ينكر ذلك إلا من تحجرت قلوبهم وتبلدت أحاسيسهم ومشاعرهم، فتصوروا أن الشقاق والهجر هما الحب والإحسان .

وبأسلوب تغلب عليه النزعة الفكرية بينّ الشاعر أن الحب لو كان جناية – كما يزعم الناس – فإنها جناية لا يتبرأ منها أحد ، وليس في مقدورهم أن يتخلصوا منها إذا ما التاطت بقلوبهم وعلقت بأرواحهم ، ويعلل ذلك بأن جوارح الإنسان مثناة إلا القلوب ، فقد خلقها الله وصاغها في الجسوم واحدة، وكي تكون مثناة مثل بقية الجوارح فإنها تحتاج إلى قرين يكملها من الجسوم الأخرى كي يكون بينهما التعاطف الروحي .

ونلمح من هذا أن " العقاد " كان ولعاً بالجمال ، وجمال المرأة بالذات فقاده ولعه بالجمال هذا إلى الحب فراح يبحث عنه في كل إمرأة جميلة تصادفه

ومن ثم خلت حياة " العقاد " العريضة من المرأة حسبما يتفق وشريعة الحب لا حسبما يتفق والتقاليد المتوارثة عن الدين والتي أعتنقها الآباء والأجداد ، وتلك التقاليد هي الزواج ، لكنه على الرغم من ذلك فقد استمتع بالمرأة وتألم ولدت له الحياة معها وتنغصت ، فمنحته المرأة خير ما تعطيه لرجل وسامته شرما تسومه لرجل كذلك ؛ وقد ظهر ذلك في شعره الذي عبر فيه عن سعادته بالمرأة وحبه لها وولعه بجمالها حين تعاطيه الحب، وكذلك يظهر في شعره الذي ذرف فيه دموعه بسبب ما صنعت به المرأة حين يخبو الحب وتنطفيء شعلته (١)

ويستمر الشاعر في وصف ما يعتمل في صدره وقلبه من حب للجمال الذي يعد حباً لكل شيء. فيقول :

إنا لمن مَعْشر حبُّ الجَمالِ لهم
حب لَما كانَ في الدُّنيا ومَنْ كَانُوا

ليأمنِ الطَّير أنَّا لا نَكِيدُ لَهُ
ولا يخفْ مَكْرَنا وحشٌ وعقبانُ(٢)

لو تسمع الوُرْقُ نجوانا لكانَ لَها
منَّا غصونٌ نَضيراتٌ وأحْضانُ(٣)

أو كان يدْرِي حيىُّ النَّبت عِفَّتَنا
لم تُغض مَنه بأيْدِينا أغْيصانُ (٤)

١- أنظر : المرأة في حياة العقاد ، د / عبد الحي دياب صـ ١١ ، دار الشعب ١٩٨٦.
٢- العقبان : العقاب طائر من العناق ، ويقع على الذكر والأنثى ، وقيل هي عتاق الطير وسباعه التي تصيد
٣- الورق : الحمائم والمفرد ورقاء ، والأورق الذي لونه بين السواد والغبرة - أحضان يقال حضن الطائر بيضه بحضن حضنا وحضانة أي وجن عليه للتفريخ ، ويقال حضن الطائر بيضه إذا ضمه إلى نفسه تحت جناحيه وهو المعنى المطلوب في هذا البيت ، والحضن في الإنسان هو الصدر والعضدان وما بينهما وفي الطير الصدر والجناحان.
٤- حيي يقال رجل حيي ذو حياء بوزن فعيل ،وامرأة حيية .

أو يَنظــرُ السَــائمُ النَــابي طَوْيتنــا
لم تــالف القفــر آرامٌ وغِــزْلانُ (1)

ولا اتقى الحوتُ شرّاً حــينَ يُبْصــرنَا
إذا وقتهُ شــباكَ الإنــس قيعــانُ (2)

يــا ليــتَ أنَ لَنــا كَهْفــاً تَعــوذُ بــه
إنْ رَاحَ يُفْزعهَــا بَغــيٌ وعــدوانُ

ما ضــرّ قانصــها أن لا يكــونَ لَهــا
غيرُ الفَلا وحجــازُ الأفــقِ قُضْــبانُ

أيــن الَحمــائمُ تَشْــدُو فــي أرائِكَهــا
مِــن الحمــائِمِ يشْــويهنَ مبْطَــانُ

أو الطُّيــور علَــى السـفُود نَاضــجةٌ
مِــن الطيــور تهــاداهُنَ أفنــانُ (3)

لو أطْلَقُوهَا كَمــا شَــاءتْ لَكَــانَ لَهــم
مِنها قِيانٌ كَمــا شــاؤا ونــدمانُ (4)

يفصح الشاعر عن انشغاله بمحبوبته التي تتمتع بذلك الجمال الآخاذ، الذي لا يعرف معناه ولا حقيقته إلا النفوس المخلصة، التي ترى أن حب الجمال إنما

١- السائم : الذاهب على وجهه حيث شاء والجمع سوائم ومنه سامت الإبل والماشية أي رعت . النابي : الثور الذي ينبأ من أرض إلى أرض أي يخرج . آرام : الأعلام وهي حجارة تجمع وتنصب في المفازة يهتدي بها ، واحدها ارم - القفر - القفرة : الخلاء من الأرض وجمعه قفار وقفور ، وقيل القفر مفازة لا نبات بها ولا ماء.
٢- قيعان : جمع قاع وقاعة رفيع : وهي أرض واسعة سهلة مطمئنة مستوية حرة لا ارتفاع فيها ولا انهباط ، وما حواليها أرفع منها وهو مصب المياه أو هي الأرض التي تنفرج عنها الجبال والأكمام .
٣- السفود : الحديدة التي يشوى عليها ، والجمع سفافيد.
٤- ندمان : نادم الرجل منادمة ونداها : جالسة على الشراب والنديم : المنادم والجمع ندماء وندمان . والمعنى أن الناس لو تركوا الطيور لحالها لكان لهم منها أصحاب وخلان.

هو حب كل شيء ، وأنه مصدر سعادة لمن ينشدها في كل أحواله ، مع محبوبته مع الطيور مع الأشجار والوحوش والحيتان في المياه .

كما أنه أي الحب وسيلة تطهر النفوس ، وتعمل على صفائها ونقائها، وتهدي إلى معرفة الواجب والقيام به ، ولعل هذا هو منزع الرومانتيكيين في حبهم الذي كانوا ينظرون من خلاله إلى المرأة ، على أنها ملك هبط من السماء ؛ ليطهر قلوبنا بالحب ويرقي بعواطفنا ويذكي شعورنا، ويشجعنا على النهوض بأعباء واجباتنا الخلقية والسياسة والوطنية [1]، وأن الكون إذا خلا من الحب انطفأت الشمس ، وأن الله هو المركز الذي تنجذب إليه أصول الأشياء كلها ، وإلى صفة واحدة من صفاته يرجع الخلق والتقدير والأحياء والغرس والوجود والعدم تلك الصفة هي الحب .

وأخيراً فإن الحب مأمون العاقبة في تكوين الفضائل وفي تفتح المواهب ونضج العبقرية [2].

وبناء على هذه النظرة وتلك الفكرة نحو الجمال ، فقد تمثل " العقاد " لقاء محبوبته ، بين الطيور والحمائم والنباتات ، بأزاهيرها التي تتجاوب مع هذا اللقاء، بين الشاعر ومحبوبته وتشهد كلها على عفة وطهارة هذا الحب ، وكذلك بين الحيتان وقد تظللت بهذا الحب الذي اصطبغت به كل عناصر الطبيعة .

ثم يُلقي الشاعر نظرة نحو هذين القلبين ، (قلبه الذي يحترق شوقاً ومحبة كما تشوي الحمائم والطيور على السفود ، وقلب محبوبته الذي يتدله فرحاً مسروراً كالطيور تتهادي بها الأغصان) ، ويرى أن ذلك من مفارقات القدرة

١- أنظر الرومانتيكية ، د/ محمد غنيمي هلال صـ ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، نهضة مصر بالفجالة .
٢- انظر الرومانتكية صـ ١٤٥ .

الخالقة في الحب . تلك المفارقة التي تهزأ بالظواهر والأشكال . وتلعب بالأحاسيس والمشاعر . ويلتفت الشاعر إلى أثر هذه المفارقة فيرى أن هذه المشاعر التي تكمن في غيابة قلبه ومجاهل نفسه وتحترق منها أضلاعه تحتاج إلى قرين يشعر بها . ويتجاوب معها .

ولا يزال الشاعر يصف محبوبته ويبرهن على سبب تعلقه وشغفه بها فيقول:

هلْ يعرفُ البيضُ أنّ الحسنَ جوهرةٌ
لَها الثّراءُ ، ثَراءُ النَّفسِ ، أثمانُ
يَقْنُوُ نفائِسهُ مَن لا يسوِّمه
وقد يَعزِ على اللآلَ قنيان[1]
يا جوهراً بتُّ أرعاه على أمَمٍ
رَعْيَ الشّحِيحِ ، ومَالي فيه سُلْطانُ[2]

ما في يَدِي منْه لا عينٌ ولا أثرٌ
ولي عليه مَغَاليْقُ وأعْيَانُ [3]
قد نلتُ ما نلتُ من حظٍ بهِ عَرَضاً
وقَدْ تَولى ، فَحظِي منه فُقْدَانُ
إنّي إلى الرعَى من عيْنَيكَ مُفْتَقرٌ
يا ضوءَ قَلْبي ، فإنّ القَلبَ مدْخانُ[4]

١- يقنو : قنون الشيء قنوا وقنوانا واقتيته : كسبته . قنيان : ما يتخذ قنية أي مكسب . يسومه : يرعاه
٢- أمم : الأمم القرب ، يقال أخذت نلم من أمم أي من قرب ولرعاه على امم أي على قرب
٣- العين : جمع عيناء ، وهي الواسعة العين - أعيان : جواسيس
٤- مدجان . الدجن ظلم الغيم في اليوم المطير ، والدجن إلباس الغيم الأرض : أدجن يومنا إذا أصب فاظلم.

مَنْ لــي بمهــدكَ تَرعَــاني لَواحظُــه
ورُبَ مُسْـــتقيظٍ يَرْعَـــاهُ نَعْســـانُ
لــــو أسَـــتَطَيعُ لوقَـــاهُ وظَلَلَـــهُ
قلبٌ تَنام الدرارِى ، وهو جــوْلانُ[1]
أبيْــتُ أُزجــي إليــهِ كــلُ ضَــاحِكةٍ
مـــن الأمـــانّي يُــوحهينَ فتّـــانُ
أزجـــي عـــرائس أحــلام تَيممَــهُ
في زَبرج بالحياءِ الغـضِّ يَــزدانُ[2]
تَمضي بــه بــين جَنّــاتٌ مَزْخَرفَــةٍ
فــيهنَّ حُــورٌ وأمَــلاكٌ وولْــدَانُ
وسَـــاجعاتٌ تناغيـــه علـــى كَثَــبٍ
حتّـــى يُنبهـــه مـــنهنَّ إرنـــانُ[3]
إذا تنَقَـــل أو أســـرى فَمَهبطُـــهُ
من خَالصِ العَسجْدِ الوَهّاجِ أفْـدانُ[4]
مســـتمريٌ طيــبَ مجناهَــا وبَهْجَتِهــا
قَلبٌ غرير ولَحظٌ منـــه سَـكْرانُ[5]

١- الدراري : الكواكب اللامعة والمفرد دري - جولان - متحرك مضطرب .
٢- تيممه : يقال تيمم الشيء قصده ، ويممته : قصدته . زبرج : الزينة والوشى .
٣- ساجعات : يقال سجع الحمام يسجع سجعا : هدل على جهة واحدة ، وجع الحمام موالاة أصواتها على طريق واحد - إرنان : الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند الغناء أو البكاء أو صوت الحمام : يقال أرنت الحمائم في سجعها .
٤- العسجد : الذهب ، وقيل هو اسم جامع للجوهر كله من الدر والياقوت - أفدان : قصور مشيدة .
٥- الغرير : المخدوع . من غرر يغره غرا وغرورا أي خدعه وأطعمه بالباطل .

وباتَ للقلب في جنح الظَّلامِ إلى
دَبيب أحْلامِه صَغْو وإرغانُ (١)

حَسبي السهادُ إذا مَا بتُّ أذكرهُ
وطرفةُ الأكْحلُ الوَسْنانُ وسْنانُ (٢)

إني لأغْنم وصلاً في تمنعه
وَعطْفه ، وكلا الوَصْلين مفْتانُ

يحاول الشاعر أن يبرهن على ما في نفسه من حب وشوق لمحبوبته ، فهي ليست من أغمار من يلقي من النساء وليست من لون ما للنساء من قامات وأشكال ؛ إذ تمتاز بجمال يخالف جمالهن فهي جوهرة ؛ لما تحمله بين جنباتها من نفس أبية تعز على كثير من الناس ممن يتمتعون بالجمال الحسي الظاهر.

ونلحظ من هذا أن الشاعر لا يتغزل بالجمال الحسي للمرآة ، أو التعلق بمفاتنها وإظهارها ، وهذا بخلاف " ابن الرومي " الذي تعلق بالجمال الحسي الظاهر . فراح يصف المرأة وصفاً حسياً دقيقاً . لعل ذلك يحد من ثورته نحو شهوة الحس والمتعة . لكن " العقاد " يرى محبوبته وقد تجملت بهذه النفس الغنية بالعزة والكرامة . فهي في مجملها جوهرة مكنونة ، جعل من نفسه رقيباً عليها ، وهو لا يملك منها شيئاً . بل إنه من شدة غيرته عليها يجعل عليها عيوناً ورقباء يحرسونها من نظرات الآخرين .

١- صغو : صغا إليه يصغي ويصغو صغوا وصغوا : مال ، واصغي إليه راسا : أماله . إرغان : الإصغاء إلى القول وقبوله.
٢- وسنان : يقال إمراة وسنى ووسنانة : فاترة الطرف شبهت بالمراة الوسنى من النوم ووسنان الثانية : أي الذي أخذته سنة من النوم.

ويؤكد الشاعر على أن محبوبته صعبة المنال ، وما ناله من وصل إنما كان عرضاً قليلاً ، دون سابق موعد مما يشعره بفقدها الذي هو كل حظه منها .

لذا نراه يتطلع إلى نظرة من عينيها ؛ لتضيء قلبه الذي أظلم وأضنب بغيابها عنه ، وتدللها عليه ، الأمر الذي جعله لا يغفل ولا ينام ، فقد أفلت النجوم والكواكب ، وهو يقظ يتمنى لقاءها ؛ ليسكن من روعة قلبه المضطرب ، ويطفيء من ثورة نفسه المتشوقة إلى هذا اللقاء ، ونلمح هذا الإحساس من قوله :

لو أستَطِيعُ لوقَاهُ وظلّلَهُ

قلبٌ تَنام الدرارِى ، وهو جَوْلانُ

لكن الشاعر لا يملك تجاه هذا التشوق إلا أن يهدي محبوبته تلك الأحلام والأماني التي هي من وحي جمالها ، في صورة تبرهن على طهارة نفسه وعفتها .

فهي أي الأحلام تتسم بالحياء والطهارة فهي على صورة الحور العين والملائكة والولدان المخلدين ، فهو لا يريد أن يفزعها في مهدها ويريد أن تستيقظ على شدو الحمائم وغناء الطيور .

وهذه صورة تتناسب مع ما عليه محبوبته ، من النعيم والعيش الرغد الذي تتقلب فيه ليلاً ونهاراً .

ولما أحس الشاعر باليأس من لقائها والوصول إليها جعل من قلبه - في جنح الظلام - رقيباً على أحلامها لعله يحظى بسماع تلك الأحلام ، ولما كان هذا صعباً إدراكه فقد رجع الشاعر إلى نفسه وما أصابها ، فأيقن أنه لا يملك إلا أن يعيش على ذكراها ويكتفي بالسهر والتفكير في جمال عينيها ، ولم لا وقد رأى في تمنعها وصلا وقربا وفي لقائها وعطفها فتنة ومتعة أو كلا الوصلين مفتان .

وهكذا نرى أن الشاعر قد أحب محبوبته في قربها ووصلها ، كما أحبها في بعدها ونأيها وتدللها ، مما يدل على صدق شعوره وإخلاصه في حبه لها .

كما نلحظ أنه حب تسامت فيه النفس عن غريزة الشهوة والحس ، بل يكفيه أن يبيت ليلة مفكراً في جمالها وحسنها دون أن ينعم بلقياها . مهما كلفه ذلك من شقاء .

ومن هذا نرى أن " العقاد " قد استطاع أن يعبر عن رأيه في الحب والمرأة ، فرأى أن الحب لكثرة عناصره أقرب إلى الشقاء منه إلى السعادة لأنه عرضة لافتراق الهوى في النفس الواحدة حين تتناقض الرغبة والكرامة أو تتناقض أسباب الألفة وأسباب النفور ، وعرضة لافتراق الهوى بين نفسين اثنين لا تزول الحواجز بينهما كل الزوال وإن أفرطا في المودة والوفاء [1] .

ومع ذلك فلابد للإنسان من خوض تجربة حب ؛ ليعرف نفسه ؛ إذ إن الإنسان لا يجد نفسه في شيء كما يجدها في الحب . وأنه لا يعرف ما فيها من قوة وضعف ، ومن عطف وجمود ، ومن رحمة وقسوة ، ومن خفايا وظواهر ومن فجيعة وضحك ، ومن حكمة وحماقة .. من إنسانية وحيوانية إلا من خلال الحب الذي هو ومعرفة النفس صنوان [2]

لذا فقد رأيناه وقد أضناه الحب ، وأصابه السهاد والقلق ، مع علمه أن المرأة التي استحوذت على قلبه هي من أكبر حبال الحياة ، ومن تعلق منها بسبب فقد تعلق من الحياة بأسباب ، وخاض من الدنيا في أعمق الغمرات ، ولا يرفض المرأة والحب إلا من يرفض الحياة [3]

١- أنظر هذه الشجرة عباس محمود العقاد صـ ١٨٥ .
٢- أنظر . يسألونك - العقاد صـ ٤٨ .
٣- أنظر . مطالعات في الكتب والحياة - العقاد صـ ١٤١ .

وإذا كانت هذه نظرات " العقاد " ورأيه في الحب . فلا غرابة أن نسمع منه تلك النغمات العذبة الساحرة التي أباح فيها بمكنون نفسه ، ورأى الغنم في تمنع المحبوبة ووصلها على السواء .

ويستمر العقاد في التعبير عن تجربته من خلال دفقات شعورية فياضه فيقول :

ما ضرّ من نَالَ في حينِ سَعادتَه
إن فاتهُ في طَويلِ الدَّهر أحْيان
إذا جنيتَ منَ الأيام زَهْرتَها
فَأَقْنعْ فَسائرِهَا شَوكٌ وعِيْدَانُ[1]
ولا وَربِكَ مَا بالنَّفسِ مقتنعٌ
أكانَ نجحٌ لها أمْ كَانَ حِرمَانُ[2]
فإن رَوْينا ، فبعضُ الرَّى مظمأة
وأن ظَمِئنَا ، فَما يرتَاحُ ظمآنُ
أيُّ الفَريقينِ أحْمَى لهفةً ووجىً؟
من ذَاقَ أو لَمْ يَذقْ ، فالكلُ لَهفَانُ [3]

يا ليلةً حُطمت أنوالُ حائكَها
فلا يُحاكُ لَها في الدَّهرِ ثُنيانُ[4]

١- عيدان : كل ما جرى فيه الماء من الشجر .
٢- نجح : النجح والنجاح : الظفر بالشيء والفوز به .
٣- أحمى : حمى النهار ، وحمى التنور حميا أي اشتد حره وحمى الفرس حمى : سخن وعرق . والمعنى : أي الفريقين أشد لهفة . وجي : الوجي التعب والخفي والفتور ، ووجي : لتوعن المشي.
٤- ثنيان : الثنى من الرجال بعد السيد وهو الثنيان ، والثنيان بالضم الذي يكون دون السيد في المرتبة . ويقال للذي يجيء ثانيا في السؤود ثنيان وثنى . والمعنى أن هذه الليلة ليس لها نظير في الجمال والبهاء ، حاك : أصله حوك يحوكه حوكا وحياكا وحياكة : نسجه ورجل حائك أي ناسج.

العيشُ مِن قبلِهـــا شَـــوقٌ نَعمـــتُ بِـــه
والعيشُ من بَعْـــدِها ذكـــرٌ وتحنـــانُ

طالـــتْ ولا غـــرو فالجنَّـــاتُ خالـــدةٌ
وفي الوِصَالِ مـــن الجنَّـــاتِ ألـــوانُ

أصـــــبحتْ واللهِ لا أدْري بهجتهــــا
أليلـــةٌ سَـــلَفتْ أمْ تِلـــكَ أزْمَـــانُ

وكيفَ لا وهي شطرٌ حـــين أحســـبُها
والعمرُ شطرٌ ، وفيها عنهُ رُجْحَانُ(1)

لقـــد سَـــقَانا الهـــوى خَمـــراً معتَقـــةً
صَـــبابها قَبْلنـــا شِـــيبٌ وشُـــبَانُ (2)

هيهـــاتَ لا تبلـــغُ الصَّـــهباءُ نشـــوتَها
ولو تناولَ منها البحـــرَ نَشْـــوَانُ (3)

فَاضَ الهيامُ على قلبـــي فَفَـــاضَ بـــهِ
نبعٌ لهُ من وراءِ الـــدَّمع شـــطآنُ (4)

وددتُ والـــدَّمع فـــي عينـــيَّ محتجـــزٌ
لو سَال منه على خـــدي غـــدرانُ(5)

١- رجحان : رجح الشيء يرجح وجوحا ورجحانا (بالضم والفتح) مال وثقل والمعنى لن هذه الليلة تزيد عن شطر عمر الشاعر .
٢- معتقة : أي التي حبست زمانا في ظرفها حتى عتقت أي قدمت - صبا يصبو صبوة وصبوا أي مال الى الجهل والفتوة ، والمعنى أن هذه الخمر فتنت الشباب والشيب .
٣- نشوان : يقال نشيء الرجل من الشراب نشوا ونشوة : سكر فهو نشوان اي سكران .
٤- شطآن : شواطيء.
٥- محتجز : أي تحجز الدمع في العيون . غدران : مستنقع ماء المطر

أمسيتُ أرشفُ شـهداً مـن مَراشِـفهِ
والسَلْسَـبيلُ بِعليـين غيْـرانُ(١)
والنَيل تَجْرى لَـهُ فـي كـلُ نَاحيـةٍ
جـداولٌ لؤلؤيـاتٌ وثُغبـانُ (٢)
يَقُودنا حيثُ شَـاء المـوجُ واطّـردتْ
أمواهـهُ ، فكـأن الفُلـكَ وسـنْانُ
حتى تصـرَّم جـنح اللّيـلِ وانبَثقـتْ
من كلُ مطلُـع للصـبحِ عِمْـدانُ(٣)
فمَـا أفقنَـا وعَـينُ الصُـبح شَـارقة
وما هَجَدْنا وغُول اللّيلِ سَـهْرانُ (٤)
بِنا سِوى الشَمس والشُهبان نَرصُـدُها
شموس أنـسٍ مُضـيئات وشُـهبانُ

مـا زال الشـاعر يسـجل بقريحتـه ويرسـم بريشـته أصـداء نفسـه الحالمـة ، ومـا يعتمـل فيهـا مـن حـب وشـوق . تجـاه محبوبتـه ومـا في طبيعتهـا مـن جمـال روحـي فطـري . يُـدخل السـعادة والنعـيم في قلبـه . ولـو كانـت لحظـة مـن اللحظـات أو ليلـة مـن الليـالي . وهـذه اللحظـات كفيلـة بـأن تجعـل المحـب قانعـاً بمـا جنـاه فيهـا مـن وصـل وقـرب . وبخاصـة وأن الحيـاة لا تسـير علـى نهـج واحـد مـن الصـفاء . لكـن الـنفس مجبولـة علـى الطمـع وعـدم القناعـة ، سـواء أكـان في ذلـك فوزهـا أم هلاكهـا وحرمانهـا.

١- ارشف : رشف الماء والريق : مصه . والرشف ماء قليل يبقى في الحوض . والرشوف : المرأة الطيبة الفم.
٢- ثغبان : الثغب : الغدير يكون في ظل جبل لا تصيبه الشمس ، فيبرد ماؤه والجمع ثغبان وثغبان
٣- عمدان : عمود الصبح : ما تبلج من ضوئه وهو المستظهر منه ، وسطع عمود الصبح على التشبيه بذلك.
٤- هجد : نام . والهاجد النائم.

ويعيش المحب في كلا الحالتين في لهفة وشوق وتعطش ذاق الحب أم لم يذقه . وهذا ما جعل الشاعر يتساءل قائلاً :

أيُّ الفَرِيقينِ أحْمَى لهفةً ووجىً؟

من ذَاقَ أو لَمْ يَذقْ ، فالكلُّ لَهفَانُ

وعلى الرغم من ذلك فإن سعادة الحب لدى " العقاد " لا تغيب عن نفسه وقلبه، فنراه يتحدث عن النعيم وليالي الوصال التي قضاها مع صاحبته ومحبوبته فيقول واصفاً تلك الليلة : أنه نعم فيها بالوصل من محبوبته ، وأنه لجمال هذه الليلة وما فيها من نعيم يصعب تكرارها ؛ إذ لا نظير لها في الجمال . فقد حطمت أنوال حائكها ، وقد كان العيش قبلها شوقاً ينعم به وخلالها وصلاً ونعيماً ونغماً ، وبعدها كان العيش ذكراً لها وتحناناً إليها ، ولم لا تكون بهذه الصورة ، وقد طالت وطال فيها الوصل والقرب ، ولا عجب في طولها ؛ لأن الجنات خالدة ودائمة وفي الوصال والنعيم ألوان من هذه الجنات . بل إنه لطولها وتمتعه فيها بهذه الألوان من النعيم لا يدري أهي ليلة أم أنها أزمان . ويبالغ الشاعر في ذلك فيرى أنها تساوي شطر عمره بل تزيد عليه وتثقله .

ويستمر الشاعر - بإحساسه المتوقد وعواطفه الجياشة الصادقة في رسم ما حدث في هذه الليلة من ألوان النعيم والقرب ، فيرى أنها كانت تشبه الخمر المعتقة التي تفتن الشيب والشبان ، لكنها لم تؤثر فيه ولم يغب عن وعيه ؛ إذ إنه يحيا بهذا الحب الذي فاض على قلبه وتمنى لو سال الدمع من عينيه أنهاراً تعبيراً عن فرحه وسروره بهذا اللقاء ، الذي نال فيه كل ما يشبع نهمه ويحد من شوقه ويبل غلته وظمأه بهذا الرشف العذب ، الذي يشبه السلسبيل في عليين .

وكعادته يختلط بالطبيعة التي طالما لجأ إليها، ليرسم صورة هذه الليلة فيرى أنه قد أحيط بجداول النيل الرقراقة الصافية تجري هنا وهناك ويحمله الموج حيث يشاء، وغول قائم على حراسته. ونور الكواكب والنجوم تضيء جنبات الكون حتى صار الليل وكأنه نهار مضيء.

من الملحوظ هنا أن الشاعر قد جعل الليل ظرفاً للهناء ولقاء المحبوب والاستمتاع بالقرب منه، فانقشع ظلامه وصار نيراً كأنه نهار، وقد أطال الشاعر الليل حتى رأى هذه الليلة وكأنها أزمان، لكنها في النعيم والهناء. وهذا بخلاف بعض الشعراء الذين شكوا من طول الليل وشدة ظلامه، لما تحملوه من الهموم والأحزان. بل إنهم جعلوا الليل سبباً في تلك الهموم. فهذا " امرؤ القيس " يشكو من طول ليله وما نزل به من أنواع الهموم حتى تمنى زوال هذا الليل، فيقول:

ألا أيُّها الليّلُ الطويلُ ألا انجلي

بصبح وما إلا صباحُ منك بأمَثلَ

فَيا لكَ من ليلٍ كأنْ نُجومَه

بأمراسِ كتان إلى صُمِّ جندل

ولعل هذا يرجع إلى نفسية الشاعر ومزاجه، وبخاصة إذا علمنا أن" العقاد " قد رأى النعم في وصل المحبوبة وهجرها على حد سواء. فيعيش ليلة حالماً بها ونهاره ذاكراً لها وهذا لم يتوافر " لإمريء القيس " الذي جعل من ليلة ظرفاً للهم والحزن.

ويستمر الشاعر في وصف هذه الليلة ، فيقول :

سَمِعتُ أعــذب مـــا يفتــرَ عَنـــهُ فَـمٌ
من الحـــديثِ ومـــا سَـــاغَتهُ أذانُ[1]
فصـــاحةٌ لَثمــتْ رُوحــي بهـــا شــفةٌ
لو ذَاقَها النَّحل لم يَمــرأهُ ريحَـــانُ[2]
أنفى لرين النُّهي من كل مـــا نَقَشــتْ
على الصَحَائف أعرابٌ ويونـــانُ [3]
تهتــزُ بـــين طَوايـــا الـــنَّفس نَبْرتُهـــا
كَما يَموجُ لضَوءِ الشَّــمس خَيْطَــانُ
ذرِ الدساتينَ تَحْــدو وهـــيَ ضَـــارِبة
من ليسَ تحدوهُ أشـــواقٌ وأحـــزانُ[4]
وأطربُ لصـــوت تعـــالى أن يُحاكيـــهِ
حالكٍ ، وتُعربَ عـــن فَحْـــواه أفنـــانُ
ما أنشــدَ النَّـــاسُ إلا كـــي تُـــذكرَهُم
صـــوتَ الحبيـــب أناشـــيدٌ وألحـــانُ
ولا تعلَـــمَ وزنَ القـــولِ شَـــاعرُهم
إلاّ وَكـــانَ لَـــهُ بـــالنَّبضِ ميـــزَانُ

١- يفتر : فتر الماء : سكن حره ، وفتر السحاب أي قطر وفرغ ماؤه ، والمعنى أنه سمع كلاما عذبا رقيقا - ساغ : ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغا وسواغا : سهل مدخله في الحلق ، وشراب سائغ وأسوغ : عذب .
٢- لثم : اللثام . لثمت . اذا أراد التقبيل ، ولثمت فاها إذا قبلتها ، واللثام ما كان على الفم من النقاب - مرأ : يقال مرأ الطعام . صار مريئا . ويقال مريء لي هذا الطعام مراءة أي استمرأته .
٣- النهي : العقل . انفي : اشد نفيا وابعادا .
٤- الدساتين : جمع دستان وهو الوتر . والمعنى ان المعازف بأوتارها انما تستحث إلى الشوق من لا شوق عنده . وأما من هو مفعم بالشوق فلا حاجة به اليها

ما زلنا مع الشاعر وهو يصف لنا - بإحساسه المرهف ونفسه المفعمة بالحب والشوق - هذه الليلة التي نعم فيها بوصل محبوبته ، فلم يدع جانباً من هذه الليلة إلا وصفه وصفاً ينم عن حب يلف كيانه ، ويجعله في حالة من الهيام والوجد . فاستمتع بفصاحتها وحديثها الحلو المعسول الذي سرى إلى الأذن سهلاً مستساغاً ، وذاقت روحه طعم حلاوته التي لو ذاقها النحل ما استمرأ الريحان .

ولما كانت هذه هي مشاعره الفياضة بالحب والشوق ، أراد أن يبين أن هذه المشاعر نابعة من قلبه وعقله ، وليس عليهما عتامة أو غمامة أو جهالة؛ كي لا يظن أحد أن الشاعر لا يعي ما يقول ، أو أن ذلك مجرد حُلم ، لكنها الحقيقة والإحساس الصادق الذي صور نبرات المحبوبة تسري بين حنايا نفسه ، وتموج كما يموج الخيط الرقيق من ضوء الشمس الذهبي ، في نشوة وفرح.

كما أن هذا الإحساس وذلك الشوق لا يحتاج إلى ما يستحثه أو يخرجه من أعماقه ، إنه شوق طبعي تعلق بقلبه ، جعله يطرب لصوت محبوبته ، ذلك الصوت الذي لا يشابهه صوت في الجمال والرقة والعذوبة ، والذي ما أنشد الناس إلا أملاً في سماع مثل هذا الصوت الرخيم والنغمات العذبة الرقيقة ، وما نظم الشعراء إلا على تلك النغمات والترنيمات.

وهكذا استطاع الشاعر التعبير عن تجربته ومشاعره ، التي صدر فيها عن إحساس غامر بالحب والشوق ، تمثل في هذا اللقاء وفي هذه الليلة ، التي ذاق فيها طعم النعيم والقرب من المحبوب ، وفاض فيها الحب على قلبه فراح يرشف شهداً أعذب من السلسبيل في عليين ، وطرب لصوتها الرخيم العذب ، وفي هذا دلالة على أن " العقاد " قد أحب المرأة ودان لها . أحبها بالجسم والروح معاً ، أحب قدها ووجهها وصوتها وراح يذرف الدموع الملتهبة من شدة الوجد ويعب من الرشيف .

ويقبل الوجه واليدين ، لعله يبرد غلته ويطفيء ظمئه ، وفي قصيدة أخرى ما يؤكد هذا المعنى :

وألثمُهُ كيما أبردَ غُلتي
وهيهاتَ لا تَلقى معَ النَّارِ رَاوِيا
فقبّلتُ كفيه وقبلتُ ثغرَه
وقبلتُ خديهِ ومَا زلتُ صَاديا
كأنا نَذودُ البين بالقرب بيْننا
فَنشْتَدُ من خَوفِ الفُراقِ تَدانيا

وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يُقبل على المرأة أو لم يفعل ذلك لجمالها أو للتشهي أو التلهي وإنما أقبل عليها لذاتها[1] ، وهو يصرح بذلك ، فيقول :

نَبئيني فَلستُ أعلمُ ماذَا
منكِ قَلْبي بحسنه مَشْغُوف
كَلَ حسنٍ أراك أكْبر منّهُ
إنَ مَعْنَاك تالدٌ وطَريِف
لستُ أهواك للجمّالِ وإنْ كا
نَ ذَكَاءَ يذكي النهى ويشُوف
لستُ أهواك للدَلالِ وإن كَا
نَ ظَريفاً يَصْبو إليهِ الظَّريف

١- أنظر ،الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد،د/ نعمات أحمد فؤاد صـ١١٧ط٢،دار المعارف ١٩٨٠.

ومن ثم نرى أن " العقاد " أحب المرأة جسداً وروحاً وجمالاً ، حباً حقيقياً عبر عنه في كلمات تنم عن خبرته في فهم الحب ، فيقول [1]: " عند الحب سهر أحلى من حُلم النوم ، ونوم أيقظ من سهر الخلود .. عند الحب نور يطوي الشمس والقمر وموعد ينسى الليل والنهار... عند الحب حياة يهون من أجلها الموت ، وموت تباع من أجله الحياة ".

ومازال يجسد هذه المعاني في بقية قصيدته (الحب الأول) فيقول :

يا أملحَ النَّاسِ هلاَّ كنتَ أكبرَهُم
روحاً ، فيتفقَا رَوحٌ وجثمانُ [2]

صدَّقتَ بَاطِلَ ما قَالوا كأنهمو
لا يكذبونَ ، أو أن العذْلَ قرآنُ [3]

أما علمتَ بأنَّ النَّاس ألسنةٌ
سودٌ لَها غير ما تُبْدِيهِ إبطانُ [4]

أحرى مزاعِمِهم بالشَّك أسيرُها
فالحقُّ متئدٌ والإفكُ عَجْلانُ [5]

وربَّ قولةِ زورٍ قَالها رجلٌ
منهم فَطافَ بها في الأرضِ رُكْبانُ

١- أخر كلمات العقاد ، عامر العقاد صـ ٦٧ ، دار المعارف ١٩٦٥.
٢- ملح : الملح خلاف العذب من الماء ، والملح : الحسن من الملاحة ، وقد ملح يملح ملوحة وملحا : حسن وهو المقصود هنا وعليه يكون ملح من أفعال الأضداد.
٣- العذل : اللوم.
٤- ابطان : الباطن خلاف الظاهر ، والباطن المحتجب عن أبصار الخلائق وهو اسم من أسماء الله .
٥- متئد : متأني في الأمر وهو من الفعل تود أو من وأد وتكون التاء في الأولى غير أصلية - الإفك : الكذب وقيل الإثم ، أو المعنى هنا الكذب والباطل . عجلان : العجل والعجله السرعة خلاف البطء ، والمعنى أن الحق ثابت والكذب والباطل زائل .

تـداولوها فراحـتْ فـي مَـذاهبهم
شريعةٌ نَقْضُهَا كُفـرٌ وعِصْـيانُ [1]
مـا كثـرة المثبتـينَ الأمـر تُثبتـهُ
ولا بقلـتهم للحـقّ إيهـانُ [2]
فـإن ألـف ضـريرٍ لـيس يَعـدِلُهم
بالمبْصرِ الفَردِ يومَ الشّـك ميـزانُ
فاضـربْ بنعلـك دَعـواهُم فكلهمـو
خُوّاض لَيلٍ،وهم في الصُبح عميانُ[3]

وبعـد أن أسمعنـا الشـاعر نبضـات قلبـه ، وكشـف لنـا عـن خلجـات نفسـه ، واسـتمتاعه بـالقرب مـن المحبـوب ، خَشِـيَ مـن الواشـين والحـانقين ، أن يزرعـوا بـذور الشقاق والبعـد بينـه وبـين محبوبتـه . فـراح يناجيـه ويناديـه أن يكـون أكـبر مـن هـؤلاء جميعـاً روحـاً وجسـماً ، وألا يصـدق النـاس فيمـا يقولونـه ؛ إذ الكـذب واللّـوم سـجية مركـوزة في طبـائعهم ، وأنهـم يظهـرون بألسـنتهم السـود خـلاف مـا يبطنـون ، وأن مـزاعمهم باطلـة لا بقـاء لهـا في وجـه الحـق الـذي يبقـى ويـدوم . " فأمّـا الزَّبـدُ فَيـذْهَـبُ جُفَاء وأمّا ما ينفعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ في الأَرْض".

ويحـاول الشـاعر جاهـداً أن يـبريء سـاحته مـا نسـب إليـه ، وأن مـا حـدث مـا هـو إلا قولـة زور قالهـا واحـد مـن النـاس فسـرت بـين النـاس كسـريان النـار في الهشـيم .

١- نَقض : النقض إفساد ما أبرم ، والنقض : المراجعة والمراودة والمخالفة والأخيرة هي المعنية في البيت والمعنى : أن مخالفة ما تعارف عليه الناس - ولو كان باطلا - أمر مستحيل في عرفهم.
٢- إيهان : الإيهان الخزي والتحقير . والمعنى : أن الحق لا يهان ولا يخزي ولو قل أنصاره .
٣- خواض : أصل الخوض المشي في الماء وتحريكه ، ثم استعمل في التلبس بالأمر والتصرف فيه في غير وجهه حيث أمكن ، والخوض في الكلام ما فيه الكذب والباطل وهو المقصود في البيت . ومنه قوله تعالى :
﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾

حتى أصبحت عقيدة وشريعة في أذهانهم ، لا يستطيعون الفكاك منها أو الرجوع عنها ، لكن هذا ليس دليلاً على صدقهم . فالحق لا يضيع بقلة أنصاره كما أن الباطل لا يدوم بكثرة من يؤيدونه .

وهذه حقيقة صاغها الشاعر ؛ ليبرهن على عمق تجربته في الحياة ، ومعرفته بطبائع الناس ومجريات الأمور .

ولذا نراه يأمر محبوبه بأن يضرب كلام الناس بنعله وأن يضعه تحت أقدامه فكلهم كذابون وخواضون ويصرفون الأمور في غير نصابها ، وعندما ينبلج نور الحق يتعامون عنه ؛ إذ يتخذون من الليل ستاراً لمآربهم وشرورهم ، ولا يستطيعون مقاومة الحق والنور الذي يؤذي أعينهم ، ويصيبهم بالعمى .

ولعل هذه الدفقات الشعورية ، تدل على صدق الشاعر في حبه ، خاصة وأنه الحب الأول في حياته ؛ لذا نراه بكل ما أوتي من قوة شعورية ، وإحساس مرهف ، يحافظ على علاقته بمحبوبته ، مهما وشى الواشون وزعم المبطلون .

وهذه حقيقة تصلح للناس أجمعين ، وخاصة بين المحبين . كما يمكن أن تكون منهجاً يسيرون عليه في كل علاقاتهم وتعاملاتهم .

وفي النهاية يلجأ الشاعر إلى ربه ، ويناجيه ويطلب أن يهبه بدراً ينير به ظلام قلبه ، كما وهب الليل بدراً أضاء الأكوان .

ثم ينفث هذه النفثة التي توحي باغترابه بين أهله وذوي رحمه وأصحابه وجيرانه الذين ليس له دخل في انتسابه إليهم ؛ لذا فإنه يريد أن يؤنس نفسه لا بهؤلاء الناس ، وإنما بالحور العين ، رمز الطهر والصفاء ، والنعيم الذي لا ينقطع ، والكواكب النيرة التي تهدي الضالين ، وتنير دروب السالكين ، وفي هذه النفثة يقول:

يا واهبَ اللّيلَ بَــدْراً هَــبْ لمشــبههِ

بَدْراً يضيءُ لَهُ والقلــبُ غَيْمــانُ(١)

أنا الغريبُ ولي بــينَ الــوَرَى رَحِــمٌ

بالرَّغمِ مني ، وأصْحَابٌ وجِيــرْانُ(٢)

وابعثْ لَنا الحورَ فالإنسانُ لــيس لَنَــا

بخالصٍ منــهُ أحبــابٌ وأخْــدان (٣)

أو الكواكــبَ ســرباً بَيْننــا غــزلاً

إنَّ الفَضــاءَ بِــذاكَ الســرب مــلآنُ

وهكذا طوف بنا الشاعر من خلال هذه التجربة . وأوقفنا فيها على صدق مشاعره ورهافة إحساسه . ورأينا كيف استطاع أن يعبر عن تلك التجربة تعبيراً ينم عما في نفسه من حب وشوق .

١- غيمان : الغيم : السحاب وقيل : هو ألا ترى شمسا من شدة الدجن وجمعه غيوم وغيام.

٢- الورى : الخلق وقال ابني جنى أن الورى لا يستعمل إلا منفيا . وسوغ هنا لأن كلام العقاد في معنى النفي فكأنه يريد أن يقول أنه بالرغم من كثرة أهله وأصحابه إلا أنه ليس له في الورى حبيب .

٣- أخدان : الخدن والخدين : الصديق والجمع أخدان والخدن هو الذي يخادنك ، فيكون معك في كل أمر ظاهر وباطن ومنه قوله تعالى :﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾

الملامح الفنية والتعليق

هذه القصيدة عارض بها " العقاد " قصيدة " ابن الرومي " النونية . التي قالها في مدح الوزير " اسماعيل بن بلبل ، وكان بن الرومي قد بدأها بمقدمه غزلية طويلة . ورائعة في وصف محبوته . وصفاً حسياً ومعنوياً . ثم وصف النساء عامة وما يتمتعن به من كيد ومكر وخداع . ثم انتقل إلى غرضه الأصيل وهو مدح الوزير إسماعيل بن بلبل ، لكن العقاد حينما عارضه لم يعارضه إلا في المقدمة الغزلية التي راقت له وأطلق على قصيدته عنوان (الحب الأول) ، ولذا فإن الغرض الأصيل في هذه القصيدة هو الغزل كما يوحي عنوانها .

وإذا كان " ابن الرومي " قد نهج في قصيدته التي مطلعها :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان
فيهن نوعان تفاح ورمان

وفوق زينك أعناب مهدلة
سود لهن من الظلماء ألوان

نهج القدماء في إنشاء القصيدة الغنائية ، لكن بصورة متطورة ، فرضتها طبيعة الحياة في العصر العباسي . فإن العقاد يعد رائداً من رواد التجديد في الشعر ، وأحد الداعين إلى بناء القصيدة بناء موضوعياً متماسكاً؛ بحيث لا يستقل بيت عما سبقه وما لحقه ، ولا يمكن الانتقال من موضوع إلى آخر . لذا فقد جعل موضوع معارضته " لابن الرومي " هو الغزل ، لكنه على الرغم من دعوته إلى الوحدة الموضوعية والعضوية في القصيدة إلا إنه بدأها بمقدمة في وصف الطبيعة وسحرها ؛ تمهيداً للدخول في موضوعه الأصيل وهو الغزل ، وهو في ذلك متأثر " بابن الرومي " الذي عشق الطبيعة ورأى فيها جمال المرأة وحسنها .

والحق أن مقدمة قصيدة " العقاد " جاءت متناسبة مع الغرض الأصيل لموضوعها الذي وضعت من أجله وهو الغزل ؛ إذ إن هناك علاقة - في مفهوم الشاعر - بين الطبيعة والمرأة ؛ لذا تأتي المقدمة وكأنها جزء من القصيدة ، لا يشعر القارىء بأن هناك فاصلاً بين المقدمة والموضوع.

وأول ما يطالعنا في هذه القصيدة هو أن " العقاد " قد وظف الطبيعة واستخدمها بما يتناسب وميوله واتجاهه في الغزل ، فنراه قد استعان في موضوعه بعناصر الطبيعة الجميلة الساحرة ، من زهور ذات رائحة شذية ، وورود ذات ألوان باهرة ، تثير النفس وتحرك العاطفة ، وتبعث على الراحة، وتلفت الأنظار ، وهذا دليل على أن غزله معنوي ، تحس من خلاله حرارة الشوق وتحرق الوجدان ، وليس غزلاً حسياً مادياً . والأبيات من ١ : ٤ توحي وتؤكد صدق ما ذهبنا إليه .

وهكذا نرى أن الشاعر قد وظف الطبيعة توظيفاً يتلاءم مع ميوله واتجاهه في الحب والغزل ، كما دّل استخدامه للطبيعة على حبه لها وولعه بها .

وباستقراء القصيدة نرى أن " العقاد " قد عالج موضوعه بما يتوافق وتوجهه في الحب والغزل ، وقد سيطرت عليه نزعته الخاصة في هذا الموضوع .

فحينما ننظر إليه لنرى كيف عالج وصف محبوبته ، وعبر عن تجربته نجد أنه وصفها بالجمال الخالص في مظهرها ومخبرها وروحها وجسدها ، وفي هجرها ووصلها . ولعل ذلك راجع إلى مزاجه وهيامه بحبه، فاستوى عنده وصالها وهجرها، ورأى فيهما متعة ولذة ، وقد استطاع " العقاد " أن يعبر عن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس بقوله :

بالغصن شبه من ليس يعرفه
وإنما هو الرائين بستان
يا من يراني غريقاً في محبته
وجداً ويسألني هل أنت غصان

واضيعة الحب أبديه وأكتمه

ومن عنيت به عن ذاك غفلان

إن التعاطف بالأرواح بغيتنا

وفي الوجوه على الأرواح عنوان

كما نلحظ في الأبيات إشارة صريحة إلى أن الشاعر لا يريد التواصل المادي، بل يهدف إلى التواصل والتعاطف الروحي الذي يملأ بالأنس والبهجة والسرور أوقاتاً طويلة . ولا يتحقق ذلك من التواصل المادي ، الذي يزول بزوال أسبابه ودواعيه . ومن ثم نستطيع أن نقول أن الشاعر قد أعطانا خلاصة فكره وعصارة تجربته وخبرته في الحب والغرام ومعرفته بطبائع النساء .

هذا من ناحية الموضوع وكيف عالجه الشاعر وسار فيه ، أما من الناحية الشكلية فإننا نراه قد اختار ألفاظه ومعجمه الشعري بدقة فائقة وبراعة عالية حيث دلت ألفاظه وتراكيبه على ما يدور في خلده من مشاعر وأحاسيس ، وكشفت عن تجربته وعاطفته كشفاً صحيحاً . وهذا ما ينبغي على الشاعر المجيد حين يريد معالجة تجربة من التجارب . فعليه أن يعتمد لنفسه كمّاً ضخماً من الكلمات التي يخدم أو يعرض بها موضوعاً ما ، فيجب أن تكون هذه الكلمات ملائمة ودالة على هذا المعنى الذي يسوقه . وهذا ما يطلق عليه المعجم الشعري . وهو بهذا الوصف يساعدنا على معرفة الشاعر ونفسيته ، وذلك من خلال نوعية الكلمات التي يكثر دورانها في شعره ؛ إذ إن ما يعبر الشاعر عنه حقاً هو طبعه وشخصيته العميقة ، وما يفضله وما ينفر منه ، ومظهره ونشط حياته ونفوذه واتزانه وحيويته وفتوره .

ولذا فإن اختيار الشاعر لكلمات معينة يرجع لأسباب نفسية ، أو لاتجاه شعري ؛ إذ إن لغة الشاعر جزء من تركيبته النفسية . وأن انتقاءه للكلمات

والمفردات يعتمد على طبيعة ما يريد الإفصاح عنه من داخل تكوينه الذاتي ، ومما ترسب من أعماقه .

وبناء على ذلك . فإننا إذا نظرنا إلى معجم " العقاد " الشعري في هذه القصيدة نرى أنه كان يعرف الألفاظ والتراكيب التي تولد الانفعال ، كما كانت لديه موهبة وقدرة على وضع الألفاظ في تتابع إيقاعي ، يدل على ما في نفسه من انفعال شعوري ، هذا بالإضافة إلى عنايته باختيار الكلمات التي لها جرس يضفي على دلالة الكلمة ملابسات ومشاعر في نفسه ، أو تكون بعيدة عن النفس البشرية بصفة عامة .

وأول ما يطالعنا في هذه القصيدة من مختارات لفظية هي تلك الألفاظ التي توحي باندماجه في الطبيعة ، وتوحي بمكنون نفسه الشاعرة التي تعشق الجمال الطبيعي ، ولعله متأثر في ذلك " بابن الرومي " الذي كان مبرزاً في هذا المضمار ، ومن هذه الألفاظ ، زهر – أطيار – أفنان – الربيع – رضوان – وشائع النور – البستان – الأرض حالية – الماء – الشمس – الآفاق صافية – أشار – النسيم – روض – ورد – الياسمين – أغصان – القرنفل – البنفسج – الليمون – الليل – بلابل – كروان – الصبح – أنوار – الشرق والغرب – أسحار وأصلان – الفضاء – الفردوس – الطبيعة – النهار – شجر – غزلان – الحوت – حمائم – الدرارى – ظلام – موج – سلسبيل – شهد – النيل – النحل – البدر – الكواكب ، إلى غير ذلك من عناصر الطبيعة ومفرداتها .

كما نلحظ – كذلك – تناثر بعض المفردات التي توحي بالحب والسعادة والرضا والتفاؤل ، وتتناسب والموضوع الذي يتحدث فيه مثل : يهنيك – طوباك – ينشد – رضا – نعيم الخلد – باسمة – تضحك – مستأنسات – ألحان – فرح – فرحان – المحب – عرس – محبة – وجد – محبين – الحسن – التعاطف بالأرواح –

حب الجمال - نجوى - أحضان - عفة - ندمان - جوهر- ضوء قلبي - ضاحكة - أغنم - وصل- عطف - سعادة - وصال - بهجة - الهوى - نشوان - أطرب - أحباب - أخدان - الحور . إلى غير ذلك من الألفاظ الرقيقة العذبة التي تشيع جواً من التفاؤل والحب في داخل القصيدة ، وتوحي بمكنون نفسه العاشقة للحياة المتطلعة إلى الحب والجمال .

كما نلحظ - أيضاً - في معجم " العقاد " الشعري في هذه القصيدة بعض الألفاظ الغريبة ، وكان في استطاعته أن يأتي بغيرها ؛ وبخاصة وهو الداعي إلى التجديد الشعري وتمسكه وإفادته من تراث الماضي وافتتانه به يصوره جعلت معجمه الشعري مميزاً عن شعراء عصره ومدرسته .

ولعل السر في استعماله لبعض الألفاظ الغريبة أنه كان يتعالي بها على معاصريه الذين كانوا ينظرون إليه نظرة متواضعة ، من حيث المؤهل الذي وصل إليه ، فما كان منه إلا أن استوعب الغريب والمهجور ليتخذه معجماً شعرياً خاصاً ليتحدى أصحاب المؤهلات العالية الذين لا يصلون إليه ، أو ليتحدى شيوخ الشعراء - آنذاك - من أمثال : " محمد عبد المطلب " و" حفني ناصف " و" علي الجارم " من أصحاب مدرسة الأسلوب الذين لا يرون في الشعر إلا استعارة لطيفة ، أو لفظاً فخماً جميلاً . ومن هذه الألفاظ الغريبة : ألاقة بمعنى متألقة - إرغان بمعنى إنصات - رقان أي مزركش - روع أي صباحه الوجه وجماله - تنصاح أي تنجلي - القنعان أي الذي يرضي بالقليل - البحر النجر أي الأصل - الأوهاق أي الأحابيل - ثغبان - أي غدران .

وهكذا نرى من خلال القصيدة أن معجم " العقاد " الشعري قد عبر عن حالته النفسية واتجاهه الفكري وتوجهه في الغزل ، إذا اعتبرنا أن الأسلوب هو الرجل ، أو أن الأسلوب صورة لصاحبه .

وإذا انتقلنا إلى جانب آخر من الجوانب الشكلية في القصيدة وهو الصورة والخيال . فإننا نذكر أولاً أن الصورة الأدبية من الأمور التي يرتكز عليها الشعر . فهي المعرض الذي يعرض فيه الشاعر أفكاره وخواطره . كما أنها تتلون بعاطفته وانفعالاته وتتكون من الكلمات والعبارات في نسق يخطط له الأديب في اختيار نقطة البداية ولحظة النهاية ، وفي اختيار اللغة المناسبة ، والوزن القادر على الإيحاء بالعاطفة الموفقة التي يدل تكرار الصوت فيها أو تنوعه على حالة نفسية مقصودة .

أو هي التركيب القائم على الإصابة في التنسيق - الفني الحي - لوسائل التعبير التي ينتقيها الشاعر المطلق من عالم المحسنات ؛ ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى ، في إطار قوي تام محس مؤثر على نحو يوقظ الخواطر والمشاعر في الآخرين .

وهي بذلك تعد أصدق تعبير عما يجول في النفس من خواطر وأحاسيس وأدق وسيلة تنقل ما فيها إلى الغير بأمانة وقوة ، وأجود موصل إلى الآخر في سرعة وإيجاز ووفرة ، كما أنها أجمل وأنضر طريقة في شد العقل والخيال إليها ، وربط الإحساس بها وتجاوب المشاعر لها ، وإحياء العاطفة وسحر النفس .

والصورة بهذا المعنى تحتاج إلى مصور بارع ليجمع شتاتها وينسق ألوانها حتى تكون موحية ومعبرة عن خواطره وأفكاره وتجربته ، وأهم هذه الأدوات الألفاظ والعبارات وشيء من الخيال .

والصورة الرائعة يصل الشاعر من خلالها وبها إلى قلوب الآخرين ، ويؤثر فيهم وإذا نظرنا إلى قصيدة " العقاد " لنتعرف إلى أهم خصائص الصورة الشعرية فيها ، نجد أولاً : أن مدرسة الديوان وعلى رأسها " العقاد " جعلوا الصورة الشعرية وسيلة لإظهار علاقة الشيء بنفس الشاعر، والتعبير عن الأثر النفسي الذي انطبع في وجدانه ومشاعره ، حتى يثير في نفوس سامعيه وقارئيه انفعالاً مماثلاً للانفعال

الذي أحس به . وبذلك نقلوا الخيال - وهو أهم عناصر الصورة - من مجاله الحسي الذي كان يدور فيه وكان يعني بإعطاء صورة للشكل الخارجي للأشياء وتجسيمها لمجرد الجمع بين صفات حسية دون ارتباط بأحاسيس الشاعر ووجدانه ، إلى وسيلة لإظهار مراد الشاعر والتأثير به في نفوس الآخرين .

هذا بالإضافة إلى تجديدهم في الخيال وعدم الوقوف به عند استعمال العرب بل اتجهوا إلى أخيلة اخرى مستقاة من ثقافاتهم وقراءاتهم في أدب الغرب ومن حاستهم الفنية المتذوقة للجمال .

لذا فقد انخرط " العقاد " في سلك الشعراء الوصافين الذين يعمدون إلى تجسيد مشاعرهم تجسيداً حسياً في صورة حركية ، ذلك ليبعد الغربة عن نفسه ، وينفض عنه أسباب العزلة ، ويحيل الطبيعة إلى شيء أليف محبب.

وأول ملامح صور " العقاد " أنه ينقل الشيء الحقيقي ، لا كما يبدو للحس ، بل ينقل لنا شكل هذا الشيء في نفسه الشاعرة التي تنظر إلى معاني الأشكال المجردة لا إلى مادتها المحسوسة ، كأن يمضي إلى الطبيعة ليتلقى منها ضروباً عديدة من الإيحاء أو ينشد لديها المفتاح الرئيس لأنغامه الكبرى، ثم يخلق من خياله الانسجام الفني الذي يصوغه على هذا الأساس ، يقول " العقاد " في تصوير الربيع والطبيعة :

هذا الربيع تجلى في مواكبه
وهكذا الدهر آن بعدها آنُ
تفتحت عنه أكمام السماء رضا
وزفه من نعيم الخلد رضوان
وشائع النور في البستان باسمة
والأرض حالية والماء جذلان

الشمس تضحك والآفاق صافية
جلواء والروض بالأثمار فينان
وللنسيم خفوق في جوانبه
وللطيور ترانيم وألحان

فالصورة تمثل الربيع في جماله وروعته . لكن الشاعر ينفذ من خلال هذا المنظر الحسي ، إلى طوية نفسه فيجد أن السماء قد رضيت عن الربيع فصارت صافية . وأصبح البستان في حالة من السرور والفرح . انسحبت على كل الأشياء في هذا البستان من ماء وورد وزهور ، حتى الشمس بأشعتها التي تملأ الكون دفئاً وحرارة ، خلع عليها من إحساسه وعاطفته فجعلها ضاحكة مسرورة . ويمتزج هذا السرور بتلك الحركة الرقيقة المنبعثة من ذلك النسيم الذي يلف جنبات الكون ، فيغري الطيور بالغناء والشدو .

وهو هنا متأثر " بابن الرومي " الذي كان مولعاً بتصوير الطبيعة ووصفها ، إذ كانت تمثل عنده حياة النفوس والقلوب ، وأنها حياة تتحرك في كل المخلوقات من أرض وسماء ونبات وطير وماء وأشار ، إلى غير ذلك من عناصر الطبيعة العديدة .

وعلى الرغم من ذلك فقد كان " العقاد " هنا أكثر عمقاً في تصويره للوجد الذي ألّم به من المعشوق من " ابن الرومي " ذلك أن الأول صور الوجد في حديثه إلى الزهر الذي أمضه ثقل الثمار عليه ، وتناوب الطير فوقه ولا عليه أن يحزن مثل المحب . لأنه ليس بإنسان ظامىء معذب لكنه ريان ناعم الملمس ، غض البدن ، طري القوام .

وصورة أخرى " للعقاد " في هذه القصيدة ، تتمثل في تصوير إحساسه بمحبوبته . فيخلع على الكون - بما فيه من عناصر مختلفة - تجربته وإحساسه ،

فيصف هذه المشاهد من خلال آثار المحبوبة في نفسه ، فيرى الكون وقد غمره الفرح والسرور ، وسرت في أرجائه البهجة حتى لم يعد يتسع برحابته لهذا الفرح ، وذلك العرس الذي أقامته الدنيا ، وانشغل عنه الحب الذي أضناه الوجد والهوى . يقول : " العقاد ":

ضاق الفضاء بما يحويه من فرح
فكل ما فضاء الله فرحان
إلا المحب الذي لا حبه دنس
ولا مودته خب وإدهان
نفاه عن عرس الدنيا شواغله
إن الحداد عن الأعراس شغلان

فهذه صورة دقيقة وعميقة تلاءمت أجزاؤها وعناصرها ، وأوشكت على الكمال . لولا تورطه في بعض الصور الجزئية التي أدت إلى تمزيق النسيج المتلائم وتهتك النظم والوحدة التي كان يتزعمها وينادي بها في النقد، ومن هذه الصور الجزئية استعماله لكلمة (ضاق) التي تدل على الضيق والانحسار وكان الأولى أن يستعمل كلمة (فاض) بدلاً منها لتناسب مع عناصر الصورة ، كما استعملها فيما بعد في قوله :

فاض الهيام على قلبي ففاض به
نبع له من وراء الدمع شطآن

كما جاءت كلمات : خب ، ادهان ، نفاه ، شواغله ، الحداد ، شغلان في غير مواضعها ، مما شوه الصورة ومزق وحدتها ، ولم تعبر عن مراده وإحساسه تعبيراً دقيقاً .

ومن الصورة التي برع " العقاد " في تنسيقها ونسجها ، صورة حركة نفسه وما بداخلها من خواطر ومشاعر ، ومن ذلك تصويره لتلك الليلة التي نعم فيها

بالوصل مع حبيبته بأنها لن تعود ؛ إذ حطمت أنوال حائكها ، وقد كان العيش قبلها شوقاً ينعم به وبعدها كان ذكراً وتحناناً . وفي أثنائها تمتع بالوصال . وألوان من الجنات الدائمة حتى طالت ولا يدري أهي ليلة أم أنها أزمان ؟ . يقول العقاد " في وصف هذه الحركة النفسية :

يا ليلة حُطمت أنوال حائكها
فلا يحاك لهما في الدهر ثنيات

العيش من قبلها شوق نعمت به
والعيش من بعدها ذكر وتحنان

طالت ولا غرو فالجنات خالدة
وفي الوصال من الجنات ألوان

أصبحت والله لا أدري لبهجتها
أليلة سلفت أم تلك أزمان

فقد جمع في هذه الصورة حركة نفسه ومشاعره في الماضي والحاضر والمستقبل، وقد جمعت الليلة كل هذه الأزمان ، واتسعت كاتساع الجنات ودوامها.

لذا جاءت الصورة منتظمة الأبعاد ، متناسقة الألوان وخاصة ألوان الجنات المليئة بشتى الثمار، مما جعل الصورة معبرة عن نفسية " العقاد " تعبيراً دقيقاً .

وإذا كان " العقاد " قد أوقفنا بهذه الصورة على شعوره أثناء لقاء محبوبته ففي المقابل يصور فقده لها تصويراً ينم عن حبه وولهه وشدة وجده ومعاناته من هجرها ، فيقول :

يا جوهراً بت أرعاه على أمم
رعى الشحيح ، ومالي فيه سلطان

ما في يـدي منـه لا عـين ولا أثـر
ولـي عليـه مغـاليق وأعيـان
قد نلت ما نلت من حظ بـه عرضـاً
وقد تـولى ، فحظـي منـه فقـدان
إني إلى الرعى مـن عينيـك مفتقـر
يا ضوء قلبي ، فإن القلـب مُـدجان

فقـد اسـتطاع أن يجمـع في هـذه الصـورة بـين صـفات محبوبتـه . ذلـك الجـوهر المضـيء الـذي بـات يرعـاه عـن كثـب وبـين ذلـك القلـب المظلـم ببعـد محبوبتـه عنـه . كمـا أن اسـتعماله لكلمـة (الرعـي) أعطـت للصـورة مسـاحة أكـبر وأرحـب ممـا لـو اسـتعمل كلمـة (النظـر) ؛ إذ إنهـا – أي الثانيـة – تعـني النظـر فقـط . أمـا (الرعـي) فـتعني الرعايـة والاهتمـام والمسـئولية تجـاه المحبـوب ، وهـذه صـورة جزئيـة أسـهمت في إبراز الصورة الكلية وإيضاحها.

وبعـد .. فقـد اسـتطاع الشـاعر أن يعـبر عـن تجربتـه أصـدق تعـبير وأجملـه، مـن خـلال معالجـة فنيـة أوقفتنـا علـى شـاعريته وتمكنـه مـن أدوات فنـه . الـتي سـاعدته في الإتيـان بـبعض الصـور العميقـة والدقيقـة – في الغالـب – وإن اتسـم الـبعض الآخـر بالغموض والإبهام .

كمـا ينبغـي أن نشـير إلى أن " العقـاد " في معارضـته هـذه قـد اسـتفاد كـثيراً مـن " ابن الرومي " في جوانب متعددة .

الفهرس